رمال المريخ

مغامرة بين الكواكب

تأليف: آرثر كلارك

ترجمة: الدكتور إمام إبراهيم أحمد

الوصول إلى الحقيقة يتطلب إزالة العوائق
التي تعترض المعرفة، ومن أهم هذه العوائق
رواسب الجهل، وسيطرة العادة، والتبجيل المفرط
لمفكري الماضي
أن الأفكار الصحيحة يجب أن تثبت بالتجربة

روجر باكون

حصريات مجلة الابتسامة
** شهر فبراير 2016 **
WWW.IBTESAMH.COM

التعليم ليس استعدادا للحياة ، إنه الحياة ذاتها
جون ديوي
فيلسوف وعالم نفس أمريكي

رمال المريخ

مغامرة بين الكواكب

نشر هـذا الـكتاب بالاشتراك

مـــع

مؤسسة فرانـكلين للطباعة والنشر

القـاهرة — نيويورك

فبراير سنة ١٩٦٧



رمال المريخ

مغامرة بين الكواكب

تأليف

آرثر كلارك

ترجمة

الدكتور إمام ابراهيم أحمد

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد فريد - القاهرة

المشتركون فى هذا الكتاب

المؤلف : **أرثر كلارك**

عالم الطبيعة الشهير ، والكاتب ، والرئيس السابق للجمعية البريطانية لما بين الكواكب .

المترجم : **الدكتور امام ابراهيم أحمد**

أستاذ الفلك المساعد بكلية العلوم جامعة القاهرة . تخرج فى كلية العلوم جامعة القاهرة سنة ١٩٤٦ وحصل على درجة الدكتوراه فى الطبيعة الفلكية سنة ١٩٥٤ من جامعة شيكاغو بالولايات المتحدة الأمريكية . عضو الجمعية الفلكية الأمريكية ، وعضو اتحاد الفلك الدولى ، وعضو الشعبة القومية لاتحاد الفلك الدولى . اختير عضواً فى لجنتى الفلك وأبحاث الكواكب وأقمارها التابعتين لاتحاد الفلك الدولى .

ترجم مواد الفلك والرياضة فى الموسوعة العربية الميسرة التى أصدرتها مؤسسة فرانكلين ، كما ترجم لنفس المؤسسة كتاب « الشمس والقمر والنجوم » . من مؤلفاته : « عالم الأفلاك » و « تاريخ الفلك عند العرب » و « سكان الكواكب » و « نافذة على الكون » .

نشر بحوثا عن الـكواكب الصغيرة كانت الأولى من نوعها وقرئت فى اجتماع الجمعية الفلـكية الأمريكية فى ديسمبر ١٩٥٢ ، وكتبت عنه جريدة « النيويورك تايمز » فى ٣٠ من ديسمبر ١٩٥٢ مقالا ضافياً . هذا بالإضافة إلى عشرة بحوث أخرى نشر بعضها فى المجلات العلمية الأمريكية وبعضها فى المجلات العربية .

مصمم الغلاف :
طلعت المصرى

— ١ —

— إذن فتلك أول مرة تصعد فيها إلى الفضاء ؟.. قال الطيار ذلك وهو يضطجع مسترخيا فى مقعده الذى أخذ يهتز فى قاعدته اللفّافة ، ثم عقـــد يديه خلف عنقه دون اكتراث . ولم يكن فى ذلك ما يبعث الطمأنينة فى نفس راكبه .

وأجاب مارتن جيبسون بالإيجاب دون أن يرفع عينيـه عن (الـكرونومتر) وهو يرسل دقات الثوانى متتالية :

— هذا ما حسبته ، لقد جانبت الصواب فى قصصك ـ أعنى ذلك الهراء عن الإغماء تحت تأثير العجلة التزايدية . لماذا يكتب الناس لغوا مثل هذا ؟ إن فى ذلك دعاية سيئة .

— إننى آسف ، ولـكن لعلك تشير إلى باكورة قصصى . ففى ذلك الوقت لم تـكن رحلة الفضاء قد بدأت بعد ، ولذا كان علىّ أن ألجأ إلى الخيال .

فقال الطيار فى استياء وهو لايعير الأجهزة أى اهتمام ، فى حين لم يبق على لحظة الانطلاق سوى دقيقتين :

ربما .. ثم استطرد قائلا : أعتقد أن الأمر يبعث على الفـكاهة ، أقصد حين تواجه هذ الموقف بعد أن كتبت عنه كثيراً .

وفكر جيبسون فى أنه ما كان ليستخدم لفظ الفكاهة ، ولكنه أدرك وجهة نظر الطيار . فعشرات من أبطال قصصه —وأشرارها— تشبثت أبصارهم بعقارب الثوانى فى انتظار أن تقذف بهم الصواريخ إلى مالانهاية . والآن ـ كما يحدث دائما إذا صبر الإنسان وقتاً كافيا ـأدرك الواقع الخيال الروائى . فطريق مستقبله يدخر له لحظة مماثلة بعد تسعين ثانية فقط . نعم ، كان الأمر مضحكا . . مثل رائع تتجلى فيه شاعرية العدالة .

وحدجه الطيار بنظرة قرأ فيها أفكاره ، ثم ابتسم فى ابتهاج وقال: لاتدع قصصك تفزعك . لقد انطلقت بالصاروخ ذات مرة وأنا واقف على قدمىّ ، وكان ذلك بمثابة رهان وإن كان عملا يتصف بالحماقة .

فقال جيبسون فى تأكيد لا مبرر له : لست مذعوراً .

فصدرت عن الطيار همهمة غامضة وهو يتنازل بالنظر إلى الساعة . لقد كان أمام عقرب الثوانى دورة أخرى ليـــدورها ، وما لبث أن استطرد قائلا :

إذن فلو أنى كنت مكانك لما تشبثت هكذا بالمقعد ، فما هو سوى « منجنيز زمردى » وقد تتسبب فى ثنيه .

فاسترخى جيبسون فى حياء وخجل . كان يعـــلم أنه يبنى نتائج افتراضية للموقف . ولكن يبدو أنها كانت أوهاما .

واستطرد الطيار وهو مازال مسترخيا ، ولكنه الآن — كما لاحظ جيبسون — لا يرفع عينيه عن لوحة الأجهزة :

بطبيعة الحال لن يكون الأمر مريحا إذا استغرق أكثر من بضع دقائق ـ آه ، ها قد بدأت مضخات الوقود فى العمل . لا تنزعج إذا ما نجم عن الاندفاع العمودى سلوك غريب ، ولكن دع المقعد يتأرجح حيثما يشاء ، وأغمض عينيك إن كان فى ذلك ما يساعد على الإطلاق (أتسمع الآن بدء عمل نفاثات الاشتعال ؟) سنستغرق حوالى عشر ثوان لنبنى قوة دفع كاملة ـ وفى الحقيقة إذا صرفنا النظر عن الضوضاء نجد أن الأمر تافه ، فما عليك إلا أن تحتمل ذلك . لقد قلت ، ما عليك إلا أن تحتمل ذلك !

ولكن مارتن جيبسون لم يكن يفعل شيئا من هذا القبيل ، إذ كان قد راح فى غيبوبة هادئة ، فى حين لم تزد العجلة التزايدية عن نظيرتها فى مصعد كهربى سريع .

وأفاق بعد بضع دقائق ، وعلى بعد ألف كيلو متر[1] ، وهو يشعر بخجل شديد . وكان شعاع من نور الشمس يسقط على وجهه ، فأدرك أن الغطاء الواقى الموجود على الجدار الخارجى قد انزلق جانبا . ومع أن

---

(١) استخدم النظام المترى طوال هذه الرواية عن أسفار الفضاء . وأساس هذا النظام العشرى هو اعتبار المتر مساويا ٣٩٫٣٧ بوصة . وعلى ذلك يزيد طول الكيلو متر قليلا على نصف الميل (٠٫٦٢ ميل) .

الضوء كان باهراً إلا انه لم يكن قاسياً غير محتمل كما توقع ، وما لبث أن أدرك أن جزءاً من الاستضاءة الكاملة فقط هو الذى ينفذ خلال الزجاج الداكن .

ونظر إلى الطيار الذى كان منحنيا على لوحة أجهزته ومنهمكا فى تدوين السجل . وكان كل شيء هادئاً تماما ، ولكن من حين لآخر تنبعث أصداء مكتومة ـ تكاد تكون صورة مصغرة من الانفجارات ـ وجد فيها جيبسون إزعاجا ومضايقة ، فتنحنح بلطف معلنا عودته إلى رشده ثم سأل الطيار عن كنهها .

وأجاب هذا بإيجاز : انكماشات حرارية فى المحركات، فقد ارتفعت حرارتها إلى حوالى خمسة آلاف درجة وبدأت تبرد بسرعة فائقة . أأنت الآن أحسن حالا ؟

فقال جيبسون وهو يعنى مايقول : إننى بخير ، هل أنهض ؟

وإذا نظرنا إلى الأمر من الناحية النفسية ، نجد أنه هوى إلى القاع ثم ارتد ثانية .. لقد كان فى حالة عدم اتزان رغم أنه لم يدرك ذلك .

وأجاب الطيار فى شك : إذا شئت ذلك ، لكن كن حريصاً واستند إلى شيء ثابت .

واعترى جيبسون إحساس بديع من البهجة ، فقد حانت اللحظة التى ترقبها طوال حياته . لقد كان فى الفضاء ! حقا لقد ساءه كثيراً أن

فاته انطلاق السفينة ، ولـكنه سوف يفسر هذه الناحية حين يكتب عنها .

وعلى مسافة ألف كيلو متر بدت الأرض هائلة ضخمة ، وكان منظرها مخيبا لآماله . وسرعان ما اتضح له السبب ، فقد شاهد من قبل مئات من الصور والأفلام التى التقطتها الصواريخ مما أفقد المفاجأة أثرها ، إذ كان يعلم بالضبط ما يتوقع أن يراه . فهناك أحزمة السحب المتحركة ، التى لا مناص من وجودها ، وهى تزحف ببطء حول العالم وقد ظهرت الحـــدود الفاصلة بين البر والبحر بوضوح تام عند مركز القرص وأمكن تمييز عدد لا حصر له من التفاصيل الدقيقة ، ولـكن كل ذلك يختفى فى الضباب الـكثيف كلما اقتربنا من الأفق . وحتى فى مخروط الرؤية الواضحة تحته مباشرة ، كان التعرف على أغلب المعالم من الصعوبة بمكان وبالتالى لم تـكن تدل على شىء محدد . ولا شك فى أن السرور قد يغمر عالم الأرصاد الجوية للخريطة الحية المعروضة تحته — ولـكن غالبية علماء الأرصاد كانوا قد صعدوا إلى طبقات الفضاء حيث كانت المشاهدة أفضل . وسرعان ما نال التعب من جيبسون فى البحث عن المدن وأعمال الإنسان الأخرى . إن المرء ليشعر بالأسى من التفـكير فى أن كل هذه الآلاف من السنين من حضارة البشرية لم تـكن ذات أثر يذكر فى تغيير المنظر العام الذى يراه تحته .

ثم بدأ جيبسون فى البحث عن النجوم، وهنا صادف خيبة الأمل

الثانية . لقد كانت هناك مئات منها ، ولـكنها شاحبة مصفرة ، مجرد أشباح للحشد الهائل الذى توقع أن يجده خاطفاً للأبصار . فقد كان زجاج القمر الداكن مسئولا عن قمع جبروت الشمس ، كما أنه سلب النجوم جلالتها وعظمتها .

وشعر جيبسون بضيق مبهم ، فلم يحدث سوى شيء واحد كما توقع تماما ألا وهو الإحساس بأنه يسبح فى الهواء ، كما أن القدرة على الاندفاع من حائط إلى آخر بلمسة إصبع أثارت البهجة كما كان يتمنى ، وذلك بالرغم من ضيق المـكان إلى حد لا يسمح بالتمادى فى تجاربه .. وكان انعدام الوزن شيئاً ساحراً ، وذلك بعد الحصول على عقاقير تشل أعضاء حركة التوازن فأصبح دوّار الفضاء فى خبر كان . لقد غمره السرور لذلك، فكم قاسى أبطاله (وبطلاته أيضاً ، وهو أمر مسلم به وإن لم يشر المرء إلى ذلك إطلاقا) . لقـــد تذكر أول تحليق لروبين بلميك كما ذكر فى النسخة الأصلية من « غبار المريخ » ، فعندما كتب ذلك كان واقعاً تحت تأثير د . ه . لورنس (إنه لأمر شائق ، أن يكتب يوما ما قائمة بالمؤلفين الذين لم يكن لهم تأثير فيه فى وقت أو فى آخر) .

ولم يـكن هناك شك فى عظمة لورنس عند وصف الإحساسات الطبيعية ، وبكل أناة تقدم جيبسون ليهزمه على أرضه . نخصص فصلا كاملا لدوار الفضاء شارحا فيه جميع الأعراض من إنذارات بالغثيان يمكن التغاضى عنها أحياناً ، إلى اضطرابات كالتى تحدث تحت سطح

الأرض ولا يستطيع أن يتجاهلها حتى أشد النـــاس تفاؤلا ، إلى الانفجارات البركانية فى الأدوار الأخيرة والإجهاد النهائى الذى يدر الشفقة .

وكان هذا الباب من أفضل الأعمال التى تتصف بالمذهب الواقعى البحت . ولـكن لسوء الحظ أن الناشرين الذين يتعامل معهم كانت أعينهم مسلطة على أناقة نادى « كتاب الشهر » فأصروا على حذفه . لقد بذل جهداً كبيراً فى هذا الباب وعاش فعلا فى تلك الإحساسات فى أثناء كتابته . حتى فى الوقت الحاضر ...

* * *

قال الضابط الطبيب وهو غارق فى أفـكاره ، فى حين كان المؤلف منقاداً كالنائم خلال المغلاق الهوائى :

إنها مسألة جد محيرة ، لقد اجتاز اختباراته الطبية بحالة مرضية وبالطبع قد تناول الحقن المعتادة قبل مغادرته الأرض . لعل الأمر إذن حالة نفسية عضوية .

فأجاب الطيار متأثراً فى مرارة : وهو يتتبع الركب إلى قلب محطة الفضاء رقم (١) : لا يهمنى مابه ، ولـكن كل ما أريد أن أعرفه هو .. من ذا الذى سيقوم بتنظيف سفينتى ؟

ويبدو أن أحداً لم تـكن به رغبة ليجيب عن هذا السؤال النابع من

القلب ، وعلى الأخص مارتن جيبسون الذى كان لا يـكاد يرى سوى جدران بيضاء تنساب أمام ناظريه . ثم بدأ إحساس بطىء بزيادة الوزن صاحبه تأجج دافئ لطيف بدأ يدب فى أطرافه ، وسرعان ما أصبح شاعرا تماما بما يحيط به . لقد كان فى عنبر مستشفى ، تغمره بطارية ذات مصابيح الأشعة دون الحمراء، فى دفء مخدر لذيذ أخذ يسرى خلال لحمه حتى وصل إلى عظامه .

وهنا قال الضابط الطبيب : حسناً .

فابتسم جيبسون ابتسامة واهنة وأجاب : إنى آسف لما حدث ، هل سيتكرر ذلك مرة أخرى ؟

— لست أدرى كيف حدث ذلك. إن الأمر غير عادى، فالمفروض أن العقاقير التى لدينا الآن أكيدة المفعول .

فقال جيبسون معتذراً : أعتقد أن ذلك خطئى وحدى ، إذ أنى أمتلك خيالا خصبا إلى حد ما ، وبدأت أفكر فى أعراض أمراض الفضاء — بطريقة نظرية طبعاً — ولكن قبل أن أدرى ماذا حدث .

فأمره الطبيب فى حدة : حسنا ، فقط دعك من هذا وإلا اضطررنا لإعادتك إلى الأرض . لا يمكنك أن تمادى فى ذلك إذا كنت ذاهبا إلى المريخ ، فلن يتبقى منك شىء يذكر بعد ثلاثة أشهر .

فمرت قشعريرة فى هيكل جيبسون المعذب ، ولكنه بدأ يتمالك

حواسه سريعا ، وكان كابوس الساعة الأخيرة قد تلاشى فعلا فى الماضى ، فقال : سأكون بخير ، دعنى أخرج من هذا الموقد المغطى قبل أن يتم طهوى . . !

ثم نهض على قدميه وهو يترنح قليلا . إن الأمر يبدو غريبا حين تسترد وزنك الطبيعى هنا فى الفضاء ، وما لبث أن تذكر أن المحطة رقم (١) كانت تدور حول محورها ، وأن أماكن النوم أقيمت حول الجدران الخارجية كى تعطى القوة الطاردة المركزية إحساساً زائفا بالجاذبية.

وفكر فى أسى أن المغامرة الكبرى لم تبدأ بداية حسنة على الإطلاق ، ولكنه صمم على ألا يعيدوه إلى بلاده مكللا بالخزى والعار . فلم يكن الأمر مجرد كرامته وحسب ، بل إن أثر ذلك فى جمهوره وسمعته يستحق الرثاء . وانكمش على نفسه حين تخيل العناوين : « إعادة جيبسون إلى الأرض ! دوار الفضاء يهزم مؤلف الملاحة الفلكية » . حتى المجلات الثقافية الأسبوعية الجادة قد تداعبه ، أما عن (التايم) كلا ، إنها لا تحتمل التفكير .

وقال الضابط الطبيب : من حسن الحظ أن أمامنا اثنتى عشرة ساعة قبل رحيل السفينة ، وسأصحبك إلى قسم الجاذبية المنعدمة كى أراقب تصرفاتك هناك وذلك قبل أن أعطيك شهادة صحية نظيفة .

وحبذ جيبسون أيضاً هذه الفكرة ، فقد كان يعتبر نفسه دائما فى

حالة صالحة إلى حد ما .. وحتى هذه اللحظة لم يدر بخلده جديا أن هذه الرحلة قد لا تكون مضنية فحسب، ولكنها فى الحقيقة حافلة بالأخطار. إنك قد تستخف بدوار الفضاء ، إذا لم تجربه بنفسك ، لكن الأمر يختلف تماما .

وكانت المحطة الداخلية — أو « محطة الفضاء رقم(١) » كما كانت العادة فى تسميتها —على مسافة تربو قليلا على ألفى كيلو متر من الأرض ، وتدور حول الكوكب كل ساعتين . لقد كانت أول درجات سلم الإنسان إلى النجوم ، ومع أنها لم تعد بعد ضرورة فنية لأسفار الفضاء ، إلا أن وجودها كان بالغ الأثر من الناحية الاقتصادية للسفر بين الكواكب . فكل الرحلات إلى القمر ، أو الكواكب بدأت من هنا ، فالسفن الذرية المعقدة كانت تسبح إلى جوار هذا المركز الأمامى للأرض ، فى حين تشحن حمولتها الآتية من العالم الأصلى فى عنابرها . وتقوم صواريخ ذات وقود كيموى بعمل جسر للخدمة يصل بين المحطة والكوكب أسفلها ، إذ أنه طبقا للقانون لم يكن يسمح لأى وحدة تسير بالذرة بالعمل فى حدود ألف كيلو متر من سطح الأرض ، وحتى حدود الأمان هذه ، كان البعض يحس أنها غير كافية لأن الاندفاع الإشعاعى لوحدة المحركات النووية يستطيع قطع هذه المسافة فى أقل من دقيقة .

وخلال السنين الماضية تطورت محطة الفضاء رقم (١) عن طريق عملية توسُّع ، حتى إن من قاموا بتصميمها فى الأصل ما كانوا ليعرفوها

إطلاقا . فحول القلب الـكروى المركزى تراكمت المراصد ومعامل اتصالات ذات مجموعات هوائية خيالية ، بالإضافة إلى معدات علمية مذهلة لا يمكن لغير المختص أن يعرف كنهها ، ولـكن بالرغم من كل هذه الإضافات فإن المهمة الأساسية للقمر الصناعى كانت لا تزال تزويد السفن الصغيرة بالوقود حتى يستخدمها الإنسان فى تحدى العزلة الهـائلة للمجموعة الشمسية .

وبينما كان جيبسون يقوم بتجربة قدميه سأله الطبيب : أواثق أنت أنك الآن أحسن حالا ؟

فأجاب وهو غير راغب فى أن يتقيد بإجابة محددة : أعتقد هذا .

— إذن تعال إلى حجرة الاستقبال وسنقدم إليك شرابا .. ثم أضاف تجنبا لسوء الفهم : شرابا ساخنا لذيذا ، ويمكنك أن تجلس هناك حيث تقرأ الجريدة مدة نصف ساعة قبل أن نقرر ما سوف نتخذه بشأنك .

وخيل إلى جيبسون أن الحضيض يعقبه حضيض ، فها هو ذا على بعد ألف كيلو متر من الأرض تحيط به النجوم من كل جانب ، ومع ذلك أرغم على الجلوس ليرتشف الشاى الحلو — الشاى ! — فى مكان أشبه بحجرة انتظار عادية عند طبيب الأسنان . ولم يكن بها نوافذ حتى لا يحدث أثر عـكسى يفسد المجهود الطيب للهيئة الطبية نتيجة لمنظر السماوات وهى تدور فى سرعة فائقة . وكانت الوسيلة الوحيدة لقتل

الوقت هى تصفح سريع لكومة من المجلات التى اطلع عليها من قبل ، والتى كان يصعب استعمالها ، إذ كانت طبعات خفيفة جدا على ورق لفائف التبغ . ومن حسن الحظ ، عثر على نسخة قديمة جدا من مجلة « أرجوسى » تحتوى على قصة كتبها بنفسه منذ أمد طويل حتى إنه نسى نهايتها تماما ، فأمده ذلك بالسعادة حتى رجع الطبيب .

وقال الضابط الطبيب فى استياء : إن نبضك يبدو طبيعيا ، سنصحبك إلى غرفة انعدام الجاذبية ، وما عليك إلا أن تتبعنى ولا يدهشنك أى شىء قد يحدث .

وعقب هذه الإشارة الغامضة قاد جيبسون خارجا إلى دهليز متسع ساطع الإضاءة يبدو منحنيا إلى أعلى فى كلا الاتجاهين ، مبتعدا عن النقطة التى كان يقف عندها . ولم يكن لدى جيبسون متسع من الوقت ليفحص هذه الظاهرة ، لأن الطبيب فتح بابا جانبياً منزلقا وبدأ يرتقى سلما من الدرجات المعدنية . وتبعه جيبسون آليا لبضع خطوات ثم ما لبث أن أدرك تماما ما يقع أمامه ، فتسمر فى مكانه مطلقا صرخة دهشة لا إرادية .

فتحت قدميه مباشرة ، كان ميل السلم معقولا (خمساً وأربعين درجة) ولكن ازدادت شدة انحداره سريعاً حتى أصبحت الدرجات ترتفع عموديا على بعد اثنى عشر مترا فقط . ويلى ذلك مشهد إذا صادفه

شخص لأول مرة فإنه قد يفقد أعصابه، إذ تستمر زيادة الميل حتى تصير الدرجات معلقة فوق الرأس وأخيرا تختفى عن البصر فوقه وخلفه .

وحين سمع الطبيب صيحته ، التفت خلفه وأطلق ضحكة مطمئنة ثم قال : لايجدر بك أن تصدق عينيك دائما ، هيا تقـــدم لترى كم هو أمر هين .

وتبعه جيبسون فى تردد ، وما لبث أن أحس بحدوث أمرين على جانب من الغرابة . فأولا : كان وزنه يخف بالتدريج .. وثانياً : بالرغم من شدة الانحدار الظاهرة للسلم فإن الميل تحت قدميه ظل ثابتا عند خمس وأربعين درجة . وفى حقيقة الأمر كان الاتجاه الرأسى نفسه يميل ببطء كلما تقدم إلى الأمام ، وبذلك لم يتغير ميل السلم على الإطلاق رغم انحنائه المتزايد .

ولم يستغرق الأمر طويلا ليصل جيبسون إلى تعليل ذلك . فالجاذبية الظاهرية بأكملها كانت نتيجة للقوة الطاردة المركزية التى يولدها دوران المحطة ببطء حول محورها ، وكلما اقترب من المركز كانت القوة تتناقص تدريجيا نحو الصفر . وكان السلم نفسه يلتوى إلى الداخل نحو المحور متخذاً فى ذلك طريقا حلزونيا — كان يعرف اسمه الرياضى ذات مرة — وعلى ذلك فبالرغم من وجود مجال الجاذبية القطرية فإن الميل تحت القدم ظل ثابتا . لقد كان ذلك من الأشياء التى يجب أن يألفها المقيمون فى

محطات الفضاء ، فالمفروض أن منظر السلم العادى الذى يرونه عند عودتهم إلى الأرض يصيبهم كذلك بحالة عدم استقرار .

وفى نهاية الدرجات لم يعد هناك أى إحساس فعلى بالاتجاهات (أعلى وأسفل) . لقد كان فى حجرة أسطوانية طويلة تتخللها شبكة من الحبال وفيما عدا ذلك كانت خالية ، وفى نهايتها القصوى يندفع شعاع من ضوء الشمس خلال فتحة للرصد . وفيما كان جيبسون يراقب ذلك ، تحرك الشعاع عبر الجدران المعدنية بانتظام كما لو كان نوراً كاشفا منقبا ، ولم يلبث أن احتجب فجأة ثم سطع ثانية خلال نافذة أخرى . وكان ذلك أول الأدلة التى لمسها جيبسون عن الحقيقة الواقعة وهى دوران المحطة فعلا حول محورها ، وأمكنه أن يحدد بالتقريب مدة الدورة عن طريق ملاحظة الفترة التى يستغرقها شعاع الشمس ليعود إلى موضعه الأصلى . وكان طول « اليوم » فى هذا العالم الصناعى أقل من عشر ثوان ، وهو كاف ليعطى إحساسا بجاذبية طبيعية عند الجدران الخارجية .

وأحس جيبسون أنه أشبه بعنكبوت يتحرك على نسيجه حين كان يتعقب الطبيب على طول الحبال المرشدة له ، يجر نفسه فى الهواء دون مجهود حتى وصل إلى مركز الرصد ، فرأى أنه عند نهاية أشبه بالمدخنة تبرز على طول محور المحطة ، وبذلك كانوا بعيدين عن معداتها وأجهزتها ولا يكاد يعوق أبصارهم شىء عن رؤية النجوم .

وقال الطبيب :سأتركك فى هذا المكان هنيهة، فهنالك الكثير مما يستحق المشاهدة ، وستكون فى غاية السعادة وإلا .. حسناً ، تذكر وجود جاذبية طبيعية أسفل هذه الدرجات .

وفكر جيبسون فى صواب هذا القول . . نعم ، ثم يعقب ذلك أيضاً رحلة الإياب للأرض فى الصاروخ التالى ، ولكنه كان مصراً على اجتياز الاختبار والحصول على شهادة طبية نظيفة .

وكان من المستحيل أن يدرك المرء أن سفينة الفضاء نفسها هى التى تدور بدلا من الهيكل الذى يضم الشمس والنجوم . والاقتناع بنقيض ذلك يحتاج إلى إيمان به وقوة عزيمة . فقد كانت النجوم تتحرك بسرعة فائقة لدرجة أن اللامعة منها فقط هى التى كانت تظهر بوضوح ، وحينما أجاز جيبسون لنفسه أن يلمح الشمس من جانب عينه بدت له كمذنب ذهبى يعبر السماء كل خمس ثوان . وبهذه الزيادة الخيالية فى سرعة نظام الظواهر الطبيعية ، أصبح من اليسير إدراك أسباب رفض الإنسان فى الأزمنة الغابرة الاقتناع بدوران الأرض ، وكيف أنه أرجع كل هذه الحركة إلى دوران الكرة السماوية .

وكانت الأرض تبدو كهلال كبير يمتد عبر نصف السماء ، إذ كان جسم المحطة يحجب جزءاً منها ، وكان جرم الهلال يتزايد ببطء فى أثناء انطلاق المحطة فى مسارها حول الكرة الأرضية ، وبعد حوالى أربعين

دقيقة تصير كالبدر ، ثم تختفى تماما بعد ذلك بساعة وتصبح درعا سوداء تكسف الشمس حينما تخترق المحطة مخروط ظلها. وهكذا تمر الأرض بجميع مراحل أوجهها — من هلال إلى بدر وبالعكس — فى ساعتين بالضبط . وكلما فكر الإنسان فى هذه الأمور ، اختلط عليه الإحساس بالزمن ، فالتقسيمات المألوفة للنهار والليل والشهور والفصول لا معنى لها هنا .

وعلى مسافة كيلو متر تقريبا من المحطة كانت هناك سفن الفضاء الثلاث التى تصادف وجودها « فى المرفأ » فى تلك اللحظة ، وكانت تتبع المحطة فى مسارها وإن كانت حينئذ غير مرتبطة بها بأى وسيلة ، وإحدى هذه السفن .. ذلك الرأس الدقيق الشبيه بالسهم ، للصاروخ الذى أتى به من الأرض منذ ساعة بكثير من التكاليف والقلق . وكانت الثانية حاملة بضائع وجهتها القمر ، وتبلغ حمولتها الكاملة حسب تقديره حوالى ألف طن . أما الثالثة فكانت هى « الأريس » بلا ريب ، تكاد تبهر البصر ببريق طلائها الألمونيومى الجديد .

ولم يحدث قط أن استسلم جيبسون وتخلى عن سفن الفضاء الملساء الانسيابية التى كانت حلم أوائل القرن العشرين ، ولم يكن يفكر فى سفينة فضائية على هيئة ازدواج متألق معلق أمام النجوم .. ومع أن العالم قد رضى بذلك ، إلا أنه شخصياً لم يستسغ الفكرة . وكان يعلم بطبيعة الحال تلك الحجج المألوفة ، وهى أنه لا حاجة إلى صنع سفينة

انسيابية لن تدخل الغلاف الجوى .. وتبعاً لذلك يخضع التصميم لاعتبارات التركيب وآلات توليد الطاقة وحدها . وبما أن الوحدة المحركة شديدة الإشعاع ، فيجب أن تكون أبعد ما يمكن عن أماكن طاقم السفينة ، وأبسط حل لذلك هو كرتان تصل بينهما أنبوبة طويلة .

وفكر جيبسون فى أن ذلك أقبح الأشكال ، ولكن ذلك لم يكن أمراً هاماً مادامت « الأريس » تقضى كل حياتها فى الفضاء السحيق حيث النجوم هى نظارتها الوحيدة . وكان المفروض أنه قد تم تموينها بالوقود ، وأنها كانت فى انتظار اللحظة المحسوبة المحددة حين تتفجر محركاتها بالحياة ، وحينئذ تقلع مبتعدة عن المسار الذى كانت تتبعه وبذلك تكون قد قضت كل حياتها هنا لتنطلق بعد ذلك فى قطع زائد طويل يقودها إلى المريخ .

وحينما يحدث ذلك،سيكون هو على ظهرها مندفعا أخيراً إلى المغامرة التى لم يكن يعتقد أنها ستسعى إليه على الإطلاق .

- ٢ -

لم يكن تصميم مكتب القبطان على ظهر « الأريس » يتسع لأكثر من ثلاثة رجال فى حالة وجود الجاذبية ، ولكنه يكون رحبا لستة رجال حين تكون السفينة فى مسار حر حيث يستطيع المرء أن يقف على الجدران أو السقف . . كل حسب ذوقه. وقد تزاحمت المجموعة — ما عدا واحداً منها — حول القبطان (نوردن) فى زوايا «سريالية» ، لقد كانوا فى الفضاء من قبل وعرفوا ما ينتظر منهم عمله ، ولكن تعليمات القبطان هذه المرة لم تكن من النوع المألوف . فالرحلة الأولى لسفينة فضاء جديدة هى دائما حدث عظيم ، وكانت « الأريس » هى الأولى من نوعها .. الأولى بحق من بين كل سفن الفضاء التى صنعت فى الأصل لتحمل الركاب لا البضائع. وعندما تم الترخيص لها بالعمل ، كان فى مقدورها أن تحمل فريقا « طاقما » مكونا من ثلاثين شخصا ومائة وخمسين راكبا فى راحة « اسبرطية » نوعا ما . وعلى كل حال فقد انعكست النسب تقريبا فى رحلتها الأولى ، ففى هذه اللحظة كان فريقها « طاقمها » المكون من ستة أشخاص ينتظرون وصول الراكب الوحيد .

وقال (أوين برادلى) ضابط الالكترونيات : إن الأمر مازال غير

واضح فى نظرى ، فما المفروض أن نفعله بذلك الشخص عندما نتسلمه .
وعلى أية حال ، من الذى ابتدع هذه الفكرة النيرة ؟

فأجاب القبطان (نوردن) وهو يجرى يديه حيث كان شعره الأشقر البديع موجوداً منذ أيام قليلة فقط (نادراً ما تحمل سفن الفضاء حلاقين محترفين ، ومع كثرة وجود الهواة المتحمسين دائما إلا أن المرء يفضل إرجاء يوم المكاره إلى أبعد حد ممكن) . لقد كنت على وشك تناول هذا الموضوع .. كلكم سمعتم عن المستر جيبسون بطبيعة الحال.

وكنتيجة لهذه الإشارة انطلق عدد من الإجابات ، ليست كلها مما يحمل معنى الاحترام .

قال الدكتور سكوت : أعتقد أن قصصه رخيصة ، أو على الأقل الأخيرة منها . إن « غبار المريخ » لم تكن رديئة ، ولكنها الآن صارت قديمة بطبيعة الحال .

فنفخ ملاح النجوم مكاى وقال : هراء . . إن القصص الأخيرة هى أفضلها ، وذلك بعد أن أصبح جيبسون مهتماً بالأسس والقواعد ونبذ إراقة الدماء وقصف الوعود .

ولم تكن هذه الثورة من الأسكتلندى الصغير من شيمته الغالبة ، وقبل أن يشترك أى شخص آخر فى المناقشة قاطعهم القبطان نوردن قائلا : إذا لم يكن لديكم اعتراض ، فإننا لم نأت إلى هنا لنتباحث فى

النقد الأدبى ، إذ سيكون لديكم بعد حين متسع من الوقت لذلك. ولكن هناك نقطة أو نقطتين ترغب الشركة فى أن أوضحهما لكم قبل أن نبدأ الرحلة . إن المستر جيبسون رجل عظيم الشأن — ضيف مشهور — وقد وُجهت إليه الدعوة ليشترك فى هذه الرحلة حتى يمكنه أن يؤلف عنها كتابا فيما بعد . فليس الأمر مجرد موضوع دعاية (فاعترض برادلى قائلا فى تهكم لاذع : « بالطبع لا ! ») ولكن من الطبيعى أن تأمل الشركة أن زبائن المستقبل لن يكونوا .. أقصد لن تثبط همتهم بسبب ما يقرؤون، وعلاوة على ذلك، نحن نصنع التاريخ ، فيجب تسجيل باكورة رحلاتنا بكل أمانة . ولذا عليكم أن تبذلوا جهدكم فى اتباع سلوك الأماجد إلى حين ، فمن المحتمل أن يباع نصف مليون نسخة من كتاب جيبسون ، ولذا فإن سمعتكم فى المستقبل قد تتوقف على تصرفاتكم فى الأشهر الثلاثة المقبلة .

فقال برادلى : إن هذا يبدو لى أمراً خطيرا .. أشبه بالابتزاز .

واستطرد نوردن قائلا فى ابتهاج : اعتبره هكذا إن شئت ، وبالطبع سأوضح لجيبسون ألا يتوقع الخدمة التى ستتهيأ فيما بعد ، حين يكون لدينا خدم وطهاة وغيرهم ممن لا يعلم غير الله . إنه سيقدر الموقف ولن يترقب الإفطار فى الفراش كل صباح .

فسأل شخص ما فى نوبة تفكير عملى : هل سيعاوننا فى الغسيل ؟

وقبل أن يتناول نوردن بحث هذه المشكلة الاجتماعية ، انبعث أزيز من لوحة الاتصالات ثم بدأ صوت ينادى خلال شبكة مكبر الصوت : المحطة رقم (١) تنادى الأريس ٠٠ إن را كبكم فى طريقه إليكم .

فلمس نوردن أحد المفاتيح وأجاب : حسناً .. نحن على استعداد .

ثم التفت إلى الطاقم قائلا : سيظن الفتى المسكين عندما يرى كل هذه الرؤوس الحليقة حوله ، أننا فى احتفال يوم التخرج فى الكاترازِ(*) اذهب واستقبله ياجيمى لتعاونه فى المرور خلال المغلاق الهوائى عندما تزدوج مركبته بسفينتنا .

وكان مارتن جيبسون ما زال يحس بالاغتباط نوعا ما لتغلبه على أولى العقبات الكبرى وهى .. الضابط الطبيب فى المحطة رقم (١) . ولم يضايقه على الإطلاق انعدام الجاذبية حين غادر المحطة عابراً إلى « الاريس » فى تلك المركبة الصغيرة التى تسير بالهواء المضغوط، ولكن المشهد الذى وقع عليه بصره حين دخل قمرة القبطان نوردن أصابه برهة بالانتكاس . فحتى ولو لم تكن هناك جاذبية ، فإن المرء يميل إلى التظاهر بأن أحد الاتجاهات هو « إلى أسفل » ، والافتراض الطبيعى هو أن السطح المثبت فيه المقاعد والمنضدة هو الأرض . ولكن لسوء الحظ ، بدا قرار الأغلبية مخالفا لذلك ، إذ كان عضوان من الطاقم معلقين فى

* الكاتراز هو سجن للمجرمين الخطرين فى جزيرة عند شواطىء سان فرانسسكو بالولايات المتحدة الامريكية ـ المترجم .

« السقف » كالرواسب الكلسية ، فى حين تراخى آخران فى وسط الهواء فى زوايا اختيارية ، ولم يكن فى الوضع الصحيح — حسب تقدير جيبسون — سوى القبطان . ومما زاد الأمر سوءا ، أن رؤوسهم الحليقة أسبغت على هيئة الرجال — ذوى المظهر الحسن فى الظروف العادية — مسحة من إمارات الشر ، فبدت الصورة بأكملها شبيهة باجتماع عائلى فى قصر (دراكولا) .

وخيم الصمت برهة أخذ الطاقم فيها يتفحصون جيبسون ، وعرف الجميع الروائى فى الحال ، فقد كان وجهه مألوفا للجمهور منذ صدور أولى قصصه الرائجة « رعد عند الفجر » منذ حوالى عشرين عاما . لقد كان ممتلىء الجسم ، ومع ذلك كان رجلا صغيرا صارم الهيئة عمره أقل من خمسة وأربعين عاما ، وحين يتكلم يخرج صوته عميقا رنانا .

وقال القبطان نوردن يقدم من فى القمرة من اليسار إلى اليمين : هذا هو مهندسنا النقيب هلتون ، وهذا الدكتور مكاى الربان ـ إنه دكتور فى الفلسفة وليس طبيبا مثل الدكتور سكوت هنا ـ والنقيب برادلى هو ضابط الإلكترونيات ، أما جيمى سبنسر الذى استقبلك عند المغلاق الهوائى فهو (تكملة عدد) ويأمل فى أن يصبح قبطانا حين يكبر .

وأجال جيبسون النظر فى المجموعة الصغيرة فى شىء من الدهشة . لقد كان عددهم صغيراً جدا .. خمسة رجال وفتى ! . ولابد أن وجهه قد

وشى بأفكاره ، لأن القبطان نوردن ضحك ثم استطرد قائلا: ليس عددنا كبيرا ، أليس كذلك؟ لكن عليك أن تتذكر أن هذه السفينة آلية... وفضلا عن ذلك لاشىء يحدث فى الفضاء . وعندما نبدأ السفريات العادية للركاب ، سيكون عدد الفريق « الطاقم » ثلاثين . أما فى رحلتنا هذه فقد عوضنا فرق الوزن بالبضائع ، وعلى ذلك فنحن نتحرك فى الحقيقة كسفينة بضائع سريعة .

وتطلع جيبسون فى اهتمام إلى الرجال الذين سيصبحون رفاقه الوحيدين طوال الأشهر الثلاثة التالية ، وكان أول رد فعل أحس به (كان دائما أبدا يشك فى ردود الفعل الأولى ، ومع ذلك كانت تسبب له بعض الألم) هو شعور بالدهشة لمظهرهم العادى . . . إذا استثنينا أمورا طفيفة ، كحالتهم الشاذة وصلعهم المؤقت . ولم يكن هناك ما يستوجب الظن بانتمائهم إلى مهنة أكثر خيالا من أية مهنة عرفها العالم ، منذ استبدلت آخر مجموعة من رعاة البقر خيولهم بطائرات هليكوبتر .

ونتيجة لإشارة لم يلحظها جيبسون ، انسحب الآخرون مندفعين خلال الباب المفتوح دون مجهود، وبدقة تخلب الألباب. واستقر القبطان نوردن فى مقعده ثانيا، ثم عرض لفافة تبغ على جيبسون فقبلها فى شىء من الريبة متسائلا : أنت لاتعترض على التدخين ؟ ألا يؤدى ذلك إلى استنفاد الأوكسيجين ؟

فأجاب نوردن ضاحكا : لو أنى حرمت التدخين ثلاثة أشهر لأدى ذلك إلى التمرد ، وعلى أية حال يمكن التجاوز عن كمية الأوكسجين المستهلك .

وفكر جيبسون فى شيء من الأسى ، أن وجود القبطان نوردن فى هذا المكان وضع غير مناسب ، إذ يجب على ربان سفينة الفضاء — طبقا لخير التقاليد القصصية ، أو على الأقل أكثرها شيوعا — أن يكون محنكا ، أشيب الشعر ، حاد البصر ، قضى نصف عمره فى الأثير ، ويمكنه الملاحة مغمض العينين عبر المجموعة الشمسية — مرحى لمعلوماته الخيالية عن لوائح الفضاء — كما يقتضى الأمر أن يتمسك بالرسميات ، فإذا أصدر أوامره وثب ضباطه واقفين فى وضع انتباه (ذلك ليس أمراً هينا فى حالة انعدام الجاذبية) ويؤدون التحية فى نشاط ثم ينصرفون مثنى مثنى .

وعلى النقيض من ذلك ، كان قبطان الأريس بلا ريب يصغر عن الأربعين عاما ، يحسبه المرء مدير أعمال ناجحاً . أما عن تمسكه بالرسميات .. فلم يلمس جيبسون حتى الآن أى دليل على وجود أى نوع من النظام . وقد تبين له فيما بعد أن اعتقاده لم يكن صحيحا قط ، فالنظام الوحيد السائد على الأريس كان نابعاً من النفوس ذاتها ، وذلك هو النوع الوحيد الممكن وجوده بين هذه الفئة من الرجال الذين يتكون منهم فريقها « طاقمها » .

وتساءل نوردن وهو يرمق راكبه فى تفكير: إذن فلم يسبق لك قط أن كنت فى الفضاء ؟

— أخشى أن تكون تلك هى الحقيقة ، لقد بذلت عدة محاولات للسفر إلى القمر ، ولكن كان ذلك أمراً مستحيلا مادمت غير موفد فى مهمة رسمية . ومما يؤسف له أن تكاليف رحلات الفضاء مازالت مرتفعة ارتفاعا جنونياً .

فابتسم نوردن وقال : نحن نأمل أن تقوم الأريس بغير كل ذلك ، وينبغى أن أذكر أنك على ما يبدو تمكنت من كتابة الكثير حول هذا الموضوع مع .. الحد الأدنى من الخبرة العملية .

فقال جيبسون فى طرب ، وهو يطلق ما أمل أن يكون ضحكة خفيفة : أوه ، ذلك ! إنه لوهم شائع بأن المؤلفين يجب أن يكونوا ذوى خبرة فى كل ما يصفونه فى كتبهم . لقد قرأت كل ماوقعت عليه يداى عندما كنت حديث السن ثم بذلت جهدى للحصول على صورة صحيحة، ولا يغيبن عن بالك أن جميع قصصى عما بين الكواكب كتبتها فى الأيام الأولى . . ونادرا ما أشرت إلى الموضوع فى السنوات القليلة الماضية ، ومن العجيب أن الناس مازالوا يقرنون اسمى به .

وعجب نوردن من مدى التظاهر فى هذا التواضع ، إذ ينبغى أن يعلم جيبسون حق العلم أن قصصه عن رحلات الفضاء هى السبب فى

شهرته .. وذلك ما حفز الشركة على دعوته إلىهذه الرحلة. وقد أدرك نوردن مافى الموضوع بأكمله من بعض احتمالات التسلية الرفيعة ، وما عليه سوى الانتظار ، وفى الوقت نفسه ينبغى أن يوضح نمط الحياة فى العالم الخاص بالأريس لذلك الرجل الأرضى الأخرق .

— فى هذه السفينة نستخدم التوقيت القياسى للأرض، خط طول جرينتش ، وكل شيء يغلق أثناء (الليل) . لا توجد ساعات كما هى الحال فى الأيام الغابرة ، وتتولى الآلات تسيير الأمور أثناء نومنا ، وعلى ذلك فعملنا هنا غير متواصل ، وذلك أحد الأسباب فى أننا نستطيع تدبير أمورنا بهذا الطاقم الصغير . وحيث إننا نملك متسعا من الفراغ فى هذه الرحلة ، سيحصل كل منا على قمرة خاصة به . . أما قمرتك فهى أحد مخادع الركاب العادية، وهى الوحيدة المعدة لذلك ، وأعتقد أنك ستجدها مريحة . هل نقلت كل أمتعتك إلى السفينة ؟ ما المقدار الذى سمحوا لك به ؟

— مائة كيلو جرام ، موجودة فى المغلاق الهوائى .

وتمكن نوردن من إخفاء دهشته وهو يتساءل : « مائة كيلو جرام؟!». لاشك أن هذا الزميل يظن نفسه مهاجرا ... فأخذ معه كل ما ورثه عن الأسرة . لقد كان نوردن مصابا بعقدة فزع الملاح الفلكى الصميم من زيادة وزن الأمتعة ، ولم يساوره أى شك فى أن جيبسون حمل معه كمية من سقط المتاع لم يكن فى حاجة إليه . ومهما

يكن الأمر ، فليس ثمة ما يدعو للشكوى ما دامت الشركة قد وافقت على ذلك ولم يتجاوز هو الوزن المصرح له به .

ثم استطرد قائلا : سأستدعى چيمى ليقودك إلى غرفتك. إنه يقوم بالأعمال الإضافية فى هذه الرحلة ، وهو يعمل نظير أجر السفر وفى نفس الوقت يتعلم شيئا ما عن طيران الفضاء . إن غالبيتنا تبدأ بهذه الوسيلة، نسجل أسماءنا فى سفريات القمر خلال عطلات الكلية . وچيمى فتى نابه .. يحمل درجة البكالوريوس .

وعندئذ بدأ جيبسون يقتنع بأن غلام القمرة يجب أن يكون خريج إحدى الكليات . وتبع چيمى ـ الذى كان يشعر بشىء من الرهبة ـ إلى جناح الركاب .

وكان المخدع الخاص صغيرا ولكن يتسم تخطيطه بالجمال . ويشير تصميمه إلى ذوق رفيع. إذ كان للتوزيع البارع للأضواء، إلى جانب الجدران المغطاة بالمرايا ، أثر فى ظهور الغرفة أكبر مما هى عليه فى الحقيقة. وفضلا عن ذلك ، يمكن قلب السرير المتحرك على محور أثناء النهار ليستخدم كمنضدة. ولم يكن هناك الكثير مما يذكر المرء بانعدام الجاذبية، فقد رتبت الأمور بحيث يشعر المسافر كأنما لم يغادر موطنه .

وقضى جيبسون الساعة التالية فى تنسيق أمتعته ، كما أخذ فى تجربة الآلات وأجهزة الضبط فى الحجرة . وكان الابتكار الذى استحوذ على

إعجابه ، مرآة للحلاقة تتحول إلى كوة تطل على النجوم بالضغط على أحد الأزرار ، وقد عجب كثيرا من كيفية حدوث ذلك .

وأخيرا صار كل شيء مرتبا حيث يمكنه العثور عليه ، ولم يعد هناك قط ما يفعله ، فاستلقى على السرير وشد الأحزمة الجلدية حول صدره وفخذيه . وكانت خدعة وجود الوزن غير مقنعة له تماما ، إلا أن ذلك كان خيرا من عدم وجوده ، ووهبه فعلا شيئا من الإحساس بالاتجاه الرأسى .

وعندما رقد فى دعة فى الحجرة الصغيرة الجميلة التى ستكون دنياه وعالمه خلال المائة اليوم التالية ، صار بمقدوره أن ينسى كل ما صادفه من إخفاق ومضايقات طفيفة عكرت عليه صفو مغادرته للأرض . ولم يكن هناك الآن ما يثير قلقه ، ولأول مرة — على مدى ما يتذكر — ترك الآخرين يهيمنون تماماً على مستقبله . فقد خلف وراءه فى الأرض كل الارتباطات ومواعيد المحاضرات والمهل المحددة . . كان الشعور بنعيم الاسترخاء أجمل من أن يدوم، ولكن فليترك ذهنه يلتذ به ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

وبعد فترة غير معينة ، استيقظ جيبسون من سباته على صوت طرقات مترددة متتابعة على باب قمرته ، وظل لحظة لا يدرك أين كان ، ثم استرد بعدها شعوره كاملا ، ففك الأربطة التى تقيده واندفع من

سريره . ولما كانت حركاته لم تزل ضعيفة الترابط ، فقد اضطر إلى الاصطدام بما يطلق عليه اسم السقف قبل أن يصل إلى الباب .

وكان چيمى سبنسر واقفا هناك يلهث .

— القبطان يبعث إليك بتحياته ياسيدى ، هل ترغب فى المجىء لتشاهد الانطلاق ؟

فأجاب جيبسون : أود ذلك بكل تأكيد ، انتظر حتى أحضر آلة التصوير .

وظهر بعد هنيهة يحمل آلة جديدة من نوع «ليكا XXA» ـ حملق فيها چيمى فى حسد ظاهر ـ مزودة بعدسات إضافية ومقاييس تحديد فترة الالتقاط . ورغم هذه العوائق ، سرعان ما وصلوا إلى دهليز الرصد الذى كان يمتد كحزام دائرى حول جسم الأريس .

ولأول مرة شاهد جيبسون النجوم فى أوج عظمتها، فلم تعد خافتة نتيجة للغلاف الجوى والزجاج الداكن ، حيث كان فى الجانب الليلى من السفينة ، وقد أزيحت مرشحات ضوء الشمس جانبا . ولم تكن الأريس تدور حول محورها — كمحطة الفضاء — بل كانت مركبة فى الجهاز الثابت الذى تنسب إليه (جيروسكوباتها) الدوارة ، ولهذا السبب كانت النجوم راسخة لا تتحرك فى سماواتها .

وحين تطلع جيبسون إلى الروعة التى كثيرا ما حاول دون جدوى

أن يصفها فى كتبه ، وجد من العسير أن يحلل إحساساته . . . ولكم كان يكره أن يتغاضى عن إحساس يمكن الإفادة من استخدامه فى الطباعة . ومن الغرابة بمكان، أنه لاضياء النجوم، ولا أعدادها الهائلة، كان لها الأثر الأكبر فى أفكاره . لقد شاهد من قبل سماوات أقل روعة من هذه — من قمم الجبال على الأرض ، أو من منصات الرصد فى طبقات الجو العليا . ولكن لم يسبق له قط أن أحس بجلاء إحاطة النجوم به ، تمتد حتى الأفق الغربب عنه ، بل إلى ما تحت قدميه .

وكانت المحطة رقم (١) أشبه بلعبة معقدة مصقولة تسبح فى لاشىء على بضعة أمتار وراء الفتحة ، فلم يكن هناك طريق للحكم على بعدها وحجمها ، إذ لم يكن شكلها مألوفا . . وصار علم المرئيات لا معنى له . أما الأرض والشمس فكانتا غير ظاهرتين ، إذ يحجبها جسم السفينة خلفه .

ومن قريب ، انبعث فجأة صوت مجهول من مذياع غير ظاهر .

— بقى على الانطلاق ثانية ، فالرجا أن تلزموا أماكنكم .

فشد جيبسون قامته والتفت إلى جيمى يطلب النصيحة ، وقبل أن ينبس ببنت شفة قال دليله فى عجلة : « يجب أن أعود إلى عملى » . ثم اختفى فى حركة رشيقة تاركا جيبسون وحيدا مع أفكاره .

ومرت الدقيقة والنصف التالية فى بطء ملحوظ على فترات عديدة

تعلنها نداءات تحديد الوقت فى المذياع. وقد تساءل جيبسون عمن يكون المذيع ، فلم يكن صوته شبيها بصوت نوردن ، ومن المرجح أن يكون تسجيلا يعمل عن طريق الدائرة الآلية التى ولا بد أن تكون قد اضطلعت الآن بالسيطرة على السفينة .

— أمامنا عشرون ثانية ، سيستغرق تراكم قوة الدفع حوالى عشر ثوان .

— باق عشر ثوان .

— خمس ثوان .. أربع .. ثلاث .. ثانيتان .. ثانية .

وأحس جيبسون بشىء يجذبه بكل تؤدة ، وجعله ينزلق أسفل الجانب المنحنى من الجدار الذى فيه الكوة حتى وصل إلى ما أصبح فجأة ممثلا لأرض المكان . وكان من العسير عليه إدراك عودة « أعلى » و « أسفل » مرة أخرى ، بل كان أشق من ذلك الربط بين عودتها وبين ذلك الرعد الخافت البعيد الذى قطع حبل الصمت فى السفينة . فهناك ، فى الكرة الثانية البعيدة التى تمثل نصف الأريس — فى ذلك العالم المحرم الغامض .. عالم الذرات الفانية ، والأجهزة الآلية ، الذى يستحيل على إنسان أن يدخله دون أن يفقد حياته — انطلقت من عقالها القوى التى تسود النجوم نفسها . ومع ذلك لم يكن هناك أى إحساس بعجلة الصعود التزايدية القاسية التى تصاحب دائما انطلاق صاروخ يسير كيمويا .

وكان أمام الأريس مجال غير محدود لتقوم فيه بالمناورة ، فيمكنها أن تسير أطول مسافة ترغب فيها حتى تنفصل عن مدارها الحالى، وتزحف رويدا رويدا متحولة إلى القطع الزائد الذى يقودها إلى المريخ . وعلى أية حال ، فإن أقصى طاقة للقوة المحركة الذرية ، تستطيع أن تسير كتلتها البالغة ألفى طن بعجلة تزايدية قيمتها عشر الجاذبية فقط . . أما فى تلك اللحظة ، فإن العجلة كانت منخفضة إلى أقل من نصف هذه القيمة الضئيلة .

ولم يستغرق جيبسون طويلا فى استعادة اتزانه ، فالعجلة التزايدية للسفينة كانت منخفضة إلى درجة أن تحركاته فى الواقع ما زالت غير مقيدة (كانت تهبه ـ كما حسب ـ وزنا فعالا أقل من أربعة كيلو جرامات) . ولم تكن محطة الفضاء رقم (١) قد انتقلت من موقعها الظاهرى ، ولكن كان عليه أن يتريث حوالى دقيقة قبل أن يكتشف أن الأريس ، فى الواقع ، تجر نفسها بعيداً عنها ، ثم تذكر آلة تصويره فى وقت متأخر وبدأ يسجل صور الرحيل . وبعد أن أنجز (كما كان يأمل) مشكلة تحديد الوقت المناسب لفترة التقاط صورة جسم صغير شديد الاستضاءة على صفحة سوداء حالكة ، كانت المحطة قد ابتعدت فعلا بعداً ملموسا . وبعد أقل من عشر دقائق تضاءلت إلى نقطة ضوئية نائية يصعب تمييزها بين النجوم .

وحين اختفت محطة الفضاء رقم (١) اختفاء تاما ، انطلق جيبسون

إلى الجانب النهارى من السفينة، ليلتقط بعض الصور للأرض الآخذة فى الابتعاد . وحين شاهدها لأول مرة كانت هلالا ضخما رفيعاً ، ممتدا إلى درجة أن العين لا تدركه بنظرة واحدة ، وعندما راقبه رآه يتزايد فى بطء ؛ إذ كان على الأريس أن تقوم بدورة أخرى على الأقل قبل أن تفلت وتخرج فى مسار لولبى نحو المريخ. وستمر ساعة بأكملها قبل أن تتضاءل الأرض بقدر محسوس ، وفى تلك الفترة ستنتقل ثانية من هلال إلى بدر.

وقال جيبسون فى نفسه : حسنا ، ها قد تحققت الأحلام . وهناك فى أسفل تركت كل حياتى الماضية ، وحياة كل أجدادى حتى أول نقطة من الهلام فى أول بحر عقيق . إن أى مستعمر أو مستكشف أبحر من وطنه لم يخلف وراءه كثيرا كما خلفت الآن ، فهناك أسفل هذه السحب يوجد تاريخ البشرية بأكملها . وعاجلا سيكون فى إمكانى أن أحجب بإصبعى الصغيرة ذلك الشيء الذى كان ـ مدى الحياة وحتى زمن قريب ـ كل ما يمتلكه الإنسان وكل ما يحتويه مما أنقذه بفنه ومهارته من غوائل الزمن . إن لذلك الانسحاب القاسى من المعلوم إلى المجهول ، ما يشبه النهاية التى يتصف بها الموت . وهكذا لابد للروح المجردة أن تذهب أخيرا إلى الظلام والليل تاركة وراءها كل كنوزها .

وبعد ما يزيد على ساعة ، كان جيبسون مستمرا فى المراقبة من منصة الرصد حين بلغت الأريس أخيرا سرعة الإفلات وأصبحت مستقلة عن الأرض. ولم يكن ثمة طريقة يستدل بها على اجتياز هذه اللحظة لأن

الأرض مازالت تملأ السماء ، والمحركات تحتفظ بهديرها النائى المكتوم. لقد كانوا فى حاجة إلى عشر ساعات أخرى من الأعمال المتواصلة ، قبل أن تنتهى مهمتهم ويستريحوا بقية الرحلة .

وعندما حلت تلك اللحظة كان جيبسون نائما ، ولكن السكون المفاجىء والفقدان الكامل لكل آثار الجاذبية التى تمتعت بها السفينة خلال الساعات القليلة الماضية .. كل ذلك رد إليـــــه إحساساً مبهما باليقظة ، وفى تثاقل جال بصره فى الغرفة المظلمة حتى التقت عيناه بالصورة الصغيرة التى تصوغها كوة القمرة للنجوم ، التى كانت ـ بطبيعة الحال ـ ثابتة لا تتحرك على الإطلاق . لقد كان من المستحيل أن يصدق المرء أن الأريس فى تلك اللحظة تنطلق خارجـة من مدار الارض بسرعة كبيرة ، إلى درجة أن جاذبية الشمس نفسها لا تستطيع أن تقفها على الإطلاق .

وفى حالة من النعاس، أحكم أربطة أغطية الفراش ليتجنب الاندفاع فى الحجرة . إن أمامه ما يقرب من مائة يوم قبل أن يستعيد الاحساس بالوزن مرة أخرى .

حين استيقظ جيبســون من نوم عميق نسبيا على صوت أشبه بصليل أجراس متتابعة ينبعث من الجهاز العام للمخاطبة فى السفينة ، كانت نفس مجموعة النجوم تملأ كوة القمرة . فارتدى ملابسه فى شىء من العجلة ، وهرع إلى منصة الرصد وهو يسائل نفسه عما حدث للأرض خلال الليلة السابقة .

إنه لأمر مربك تماما — على الأقل لمستوطن الأرض — أن يشاهد قمرين فى السماء فى وقت واحد .. ولكنهما كانا هناك جنبا إلى جنب، وكلاهما فى الربع الأول، فى حين يبلغ أحدهما حوالى ضعف الآخر. ومرت بضع ثوان قبل أن يدرك جيبسون أنه ينظر إلى القمر والأرض معاً .. وبضع ثوان أخرى قبل أن تنبلج الحقيقة أخيراً أمام باصريه ، وهى أن أصغر الهلالين وأبعدهما كان دنياه وعالمه .

ولم تكن الأريس — لسوء الحظ مارة بالقرب من القمر ، ولكنه مع ذلك كان يربو على عشرة أمثال ما يراه جيبسون من الأرض . وكانت السلاسل المتشابكة من الحلقات الدائرية ، ظاهرة بوضوح على طول الخط غير المنتظم الذى يفصل النهار عن الليل ، كما كان فى الاستطاعة تمييز القرص الخافت غير المضىء نتيجة لانعكاس ضوء الأرض الساقط

عليه . وبكل تأكيد .. وانحنى جيبسون إلى الأمام فجأة وهو يعجب ما إذا كانت خدعته عيناه . ومع ذلك لم يكن هناك أى شك فى الأمر : هناك إلى أسفل ، فى قلب تلك الأرض الباردة الخافتة الضوء ، التى تنتظر حلول الفجر بعد عدة أيام ، كانت شرارات دقيقة من الضوء تتوهج كاليراع المضىء فى الغسق . ولم تكن هذه الأضواء موجودة منذ خمسين عاما ، فقد كانت أنوار المدن القمرية الأولى ، تعلن للنجوم أن الحياة قد أقبلت أخيرا إلى القمر بعد انتظار بليون عام .

وقطع على جيبسون حبل أفكاره ، صوت سعال انبعث فى حذر من مكان مجهول ، ثم تساءل صوت قوى نوعا ما فى لهجة تخاطب : إذا تكرم المستر جيبسون بالمجىء إلى قاعة الطعام ، فسوف يجد بعضا من القهوة الفاترة ، وقليلا من رقائق الغلال ، ما زالت موجودة على المائدة .

فألقى نظرة سريعة على ساعته . لقد سها تماما عن الإفطار ، وهى ظاهرة لم يسبق لها مثيل ، ولا شك أن أحدهم ذهب يبحث عنه فى قمرته ، وحين فشل فى العثور عليه هناك ، كان يناديه خلال جهاز التخاطب العام فى السفينة .

وحين اندفع معتذرا إلى قاعة الطعام ، وجد الطاقم مشغولا فى جدال فنى حول مزايا الأنواع المختلفة لسفن الفضاء .

كان جيبسون وهو يأكل ، يراقب الفئة الصغيرة المتجادلة مدونا فى

ذهنه تصرفاتهم وصفاتهم. وكان تقديم نوردن لهم مجرد بطاقات موجزة، وحتى الآن لم تحدد شخصياتهم له ، وكم كان طريفا أن يفكر أنه قبل نهاية الرحلة ، قد يعرف كل واحد منهم أفضل من معارفه على الأرض ، فلم يكن هناك أسرار ولا تظاهر فى عالم الأريس الصغير .

وفى تلك اللحظة كان الدكتور سكوت يتحدث (فيما بعد ، سيدرك جيبسون أن ذلك أمر طبيعى) ، وكان يبدو شخصا سريع التهيج ، على استعداد فى لحظة استفزاز أن يضع قواعد لأمور قد لا يكون مؤهلا للحديث عنها . وكان أنجح مقاطع له هو برادلى خبير الالكترونيات والاتصالات .. شخص عنيف التهكم ، يبدو أنه يجد لذة ساخرة فى الانتقام بالكلام . فمن حين لآخر كان يلقى قنبلة صغيرة خلال الحديث ، تضطر سكوت إلى التوقف لحظة قصيرة لم يحدث قط أن زادت على ذلك . أما ماكاى — الرياضى الاسكتلندى الصغير — فكان يدخل المعركة من وقت لآخر ، متحدثا فى شىء من السرعة بأسلوب متقن شبه متحذلق . ورأى جيبسون أن أنسب مكان له هو غرفة الاستراحة بإحدى الجامعات ، وليس فى سفينة فضاء .

ويبدو أن القبطان نوردن كان يتصرف كحكم غير نزيه تماما ، إذ كان يؤيد أحد الأطراف أولا ثم الطرف الآخر ، فى محاولة ليمنع أحدهم من الانتصار القاطع . وكان الفتى سبنسر منهمكا فى عمله ، أما هيلتون

العضو الوحيد الباقى من الفريق « الطاقم » ، فلم يشترك فى المناقشة .
كان المهندس يجلس منعزلا فى هدوء يراقب الباقين فى تسلية ، وكان وجهه مألوفا لجيبسون . أين ياترى تقابلا من قبل ؟ لماذا ، طبعا — ياله من أحمق ! ألا يدرك ذلك ؟ لقد كان هيلتون الشهير . واستدار جيبسون فى مقعده كى يرى الآخر بوضوح . لقد غفل عن نصف طعامه وأخذ يحدق فى رهبة وحسد فى الرجل الذى أعاد سفينة الأركتورس إلى المريخ ، بعد أكبر مغامرة فى تاريخ طيران الفضاء . ستة رجال فقط وصلوا إلى زحل ، ولم يبق منهم على قيد الحياة سوى ثلاثة . لقد وقف هيلتون مع رفاقه الهالكين، على تلك الأقمار النائية ذات الأسماء الساحرة تيتان، إنكلادوس ، تيثيس ، ريا ، ديون .. وشاهد الروعة التى لامثيل لها ، ممثلة فى الحلقات الكبرى التى تقطع السماء فى تناسق يبدو كاملا أكثر من اللازم بالنسبة لأحد استنباطات الطبيعة . كما كان فى ذلك الصقع الأقصى الذى تدور فيه العمالقة البـــاردة المتطرفة من العائلة الشمسية المشتتة ، ثم عاد ثانية إلى الضوء والدفء فى العوالم الداخلية .
وقال جيبسون فى نفسه « نعم ، هنالك الكثير من الأمور التى أود أن أتحدث عنها معك قبل أن نفرغ من هذه الرحلة » .

وبدأت الزمرة المتجادلة فى الانفضاض، حينما اندفع مختلف الضباط إلى مراكزهم، ولكن أفكار جيبسون كانت لاتزال تحيط بزحل حين أقبل عليه القبطان نوردن وقطع حبل أفكاره قائلا: لا أدرى ما رسمت لنفسك

من برامج ، ولـكن أعتقد أنك ترغب فى أن تلقى نظرة على سفينتنا . وفضلا عن ذلك ، هذا ما يحدث عادة فى قصصك عند هذه المرحلة .

وابتسم جيبسون بطريقة شبه آلية ، لقـد كان يخشى أن ينقضى بعض الوقت قبل أن ينسى ماضيه .

— أخشى أن تـكون محقا فى ذلك، إنه الطريق السهل بالطبع كى ندفع القارىء يدرك كيف تسير الأمور، كما نرسم له صورة مختصرة عن منطقة حوادث القصة. ومن حسن الحظ فى الوقت الحاضر أن ذلك غير ذى أهمية، إذ يعلم كل شخص تماما كيف تبدو سفينة الفضاء من الداخل ، فيمكن للمرء أن يدع جانبا التفاصيل الفنية ويستمر فى سرد القصة نفسها. ولـكن حين بدأت الـكتابة عن الملاحة الفلـكية فى أعوام الستين ، كنت مضطرا إلى وقف أحداث القصة لبضعة آلاف من الـكلمات كى أفسر كيف تعمل ملابس الفضاء ، وطريقة تشغيل المحرك الذرى ، وأوضح فى جلاء كل ما يأتى فى سياق القصة .

فقال نوردن فى ابتسامة باهتة : إذن ، أفهم من ذلك أنه لا يوجد الـكثير مما يمكننا أن نعلمك إياه عن الأريس .

فتظاهر جيبسون بالخجل وأجاب قائلا : يسعـــدنى كثيراً أن تصحبنى فى جولة . . سواء أقمت بذلك طبقا لأنموذج على أساسى أم لا .

فضحك نوردن فى فتور وقال : حسناً جداً ، سنبدأ بحجرة القيادة هلم بنا .

وخلال الساعتين التاليتين كانا يسبحان خلال الردهات المربكة ، التى تتقاطع وتتشابك كالأوردة فى جسم الأريس الكروى . وكان جيبسون يعلم أن قلب السفينة قد يبدو مألوفا له ، حتى إنه يستطيع أن يشق طريقه من أحد أطرافها إلى الطرف الآخر معصوب العينين ، ولكن سبق مرة أن ضل طريقه ، وسيتكرر ذلك قبل آن يلم تماماً بالمسالك .

ولما كانت السفينة كروية الشكل ، فقد قسمت إلى مناطق تفصلها خطوط عرض، كما هى الحال فى الأرض . وكان التقسيم الناتج ذا فائدة كبرى ، إذ زود الذاكرة بصورة جاهزة عن تخطيط السفينة . فالتقدم نحو (الشمال) معناه أن المرء متجه نحو غرفة القيادة وأجنحة نوم الفريق « الطاقم »، أما الرحلة إلى خط الاستواء فتشير إلى زيارة لقاعة الطعام الكبرى التى تشغل غالبية المستوى المركزى بالسفينة أو زيارة لردهة الرصد المحيطة بها . ويكاد يكون نصف الكرة الجنوبى بأكمله صهريجا للوقود، بالإضافة إلى قليل من عنابر التخزين ومختلف الآلات. والآن، وقد استغنت الأريس عن محركاتها ، فقد أديرت فى الفضاء ليكون نصف الكرة الشمالى مواجها لضوء الشمس باستمرار ، والنصف الجنوبى (الخالى من السكان) غارقا فى الظلام . وعند القطب الجنوبى نفسه ،

باب معدنى صغير يحمل مجموعة من الأختام الرسمية والتنبيه التالى «لا يفتح بتاتاً إلا بأوامر خاصة من القبطان أو نائبه» ؛ فوراءه تقع الأنبوبة الطويلة الضيقة التى تصل ما بين الجزء الرئيسى للسفينة وبين الكرة الصغيرة التى تبعد مائة متر، وتحتوى على آلات توليد الطاقة والوحدات المحركة . وقد عجب جيبسون من الحكمة فى وجود هذا الباب على الإطلاق إذ لم يستطع أحد أن يلجه ، ومالبث أن تذكر ضرورة وجود استمداد ما ، يساعد الرجال الآليين القائمين بالخدمة فى لجنة الطاقة الذرية من الوصول إلى أعمالهم .

ومن الغريب حقا ، أن جيبسون لم يصادف أحد انفعالاته الكبرى لرؤية العجائب العلمية والفنية فى السفينة ، التى توقع مشاهدتها على أى حال ، بل شعر بالانفعال لرؤية أجنحة الركاب الخالية أشبه بقرص من شمع عسل النحل تتزاحم فيه الخلايا وتشغل معظم المنطقة المعتدلة الشمالية. ولم يكن التأثير مقبولا ، إذ أن بيتاً جديداً لم يقطنه أحد على الإطلاق يمكن أن يكون أكثر وحشة ووحدة من طلل قديم مهجور عرف الحياة ذات مرة وقد يظل صالحا لسكنى الأشباح . وكان الإحساس بالفراغ الموحش قويا فى هذه الدهاليز ، المرددة للصدى ، الساطعة الإضاءة ، التى قد تزدحم بالحياة يوما ما ، ولكنها الآن تمتد كئيبة مقفرة تحت ضوء الشمس النافذة خلال الجدران .. ضوء أشد زرقة من نور الشمس على الأرض ، ولذلك فهو بارد ومؤلم .

وعندما عاد جيبسون إلى غرفته كان منهكا عقلياً وجسمانياً ، فقد كان نوردن بوجه عام دليلا حى الضمير ، واعترى جيبسون الشك فى أن الآية قد انعكست وأنه يحصد بعضا مما زرع .. ومع ذلك ، استمتع به استمتاعاً كاملا . وتساءل عن أفكار رفاقه بالضبط حول نشاطه الأدبى ، ويحتمل ألا يدعوه فى جهله طويلا.

وكان مستلقيا فى سرير القمرة يحلل انفعالاته ، حين انبعثت طرقة متواضعة على الباب فقال فى صوت خافت: ياللعنة .. ثم رفع صوته قائلا من هناك ؟

— إننى جيم . . سبنسر يامستر جيبسون . معى « تلغراف » لاسلكى يخصك .

وسبح الفتى جيم فى الحجرة يحمل غلافا عليه طابع ضابط الاتصالات، وكان الغلاف مختوما ، إلا أن جيبسون ظن أنه الشخص الوحيد فى السفينة الذى يجهل محتوياته . كانت لديه فكره ثاقبة عنه .. وتأوه فى سره ، فلم يكن هناك فى الحقيقة طريق للهرب من الأرض ، إذ أنها ستدركك أينما ذهبت .

كانت الرسالة مختصرة لا تحتوى إلا على كلمة واحدة لا لزوم لها « النيويوركر ، ريفيو دى كاترموند . حيـ...اة ما بين الكواكب مطلوب خمسة آلاف كلمة لكل منهما . الرجا المخابرة باللاسلكى قبل الأحد القادم . حبى . روث » .

وتنهد جيبسون . لقد غادر الأرض فى عجلة ، فلم يجد متسعاً من الوقت للتشاور مع وكيلة أعماله روث جولدشتين، فيما عدا مكالمة تليفونية سريعة من منتصف الطريق حول العالم ، ولكنه أبلغها بوضوح تام أنه يرغب أن يترك وشأنه لمدة أسبوعين . وبالطبع ما كان ذلك ليغير من النتيجة ، إذ تنطلق روث دائما راضية النفس، واثقة أنه سيسلم المطلوب فى الموعد المحدد . حسنا ، فى هذه المرة لن يستبد به أحد ؛ وعليها أن ترضى بالانتظار ، فقد استحق هذه الإجازة .

واختطف إضمامة ورق المسودات ، وبينما كان جيم يتطلع فى تظاهر إلى ناحية أخرى ، كتب بسرعة :

« آسف . الحقوق المطلقة سبق الوعد بها إلى حارس الخنزير وهاوى الدواجن فى جنوب ألاباما . سأرسل التفاصيل فى أى شهر الآن . متى تقومين بوضع السم لهارى ؟ حبى . مارت » .

وكان هارى هو النصف الأدبى (المقابل للنصف التجارى) من جولدشتين وشركاه ، وكان سعيدا فى زواجه من روث لما يزيد على عشرين عاما ، لم ينقطع جيبسون خلال الخمسة عشر عاما الأخيرة منها على تنبيه كليهما أنهما بدآ يتداعيان وفى حاجة إلى تغيير ، وأن المسألة بأكملها لن تستمر أكثر من ذلك .

واختفى جيمى سبنسر بهذه الرسالة الغريبة وعيناه جاحظتان قليلا ؛

تاركا جيبسون وحيداً مع أفكاره . بطبيعة الحال ، عليه أن يبدأ العمل وقتاً ما، ولكن آلته الكاتبة كانت محجوزة فى المخزن حيث لا يمكنه مشاهدتها . لقد شعر أيضاً برغبة فى أن يلصق عليها إحدى هذه البطاقات التى تحمل عبارة « غير مطلوبة فى الفضاء — يمكن تخزينها فى الغرفة المفرغة » ولكنه قاوم هذه الرغبة بكل جرأة . وكان جيبسون يكره البدء فى الكتابة ، كغالبية الكتاب الذين لا يعتمدون قط على دخلهم من الأدب . وحينما يبدأ ، يصير الأمر مختلفاً . . فى بعض الأحيان .

* * *

واستمرت إجازته أسبوعا كاملا . وفى نهاية تلك الفترة لم تكن الأرض سوى نجم من أكثر النجوم لمعانا ، ولكن سرعان ما سيطغى عليها ضوء الشمس الساطع. كان من العسير عليه أن يصدق أنه لم يألف أية حياة أخرى سوى تلك التى عاشها فى العالم الصغير المستقل بذاته ، والذى يطلق عليه اسم الأريس . ولم يعد فريقها « طاقمها » بعد مكونا من نوردن وهلتون ومكاى وبرادلى وسكوت . . بل من جون وفريد وأنجوس وأوين وبوب .

لقد نجح فى معرفتهم جميعاً، رغم أنه كان لهيلتون وبرادلى سلوك تحفظى عجيب ليس فى إمكانه أن ينفذ منه . وكان لكل رجل شخصية تختلف

عن غيرها فى وضوح وتحديد . أما الشىء الوحيـد الذى يشتركون فيه تقريباً فهو الذكاء . وكان جيبسون يشك فى أن أيا منهم نال من درجات الذكاء أقل من ١٢٠ . وكان فى بعض الأحيان يعتريه الارتباك ، حين يتذكر الجماعات التى تخيلها فى بعض سفن فضائه الروائية. وتذكر رئيس الطيارين جراهام فى قصته « خمسة أقمار إضافية » ؛ الذى ما زال إحدى شخصياته المفضلة . كان جراهام صلب العود (ألم يـكافح الموت نصف دقيقة فى الفراغ قبل أن يتمكن من الوصول إلى حلة الفضاء الخاصة به) وكان يجهز على زجاجة من الويسكى كل يوم بصفة منتظمة . لقد كان على تباين واضح مع الدكتور أنجوس مكاى ! دكتور فلسفة (فلك) ، عضو الجمعية الفلـكية الملـكية ، الذى يجلس فى تلك اللحظة هادئا فى أحد الأركان يقرأ نسخة شاملة التفسير من « قصص كانتربرى » ويتناول ما بين حين وآخر جرعة من قنينة مملوءة باللبن .

وكان الخطأ الذى وقع فيه جيبسون ، بالاشتراك مع كثير من الـكتاب الآخرين فى أعوام الخمسين والستين ، هو افتراض عدم وجود فرق أساسى بين سفن الفضاء وسفن البحار — أو بين الرجال الذين يقودونها . لا جدال فى وجود بعض الشبه ، لـكن أوجه التناقض تفوقها فى العـــدد . والسبب فى ذلك فنى بحت كان من الواجب التنبؤ به ، ولـكن مشاهير الـكتاب فى منتصف القرن ، سلـكوا طريق الـكسل وحاولوا ممارسة تقاليد هرمان ميلفيل وفرانك دانا فى وسط لا يناسبها .

إن سفينة الفضاء أشبه بسفينة طبقات الجو العليا ، من أى شىء سار على سطح المحيط فى أى وقت ، والتدريب الفنى لفريقها « طاقمها » يسمو إلى مستوى أعلى بكثير حتى مما يقتضيه الطيران . فشخص مثل نوردن ، قضى خمس سنوات فى الكلية يدرس النظرية التقدمية للملاحة الفلكية قبل أن يصبح جديرا بمركزه الحالى .

وكان جيبسون منهمكا فى مباراة هادئة للرماية مع الدكتور سكوت حين فاجأتهم — على غير انتظار — أولى الأحداث المثيرة خلال الرحلة. فليس هناك الكثير من ألعاب المهارة التى يمكن ممارستها فى الفضاء ، ولفترة طويلة كانت الألعاب السامية هى الورق والشطرنج ، إلى أن جاء رجل إنجليزى حاذق، وأعلن أن طيران الأسهم عند انعدام الجاذبية يشبه استعراضا جميلا . وزيدت المسافة بين الرامى والهدف إلى عشرة أمتار ، أما فيما عدا ذلك ، فلم تتغير قواعد اللعبة المرسومة على مر القرون وسط جو من الجمة ودخان التبغ فى الحانات الإنجليزية .

وغمر جيبسون السرور حين وجد نفسه ماهراً فى المباراة ، وكاد يهزم سكوت بالرغم من — أو بسبب — الخطة المتقنة الذى اتبعها الآخر . وكان ذلك يقتضى وضع السهم بكل حرص فى وسط الهواء ، ثم الرجوع إلى الوراء مترين لينظر إليه بجانب عينه قبل أن يضربه ببراعة ليسير فى طريقه .

وكان سكوت يصوب وهو متفائل فى أن يزيد عدد النقط إلى ثلاثة

أضماؤها ، حين اندفع برادلى إلى الحجرة حاملا فى يده نموذج إشارات.

وقال فى صوته الرخيم ، محاولا أن يلطف من لهجته : لا تتطلعوا الآن، ولكننا متبوعون .

فحملق فيه الجميع وقد استرخى هو عند الباب ، وكان ماكاى أول من تمالك نفسه فقال فى جمود : أوضح من فضلك .

— هناك قذيفة نقل من طراز (٣) تتبعنا كظلنا . لقد أطلقت الآن من المحطة الخارجية ، وينتظر أن تمر بنا خلال أربعة أيام ، وهم يريدون أن أمسك بها عند مرورها باستخدام جهاز السيطرة اللاسلكى ولكن زاوية تشتتها على هذا البعد يجعل الأمر عسيرا ؛ إذ أعتقد أنها لن تقترب إلى أقل من مائة ألف كيلو متر منا

— وماهى المعونة التى أرسلوها من أجلها ؟ هل نسى أحدهم أن يأتى معه بفرشاة أسنانه ؟

— يبدو أنها تحمل معدات طبية عاجلة . ها هنا يادكتور .. انظر .

وفحص الدكتور سكوت الرسالة بعناية :

— هذا موجب للاهتمام ، فهم يعتقدون أنهم حصلوا على ترياق لحمى المريخ . إنه نوع من المصل قام بتحضيره معهد پاستير، ولابد أنهم واثقون تماما من المادة ماداموا قد تكبدوا كل هذه المشاق للحاق بنا .

وانفجر جيبسون أخيرا يسأل : بحق السماء ، ماهى قذيفة طراز (٣) .. إن لم تذكر حمى المريخ ؟ .

وقبل أن يتفوه أحد بكلمة ، أجاب الدكتور سكوت قائلا : حمى المريخ ليست فى واقع الأمر مرضاً من أمراض المريخ ، ولكن يبدو أن سبب حدوثه هو كائن حملته أجسامنا من الأرض ، وهو يجد مجالا طيبا فى الجو الجديد خيرا مما يجد فى المناخ السابق،ونوع تأثيره أشبه بمرض الملاريا ، لايموت الناس بسببه غالباً ، ولكن آثاره الاقتصادية خطيرة جداً ، فى سنة واحدة تبلغ النسبة المئوية لساعات العمل المفقودة ...»

— شكراً جزيلا . إنى أتذكر الآن كل شىء عنه . وماذا عن القذيفة ؟

فتدخل هيلتون بهدوء فى الحديث قائلا : إنها بكل بساطة صاروخ صغير آلى يعمل باللاسلكى وله سرعة نهائية عالية جدا . وهو يستعمل فى نقل البضائع بين محطات الفضاء أو اقتفاء أثر سفن الفضاء حين تخلف وراءها أى شىء . وحين تصير فى مجال اللاسلكى فإنها تلتقط إشارات جهاز إرسالنا فتجنح إلينا .

ثم التفت إلى سكوت وقال فجأة : عجبا يابوب ، لماذا لم يرسلوها إلى المريخ مباشرة ؟ فى إمكانها أن تصل إلى هناك قبلنا بمرحلة طويلة .

— لأن ركابها الصغار لن يعجبهم ذلك . وسأكون مضطرا إلى

زراعة بعض البكتيريا ليعيشوا عليها ، وأتعهدهم بالرعاية كما تفعل الممرضة .
وهذا ليس من اختصاصاتى العادية ، ولكنى أعتقد أنه يمكننى أن
أتذكر بعضا من تلك المادة التى صنعتها فى سانت توماس .

وقال ماكاى فى إحدى سخرياته النادرة : أليس من اللائق أن
يذهب أحدنا وينقش الصليب الأحمر فى الخارج ؟

وكان جيبسون مستغرقا فى تفكير عميق، ثم قال بعد لحظة سكوت:
لقد كنت تحت تأثير الاعتقاد بأن الحياة على المريخ مفيدة تماما للصحة ،
سواء من الناحية الجسدية أو النفسية .

فقال برادلى فى تؤدة : يجب عليك ألا تصدق كل ما تقرؤه فى
الكتب . لا أستطيع أن أتصور لماذا يريد أى شخص أن يذهب إلى
المريخ على الإطلاق . إنه منبسط وبارد وتنتشر فيه نباتات بائسة نصف
جائعة تشبه ما جاء وصفه فى إدجار ألان بو ، لقد أنفقنا الملايين فى هذا المكان
ولم نسترد منه بنساً واحداً . أى شخص يذهب إلى هناك بمحض رغبته
يجب فحص قواه العقلية . وبالطبع لا أقصد الإساءة إلى أحد .

ولم يملك إلا أن ابتسم فى ود ، فقد اعتاد أن يقتطع من سخرية
برادلى حوالى تسعين فى المائة ، ولكنه لم يكن متأكداً قط إلى أى مدى
يذهب الآخر فى التظاهر بالإهانة كأنما لم يقصد ذلك . ومهما يكن الأمر ،
فلأول مرة رأى القبطان نوردن يستخدم سلطته ، لا ليوقف برادلى عند
حده فحسب ، بل ليمنع مثل هـــذا الفزع والقنوط من الانتشار فى

المطبوعات . فرمق ضابط الإلكترونيات بنظرة غاضبة وقال : كان ينبغى أن أخطرك يا مارتن أنه رغم أن المستر برادلى لايحب المريخ ، إلا أنه ينظر بنفس العين إلى الأرض والزهرة ،فلا تدع آراءه تثبط عزيمتك.

فأجاب جيبسون ضاحكا : لن أدعها ، ولكن أحب أن أوجه سؤالا عن أحد الأمور . فسأل نوردن فى اهتمام : وما هو ذلك ؟

— هل ينظر المستر برادلى بنفس العين — حسب تعبيرك — إلى نفسه كما ينظر إلى كل شيء آخر ؟

فقال نوردن موافقاً : من الغريب حقا أنه يفعل ذلك ، مما يبين أن أحد تقديراته على الأقل تقدير دقيق .

فهمهم برادلى فى حيرة لأول مرة : أصبت الهدف ، سأنسحب فى غيظ شديد كى أعد رداً مناسباً . وفى نفس الوقت ، هل لك يا ماك فى أن تجهز إحداثيات القذيفة وتخطرنى متى تصير فى المجال .

— حسناً جداً .. قال ماكاى ذلك فى شرود ، ثم انهمك ثانيا فى قصة شوسر .

خلال الأيام القليلة التالية ، كان جيبسون مشغولا بأموره الخاصة ، مما عاقه عن الاشتراك فى الحياة الاجتماعية المحددة نوعا ما فى الأريس ، فقد أنبه ضميره كما يحدث دائما إذا ما استراح لأكثر من أسبوع ، وبذا كان منهمكا مرة أخرى فى العمل .

وكانت آلته الكاتبة قد استخلصت من بين أمتعته ، وصارت تحتل مكان الصدارة فى غرفته الصغيرة . وفى كل مكان ، تناثرت أوراق من مسودة الكتاب — فقد كان عدم النظام إحدى عادات جيبسون — تمنعها من التطاير أربطة المطاط . وكان ثمة الكثير من المتاعب مع أوراق الكربون الرقيقة ، التى أصبح من عاداتها الاندفاع فى التيار الهوائى ثم الالتصاق بجهاز تجديد الهواء ، ولكن جيبسون صار مدربا على الأساليب البسيطة للحياة فى حالة انعدام الجاذبية . ومما يثير الدهشة كيف أن المرء يتعلمها سريعاً ، وكيف أنها سرعان ما تصبح جزءاً من الحياه اليومية .

وصادف جيبسون صعوبة كبرى فى تسجيل انطباعاته عن الفضاء على الورق ، فالمرء لا يمكنه مثلا أن يقول (الفضاء ضخم بشكل مخيف) ، ثم يترك الأمر عند هذا الحد ، فالانطلاق من الأرض أجهد طاقته إلى

أقصى حد . إنه لم يكذب فى الحقيقة ، ولكن أى شخص يقرأ وصفه الدرامى للأرض وهى تسقط بعيدا ، لحظة انطلاق الصاروخ ، لن يدور بخلده على الإطلاق أن الكاتب كان حينئذ فى حالة غيبوبة هانئة .

وما إن انتهى من كتابة مقالين يبعثان الرضا فى نفس روث بعض الوقت (فى أثناء تلك الفترة كانت قد أرسلت ثلاث إشارات لاسلكية شديده اللهجة) ، حتى اتجه إلى الشمال حيث مكتب الإشارات . وأخذ برادلى أوراق المسودات فى فتور ملحوظ ، ثم قال فى عبوس : أعتقد أن هذا سيحدث كل يوم من الآن فصاعدا .

— أتمنى هذا ، ولكن أخشى ألا يتم ذلك ، إذ أن الأمر يتوقف على هبوط الوحى .

— هنا فى أعلى الصفحة الثانية ، يوجد تجزئة لصيغة المصدر .

— عظيم ، لا شىء يفوق ذلك .

— وفى الصفحة الثالثة وضعت عبارة (القوة المركزية الطاردة) بدلا من (القوة المركزية الجاذبة) .

— بما أنى أتقاضى أجرا عن عدد الكلمات ، أفلا تعتقد فى كرمى حين أستعمل مثل هذه الكلمات الطويلة ؟

— وهناك جملتان متتاليتان فى الصفحة الرابعة تبدأ كل منهما بحرف الواو .

— أصغ إلى ، هل ستقوم بإرسال هذا الشيء اللعين ، أم سأضطر إلى القيام بهذ العمل ؟

فضحك برادلى فى فتور وقال : أود أن أراك تحاول هـــذا : ولنتحدث الآن جديا ، فقد كان يجب أن أحذرك بأن تستعمل شريطاً أسود اللون . فالتباين غير واضح مع الأزرق ، ورغم أن الجهاز الذى يرسل صوراً طبق الأصل يمكنه العمل بكفاية على هذا المدى ، إلا أننا حين نبتعد عن الأرض أكثر من ذلك يصبح من الأهمية بمكان أن تكون الإشارات نقية محكمة .

وفى خلال الحديث ، كان برادلى يدرس الأوراق المكونة من أرباع « الأفرخ » فى صينية جهاز الإرسال الآلى، وأخذ جيبسون يراقبها مبهوراً تختفى الواحده بعد الأخرى فى أعماق الجهاز ، وما لبثت أن برزت بعد خمس ثوان فى سلة جمع البرقيات . وأحس بشعور غريب ، وهو يفكر فى أن كلماته كانت تتسابق فى تلك اللحظة خارجة عبر الفضاء فى سيل مطرد ، لتقطع مليونا من الكيلو مترات كل ثلاث ثوان .

وكان على وشك أن يجمع أوراق مسوداته ثانية حين انبعث أزيز من مكان ما فى دغل لوحة الأقراص والمفاتيح والعدادات التى تكاد تغطى حائط حجرة المكتب الصغيرة بأكملها . واندفع برادلى إلى أحد أجهزة استقباله ، وشرع فى القيام بأعمال غير مفهومة بسرعة فائقة ، فبدأ ينبعث من مكبر الصوت صفير حاد .

وقال برادلى : لقد صارت الحاملة أخيرا فى المجال ، ولـكن طريقها ما زال بعيداً جداً ، ويمكننى أن أذكر على وجه التخمين أنها ستخطئنا بحوالى مائة ألف كيلو متر .

— ماذا نستطيع أن نفعل فى هذا الصدد ؟

— الشىء القليل . لقـــد أبقيت منارنا مفتوحا ، فإذا التقطت إشاراتنا فإنها ستجنح نحونا آلياً وتقود نفسها فى حدود بضعة كيلو مترات منـا .

— وإذا لم تلتقط إشاراتنا ؟

— حينئذ ، ستستمر فى اندفاعها خارج المجموعة الشمسية . إنها تسير بسرعة كافية للهرب من الشمس . وكذلك نحن ، بهذه المناسبة .

— هذا رأى سار ، كم يستغرق ذلك منا ؟

— لنفعل ماذا ؟

— لنغادر المجموعة الشمسية .

— عامين . ويستحسن أن تسأل ماكاى فى ذلك ، فأنا لا أعلم جميع الإجابات ، إذ لست شبيها بأحد الشخصيات فى مؤلفاتك .

— لعلك تصير واحداً منها فيما بعد .. قال جيبسون ذلك فى غموض ثم انسحب .

وأضفى اقتراب القذيفة على الحياة فى الأريس عاملا مثيراً غير متوقع وإن قوبل بالترحاب ، إذ ما إن يتلاشى السرور المبدئى اللطيف المتصف بعدم التحفظ ، حتى تسير رحلة الفضاء على نمط ممل . وقد يتغير الحال فى المستقبل حين تزخر السفينة بالحيـــاة ، لـكن عزلتها الحالية تبعث الـكآبة أحيانا .

وقام الدكتور سكوت بتنظيم رهان على القذيفة ، أما الجوائز فـكانت فى حوزة القبطان نوردن . فقد أشارت بعض حسابات ما كاى إلى أن القذيفة ستتخطىء الأريس بحوالى مائة وخمسة وعشرين ألف كيلو متر مع احتمال للخطأ قدره ثلاثون ألفا بالزيادة أو النقصان . وقد اختار غالبية المتراهنين القيمة الأكثر احتمالا ، ولـكن بعض المتشائمين ممن لا يثقون فى ما كاى على الإطلاق تجاوزوا هذا التقدير إلى ربع مليون كيلومتر . ولم تـكن المراهنـات بالنقد ، بل بأشياء تفوقه فائدة كلفائف التبغ والحلوى وغيرها من حاجات الترف . ولما كان الوزن المسرح به لـكل فرد من الفريق «الطاقم» محدداً فى نطاق ضيق . فقد كانت هذه الأشياء أثمن بكثير من وريقات مرقمة . وقد ذهب ما كاى إلى حد الاشتراك بنصف زجاجة من الويسكى ، ولهـذا السبب جازف بطلب حيز من الفضاء يمتد لمسافة عشرين ألف كيلو متر . وأوضح أنه لم يشرب تلك المـــادة قط ، لـكنه كان يحمل بعضا منها إلى المريخ لمواطن عز عليه الحصول على النوع النقى ، ولم يـكن يملك ما يمـكنه من السفر إلى

اسكتلنده . ولم يصدقه أحد ، وكانوا فى ذلك غير منصفين إلى حد ما ، لأن القصة كانت تحتوى على شيء من الحقيقة .

* * *

— جيمى !

— نعم يا كابتن نوردن .

— هل انتهيت من مراجعة مقاييس الأكسجين ؟

— أجل يا سيدى . كل شيء على مايرام .

— وماذا عن جهاز التسجيل الآلى الذى وضعه علماء الطبيعة فى جوف السفينة ؟ هل يبدو كما لو كان مستمرا فى العمل ؟

— حسناً ، إنه ما زال يصدر نفس النوع من الأصوات كما كان فى البداية .

— عظيم . وهل قمت بتنظيف تلك القاذورات فى المطبخ حيث ترك السيد هيلتون اللبن يغلى حتى انسكب .

— نعم ياسيدى القبطان .

— إذن فقد انتهيت حقا من كل شيء ؟

— أعتقد ذلك ، ولكنى كنت أتعشم ..

— هذا جميل . عندى لك عمل مشوق بعض الشيء ، شيء خارج تماماً عن نطاق الأعمال المألوفة ، إذ يود المستر جيبسون أن يبدأ صقل معلوماته عن الملاحة الفلكية . وطبيعى أن أيا منا يستطيع أن يجيبه إلى كل ما يريد ولكن .. أنت آخر من تخرج من الكلية ، وربما أمكنك أن توضح الأمور خيراً منا . وأنت لم تنس مصاعب المبتدئين ، فنحن نأخذ كثيراً من الأمور على علاتها . إن المهمة لن تشغل كثيراً من وقتك وما عليك إلا أن تذهب حين يطلب ذلك ثم تجيب على أسئلته. أنا واثق بمقدرتك على التصرف .

وخرج چيمى عابساً .

* * *

قال : جيبسون دون أن يكلف نفسه عنــــاء رفع عينيه عن آلته الكاتبة : ادخل .

وفتح الباب خلفه ثم سبح چيمى سبنسر داخلا إلى الحجرة .

— ها هوذا الكتاب يامستر جيبسون ، وأعتقد أنه سيوضح لك كل ما تريد . إنه نسخة خفيفـــة خاصة من كتاب ريتشاردسون « مبادىء الملاحة الفلكية » .

ووضع المجلد أمام جيبسون ، الذى راح يقلب صفحاته الرقيقة باهتمام مالبث أن تلاشى سريعاً حين رأى التناقض المتزايد لعدد الكلمات فى كل

صفحة . ثم كف أخيراً عن القراءة فى منتصف الـكتاب حين وصل إلى صفحة لم تـكن تحوى سوى جملة واحدة هى « وبالتعويض عن قيمة بعد أقرب نقطة إلى الشمس فى المعادلة ١٥ر٣ نحصل على . . . » وكل ماعدا ذلك رياضيات .

— هل أنت واثق تماما أن هذا أبسط كتاب للمبادىء الأولية فى السفينة ؟

قال ذلك فى ريبة ، غير راغب فى أن يخيب أمل جيمى. لقد اعتراه شىء من الدهشة حين عين سبنسر كمعلم غير رسمى له ، ولـكنه كان من الذكاء لدرجة أن خمن السبب . فكلما كان هناك عمل لا يرغب أحد فى القيام به ، يؤول إلى چيمى بطريقة غريبة .

— آه نعم ، إنه حقا كتاب أولى ، فهو يتناول الموضوع دون رموز الموجهات الرياضية ، كما أنه لايمس نظرية البلبال . ينبغى أن ترى بعض مايقتنيه ماكاى من الـكتب فى حجرته ، فـكل معادلة تستغرق صفحتين مطبوعتين .

— حسناً ، شكرا على أية حال . سـأناديك إذا ما اعترضتنى صعوبات . لقد مضت عشرون عاما منذ عهدى بالرياضيات ، ولو أنى كنت حينئذ أحذقها كل الحذق . أخطرنى إذا ما أردت أن تستعيد الـكتاب .

— لا يوجد ما يدعو للعجلة يامستر جيبسون ، فأنا لا أستعمله كثيراً فى الوقت الحاضر بعد أن انتقلت إلى العلوم التقدمية .

— أوه ، قبل أن تذهب ، لعلك تستطيع الإجابة على موضوع خطر ببالى الآن . مازال الكثيرون من الناس قلقين بشأن الشهب كما يبدو لى ، وقد سئلت أن أقدم أحدث المعلومات فى هذا الموضوع فكم تبلغ درجة خطورتها ؟

ففكر چيمى لحظة ثم قال : يمكننى أن أجيبك على وجه التقريب ، ولكن لو كنت مكانك لاستشرت المستر ما كاى ، إذ لديه جداول تعطى الأرقام الصحيحة .

— أنت على حق ، سأفعل ذلك .

وكان من اليسير على جيبسون أن يستدعى ما كاى ؛ ولكنه وجد عذراً كى يترك عمله ، فرأى ألا يضيع هذه الفرصة . ووجد الملاح الفلكى الصغير يعزف الأنغام على الآلة الحاسبة الإلكترونية الضخمة .

وأجاب ما كاى : الشهب ؟ آه ، نعم إنه موضوع شائق ، ولو أنى أخشى أن قسطا كبيراً من المعلومات المضللة تماما قد نشرت حوله . فلم يمض وقت طويل منذ كان الناس يعتقدون أن سفينة الفضاء ستغطيها الثقوب عقب مغادرتها للغلاف الجوى .

فقال جيبسون : وما زال البعض يعتقد ذلك . على الأقل يظنون أن سفريات الركاب على نطاق واسع ليست بمأمونة .

فهمهم ماكاى فى استياء وقال : إن الشهب أخف ضررا بكثير من الصواعق ، وأكبر شهاب عادى يصغر كثيراً عن حبة الحمص .

— ولـكن ، رغم ذلك ، أصيبت إحـــدى السفن بأضرار نتيجة لهـا .

— هل تعنى ملـكة النجوم ؟ إن حادثاً واحداً خطيراً خلال السنوات الخمس الماضية يعتبر أمرا مقبولا . ولم يحدث فى الحقيقة أن تسببت الشهب فى فقدان أى سفينة .

— وماذا عن بالاس ؟

— لا يعلم أحد ماحدث لها . تلك هى النظرية المقبولة فقط ، وإن كان الإخصائيون لا يوافقون عليها مطلقاً .

— إذن ، يمكننى أن أطالب الجمهور بنسيان كل شىء حول هذا الموضوع .

— أجل . بالطبع ، هناك مسألة الغبار .

— الغبـار ؟

— حسناً ، إذا كنت تقصد بالشهب تلك الجسيمات الـكبيرة نسبياً

من ملليمترين فما فوق ـ فلا داعى للقلق . لـكن الغبار شىء مزعج وخاصة فى محطات الفضاء ، فـكل بضع سنين يضطر أحدهم إلى فحص السطح بحثاً عن الثقوب . وهذه تـكون عادة من الصغر إلى درجة لا يمكن للعين تمييزها ، ولـكن قليلا من الغبار المتحرك بسرعة خمسين كيلو مترا فى الثانية يمكنه اختراق طبقة من المعدن سميكة إلى حد يثير الدهشة .

وأحس جيبسون بشىء من القلق ، ولـكن ما كاى أسرع يطمئنه مردداً : حقا لا يوجد أدنى داع للقلق ، فهناك دائما بعض التسرب عن طريق القشرة، ولـكن احتياطى الهواء يغطى ذلك العجز بكل بساطة .

* * *

مهما كان جيبسون مشغولا ـ أو متظاهراً بذلك ـ فقد كان دائما يجد فسحة من الوقت ليتجول فى ملل خلال ردهات السفينة المرددة للصدى، أو ليجلس متطلعاً إلى النجوم من قاعة الرصد الاستوائية حيث اعتاد أن يذهب أثناء الحفلة الموسيقية اليومية . ففى تمام الساعة الخامسة عشرة ، تدب الحياة فى جهاز التخاطب العام للسفينة ، وتنطلق موسيقى الأرض لمدة ساعة فى همس أو فى صخب تملأ الممرات الخاليـــة فى الأريس ۰ وفى كل يقوم شخص مختلف باختيار البرامج ، ولم يكن المرء يدرى على الإطلاق مواد الإذاعة ـ لـكن بعد فترة أصبح من اليسير

تخمين شخصية المذيع . فقد كان نوردن يختار الكلاسيكيات الخفيفة والأوبرا ، أما هيلتون فقد استمسك ببتهوفن وتشايكوفسكى ولا شيء غير ذلك. وكان ما كاى وبرادلى يعتبران ذلك خواراً لا أمل فيه ، وكانا بدورهما يختاران الموسيقى المقبضة والاستغفارات المتنافرة الأصوات والتى لا يستطيع سواهما أن يعرف كنهها . . أو على الأخص يرغب فى ذلك . وكانت المكتبة المصغرة فى السفينة بما تحويه من كتب وموسيقى ، شاملة بما يسمح ببقائها فى الفضاء أحقابا . فهى فى الحقيقة تحتوى على ما يعادل ربع مليون كتاب وبضعة آلاف من أعمال الفرق الموسيقية ، وكلها مسجـــلة فى تنظيم الكترونى تنتظر الأوامر التى ترد إليها الحياة .

وكان جيبسون جالساً فى قاعة الرصد ، يحاول إحصاء عدد النجوم فى مجموعة الثريا والتى يمكنه تمييزها بالعين المجردة ، حين سمع طنين قذيفة صغيرة وهى تمرق بجوار أذنه ثم ارتطمت بزجاج الكوة والتصقت به ، حيث أخذت تتذبذب كالسهم . وفى الحقيقة ، كان هذا ما يبدو لأول وهلة وظل جيبسون برهة يعجب ما إذا كانت قبائل الشيروكى قد سلكت طريق الحرب ثانية . ثم لاحظ أن أنبوبة ماصة ضخمة من المطاط قد حلت محل رأس السهم ، بينما انبعث خيط رفيع طويل إلى مسافة بعيدة من قاعدة السهم خلف الريش مباشرة ، وفى نهاية الخيط ، كان الدكتور

روبرت سكوت وهو دكتور فى الطب يجذب نفسه بخفة كالعنكبوت النشيط .

وكان جيبسون منهمكا فى إعداد تعليق لاذع مناسب حين سبقه الطبيب كالمعتاد ــ قائلا : ألا تظن أنه اختراع عبقرى؟ إن مداه عشرون مترا ، ولا يزيد وزنه على نصف كيلو جرام . سأقوم بتسجيله حالما نعود إلى الأرض .

فسأله جيبسون فى لهجة استسلام : لماذا ؟

— يا إله السموات ، ألا يمكنك أن ترى السبب ؟ فلنفرض أنك تود الانتقال من مكان إلى آخر داخل محطة فضاء حيث لا توجد جاذبية دورانية ،فما عليك إلا أن تطلق إلى أى سطح مستو قريب من وجهتك ثم تلف الخيط ، وذلك يهيء لك خطافا نموذجيا إلى أن تترك الأنبوبة .

— وماهو بالضبط وجه الخطأ فى الطريقة العادية للانتقال ؟

فأجاب سكوت فى عبوس: حين تقضى فى الفضاء وقتاً طويلا مثلى ، ستدرك وجه الخطأ . ففى سفينة كهذه يوجد كثير من القابض التى يمكنك التشبث بها ، لكن لنفرض أنك تريد الذهاب إلى جدار لا نوافذ فيه ، عند الطرف الآخر من الحجرة وأنك اندفعت فى الهواء من مكان وقوفك ، فماذا يحدث ؟ حسنا ، ستكون مضطرا إلى تخفيف سقوطك بكيفية ما ، وغالبا باستخدام يديك، اللهم إلا إذا أمكنك أن تلتوى حول

نفسك فى أثناء الطريق . وبهذه المناسبة ، أتعلم العـــلة الشائعة التى تصادف الضابط الطبيب فى سفينة فضاء ؟ إنها الشكوى من التواء الرسغ ، وهذا هو السبب . وعلى أية حال ، حين تصل إلى هدف فإنك ترتد إلى الخلف مالم تقبض بيدك على شىء ما . وكذلك قد يحدث أن تتعلق فى وسط الهواء ، وهذا ما حدث لى ذات مرة فى محطة الفضاء رقم (٣) فى أحد عنابرها الكبيرة ، وكان أقرب جـــدار على بعد خمسة عشر مترا .

فسأله جيبسون فى رزانة : ألم تك قادراً على أن (تنفث) طريقك صوبها ؟ كنت أعتقد أن هـذه هى الطريقة المفضلة للخروج من المأزق .

— فلتحاول ذلك يوما ما لترى إلى أى مدى تصل ، وعلى أية حال ليست هذه بطريقة صحيحة . أتدرى ما اضطررت إلى عمله ؟ لقد كان أمرا مربكا للغاية . لم أكن أرتدى سراويل قصيرة وصديرية ، كعادتى دائما ، وقد خمنت أن وزنها لا يزيد على واحد فى المـائة تقريبا من وزنى ، ولو أمكننى أن أقذف بها بسرعة ثلاثين مترا فى الثانية لاستطعت أن أبلغ الجدار بعد حوالى دقيقة .

— وهل نجحت ؟

— نعم ، ولـكن المدير كان يصطحب زوجته فى جولة حول المحطة

ذلك المساء . وهكذا أنت تعرف الآن لماذا هبطت وسيلة كسب عيشى إلى مركبة قديمة كهذه ، أشتغل نظير أجر سفرى من ميناء إلى آخر حينما لا أكون قائما بأحد الجراجات المبهمة فى المرفأ .

فقال جيبسون فى إعجاب : أظنك افتقدت مهنتك ، وينبغى أن تشاركنى فى مهنتى .

فأجاب سكوت فى مرارة : لا أظن أنك صدقتنى .

— ذلكم تعبير رقيق ، دعنا نلق نظرة على لعبتك .

فناوله سكوت إياها ، وكانت عبارة عن مسدس هواء أدخلت عليه بعض التعديلات ، وقد ثبت فى مقبضه زنبركا ملفوفا عليه خيوط من النايلون .

— إنها تشبه . .

— إذا ذكرت أنها شبيهة بآلة إطلاق الأشعة ، فسأعتقد أنك أصبت بالعدوى ، إذ سبقك ثلاثة أشخاص إلى هذه السخرية اللاذعة .

فقال جيبسون وهو يعيد السلاح إلى مخترعه الفخور : إذن كان جميلا منك أن قاطعتنى . وبهذه المناسبة ، ما مدى تقدم أوين ؟ هل تمكن من الاتصال بتلك القذيفة ؟

— كلا ، ويبدو أنه لن يتمكن من ذلك . ويقول ماك إنها ستمر على بعد مائة وخمسة وأربعين ألف كيلو متر تقريباً ، وذلك قطعا خارج

المدى . هذا أمر جد مخجل ، فلن تذهب إلى المريخ سفينة أخرى فى مدى شهور ، ولذلك كانوا متلهفين على اللحاق بنا .

وسأل جيبسون فى شىء من التردد : إن أوين مخـــلوق شاذ ، أليس كذلك ؟

فأجاب سكوت فى تفكه : أوه ، إنه ليس على هذا القدر من السوء إذا ماسبرت غوره . فليس صحيحاً على الإطلاق ما يشيعونه عن قتله لزوجته بالسم ، فقد سكرت حتى الموت بمحض إرادتها .

* * *

كان أوين برادلى (دكتور فلسفة ، وعضو نقابة مهنـــدسى الإلـكترونيات ، وعضو نقابة مهندسى اللاسلكى) يضيق ذرعا بالحياة. وهو ، مثل كل رجل فى الأريس كان يباشر عمله فى اهتمام وحماسة مهما تظاهر بالمزاح . وفى خلال الاثنتى عشرة الساعة الماضية ، قلما غادر قمرة الاتصال على أمل أن تتحول الموجة المستمرة المنبعثة من القذيفة إلى نغمات تشير إلى أنها كانت تستقبل إشاراته وأنها بصدد تحويل مسارها نحو الأريس . ولـكن لا حياة لمن تنادى ، ولم يكن على صواب عندما توقع غير ذلك . فالمدى الموثوق به للمنار الإضافى الصغير ، المهيأ لنداء مثل هذه القذائف ، هو عشرون ألف كيلو متر فقط ، ومع أن ذلك كان مناسباً للأغراض العادية إلا أنه لم يكن كافياً فى الحالة التى نحن بصددها .

واتصل برادلى بمكتب الملاحة الفلكية عن طريق لوحة الاتصالات الداخلية ، فرد عليه ماكاى فورا :

— ما آخر الأنباء ياماك ؟

— إنها لا تقترب منا كثيراً ، فقد انتهيت من استخراج آخر مواقعها وإزالة الأخطاء المحتملة . إنها فى الوقت الحاضر على بعد مائة وخمسين ألف كيلو متر ، وتتحرك فى مسار مواز لنا تقريبا . أما أقرب نقطة إلينا فستبلغها بعد حوالى ثلاث ساعات على بعد مائة وأربعة وأربعين ألف كيلو متر . وهكذا خسرت الرهان.. وأعتقد أننا خسرنا القذيفة .

فقال برادلى فى صوت مختنق : أخشى أن يكون الأمر كذلك ، ولكن سنرى . سأهبط إلى المعمل .

— ما الداعى إلى ذلك ؟

— كى أصنع صاروخا يتسع لشخص واحد ، وأنطلق وراء ذلك الشىء اللعين بطبيعة الحال . لن يستغرق ذلك أكثر من نصف ساعة فى إحدى قصص مارتن . اهبط كى تساعدنى .

وكان ماكاى أقرب إلى خط الاستواء فى السفينة من برادلى ، ولذا فقد سبقه فى الوصول إلى المعمل عند القطب الجنوبى ، وكان فى انتظاره فى شىء من الحيرة حين وصل مزودا بسلك طويل متحد المحور التقطه من المخازن ، ثم أعطى صورة مختصرة لفكرته .

— كان المفروض أن أعمل ذلك قبل الآن ، ولـكنها تجعل المـكان مشوشا كما أنى من تلك الفئة التى يحدوها الأمل دائمـــا حتى اللحظة الأخيرة. إن العيب فى منارنا هو إشعاعه فى جميع الاتجاهات، وذلك أمر مسلم به طبعا حيث إننا لا ندرى على الإطلاق من أى الاتجاهات تأتى الحاملة. سأقوم بصنع طراز لشعاع مفرد وسأنفث كل ما بقى عندى من طاقة بعد أن انطلقنا من المحطة .

ثم رسم صورة تخطيطية لهواء بسيط من نوع (الياجى) ، وشرحه لماكاى فى سرعة :

— هذا القطب المزدوج هو الجزء المشع فعلا ، والباقى عبارة عن موجات وعاكسات ، إنه شىء عتيق ولـكنه سهل الصنع كما يفى بالغرض. استدع هيلتون إذا أردت أى مساعدة . كم يستغرق ذلك ؟

ولما كانت ميول ماكاى وذوقه دافعاً حتميا لمهارة يدوية طبيعية ، فقد ألقى نظرة على الرسوم ، وعلى الـكومة الصغيرة من الأدوات التى جمعها برادلى ، وسرعان ما انهمك فى العمل وهو يجيب: حوالى ساعة . إلى أين أنت ذاهب الآن ؟

— ينبغى أن أذهب إلى السطح كى أقطع اتصالات لحام الرصاص من جهاز الإرسال بالمنار. هل لك أن تأتى بالجهاز إلى المغلاق الهوائى حين تفرغ من صنعه ؟

وكان ما كاى قليل المعرفة باللاسلكى ، ولكنه أدرك بوضوح تام ما كان برادلى يحاول عمله ، ففى تلك اللحظة كان المنار الدقيق فى الأريس يبث طاقته فى كرة كاملة من الفضاء ، وكان برادلى على وشك أن يقطع الاتصال بينه وبين المجموعة الهوائية الحالية، ثم يوجه كل شحنتها بدقة فى اتجاه القذيفة الهاربة ، وبذلك يزيد المدى عدة أضعاف .

وبعد حوالى ساعة ، قابل جيبسون ما كاى وهو يخترق السفينة فى عجلة خلف مجموعة دقيقة من الأسلاك المتوازية يفصل فيما بينها قضبان من البلاستيك ، فتعقبه إلى المغلاق وهو فاتح فاه فى دهشة ، وهناك كان برادلى منتظراً على مضض وهو مرتد حلة الفضاء الثقيلة ، أما الخوذة فكانت مفتوحة إلى جواره .

وسأل برادلى : ما هو أقرب النجوم إلى القذيفة ؟

وفكر ما كاى بسرعة ثم قال فى شرود : إنها لم تعد بعد قرب دائرة البروج . فأحدث مالدى من أرقام هى ــ دعنى أتذكر ــ الميل خمسة عشر وكسر شمالا ، والمطلع المستقيم حوالى أربع عشرة ساعة . وأعتقد أن ذلك يقع فى ــ إنى لا أتذكر تلك الأشياء على الإطلاق ! ــ مكان ما فى كوكبه .. آه ، نعم، إنها لاتبعد كثيرا عن نجم السِّماك الرامح ، ولأول وهلة أقول إنها لاتبعد بأكثر من عشر درجات . سأقوم بحساب الأرقام المضبوطة حالا :

— هذه بداية طيبة، وعلى أية حال سأدير الشعاع إلى هذا الاتجاه. من الموجود فى غرفة الإشارات حاليا ؟

— الربان وفريد ، لقد اتصلت بهما ،وهما الآن يستمعان إلى آلة قياس الإشعاع . سأظل على اتصال بك عن طريق جهـــاز الإرسال السطحى .

وصفق برادلى الخوذة فأغلقها ثم اختفى خلال المغلاق الهوائى،وكان جيبسون يراقبه فى شىء من الحسد . لقد تاقت نفسه دائما إلى ارتداء حلة فضاء ، ولـكن رغم أنه أثار الأمر فى مناسبات عدة إلا أن نوردن أبلغه أن ذلك مخالف تماما للوائح . فملابس الفضاء ذات تركيب ميكانيكى معقد ، وقد يخطىء فى إحداها ، وحينئذ تتفتح أبواب الجحيم ، وربما تطور الأمر إلى جنازة يجرى ترتيبها فى أحوال غير عادية .

وحين قذف برادلى بنفسه من الباب الخارجى ، لم يضيع وقتا فى الإعجاب بالنجوم ، بل أخذ يندفع رويداً رويداً على السطح اللامع الممتد ، مستعيناً بوحدات رد الفعل حتى وصل إلى الجزء المصفح الذى كان قد رفعه . وتحت ذلك شبكة من الأسلاك تمتـــد معرضة لأشعة الشمس الساطعة ، وكان أحـد الأسلاك مقطوعا فأسرع بعمل وصلة مؤقتة وهو يهز رأسه فى أسى لهذا البديل الردىء الذى سيعكس حتما نصف الطاقة ويعيدها إلى جهاز الإرسال . ثم عثر على نجم السماك الرامح وصوب الشعاع فى اتجاهه ، وبعد أن لوح به بعض الوقت فى أمل ،

فتح جهاز اللاسلكى المثبت فى حلته ، وسأل فى لهفة : هل من توفيق ؟

وجاء صوت ما كاى القانط خلال مكبر الصوت: لاشىء على الإطلاق سأحولك إلى الاتصالات .

وأيد نوردن هذه الأنباء بقوله : مازلنا نلتقط الإشارة ، لكنها لاتعنى التنبه إلى وجودنا .

وذهل برادلى ، فقد كان واثقا أن هذا العمل سيؤدى الغرض المنشود ، وعلى أقل تقدير تمكن من زيادة مدى المنار فى هذا الاتجاه الواحد إلى عشرة أضعاف . ولوح بالشعاع لبضع دقائق أخرى ، ثم كف عن ذلك ، وقد بدأ يتخيل القذيفة الصغيرة بحمولتها العجيبة الثمينة وهى تفلت فى هدوء من قبضته خارجة نحو الحدود المجهولة للمجموعة الشمسية .. وما وراءها .

ونادى على ما كاى ثانياً . أنصت ياماك ، أريد منك أن تراجع تلك الإحداثيات ثم تأتى إلى هنا لتقوم بالتوجيه بنفسك ، إذ أنى سأدخل لإصلاح جهاز الإرسال .

ولما حل ما كاى محله ، أسرع برادلى عائداً إلى قمرته حيث وجد جيبسون وبقية الطاقم ملتفين فى عبوس حول آلة استقبال الإشعاع التى ينبث منها الصفير المتصل ، القادم من القذيفة النائية والتى كانت

تبتعد فى ذلك الوقت . وحين سحب برادلى عشرات من رسوم التوصيلات واندفع إلى حامل الاتصالات ، لم يكد أحد يحس بحركاته التى كانت خفيفة كخطوات الهر . ولم يستغرق سوى لحظة ليمد زوجاً من الأسلاك فى قلب جهاز إرسال المنار ، وفى أثناء عمله ، انهال على هيلتون بسيل من الأسئلة .

— لديك بعض المعرفة بهذه القذائف الحاملة ، فما هى الفترة التى يجب أن تتلقى فيها إشاراتنا حتى يكون لديها من الوقت ما يكفى لأن تجنح نحونا بدقة ؟

— إن ذلك يتوقف بطبيعة الحال على سرعتها النسبية وعدة عوامل أخرى . وفى حالتنا هذه ، حيث إن العجلة التزايدية منخفضة ، فإن الفترة تستغرق فى رأيى عشر دقائق .

— وبعد ذلك ، هل يصبح الأمر غير ذى أهمية حتى لو عجز منارنا عن العمل ؟

— كلا . فما إن توجه الحاملة نفسها إلينا حتى يمكنك أن تقطع الإرسال ثانيا . وبطبيعة الحال ، عليك أن ترسل إليها إشارات أخرى حين تمر بجوارك تماما ، ولكن ذلك أمر يسير .

— وما هى الفترة التى تستغرقها للوصول إلينا إذا تمكنا من اصطيادها ؟ .

— يومان ، وربما أقل من ذلك . ما الذى تحاول عمله الآن ؟

— إن مقومات الطاقة فى جهاز الإرسال هــذا تعمل بسبعمائة وخمسين فولتا . وكل ماهنالك أنى سأمد خطا جديدا ذا ألف فولت من آخر . ستــكون حياته قصيرة وحافلة ، ولــكن طاقة الجهاز ستزيد إلى ضعفها أو ثلاثة أمثالها طوال فترة بقاء الأنابيب .

وفتح لوحة الاتصالات الداخلية مخاطبا ماكاى الذى لم يكن يدرى أن جهاز الإرسال كان مغلقا بعض الوقت ، ولذلك ظل مصوبا الجهاز بحرص إلى السماك الرامح ، كما يفعل وليــام تيل وهو مرتد درعه ومصوب قوسه .

— هالو ماك ، هل أنت مستعد ؟

فأجاب ماكاى فى عزة نفس : كاد جسدى يتصلب ، كم بقى من وقت ؟ .

— سنبدأ الآن فقط ، ها هو ذا .

وأدار برادلى المفتاح ، وأصيب جيبسون بخيبة أمل ، إذ كان يتوقع أن تبدأ الشرارات الـكهربية فى التطاير . لقد لاح كل شىء تماما كما كان من قبل ، لــكن برادلى الذى كان عليما بالأمر ، ألقى نظرة على مقاييسه ثم عض شفتيه فى قسوة .

إن الأمر يستغرق من موجات اللاســلكى نصف ثانية فقط لتقطع

المسافة إلى ذلك الصاروخ الدقيق النائى بأجهزته الآلية المدهشة ، التى يجب أن تظل خامدة إلى الأبد ما لم تصلها هذه الإشارة . ومر نصف ثانية ، ثم نصف آخر . وكانت هناك فسحة من الوقت للرد ، لكن ذلك الصفير المحطم للأعصاب ظل ينبعث من المذياع دون انقطاع . وفجأة توقف الصفير ! ومرت فترة كالأجيال ، ساد فيها سكون شامل . وعلى بعد مائة وخمسين ألف كيلو متر ، كان الإنسان الآلى يبحث تلك الظاهرة الجديدة . واستغرق ذلك منه حوالى خمس ثوان قبل أن يستقر على رأى ، ثم انبعثت موجة حاملة موة ثانية ، ولكنها فى هذه المرة منغمة على هيئة سلسلة من (بيب — بيب — بيب) .

وكبح برادلى موجة الحماسة فى القمرة قائلا : إننا لم نبلغ بر الأمان بعد . تذكروا أنها يجب أن تتلقى إشارتنا لمدة عشر دقائق قبل أن تنتهى من تحويل مسارها .

ونظر إلى مقاييسه فى لهفة وهو يتساءل عن الفترة التى ستنقضى قبل أن تستسلم صمامات الإرسال هذه المعركة غير المتكافئة .

وصمدت سبع دقائق ، ولكن كان لدى برادلى بديلات عنها جاهزة ، وفى غضون عشرين ثانية عاد الإرسال مرة أخرى . وكانت البديلات ما زالت تعمل حين غيرت موجة القذيفة الحاملة نغماتها مرة أخرى ، وتنهد برادلى فى ارتياح وهو يغلق المنار الذى أساء استعماله .

ونادى خلال المذياع صائحا : الآن يمكنك الدّخول يا ماك ، لقد نجحنا .

— شكراً لله على ذلك . لقد كدت أصاب بضربة شمس بالإضافة إلى تكلس المفاصل وأنا أحاول تمثيل قوس كيوبيد هنا .

أما جيبسون، الذى كان متفرجا مهتما بما يحدث ، ولكنه مغلوب على أمره ، فقد قال فى تذمر : بعد أن تفرغ من الاحتفالات ، عسى أن تذكر لى فى عبارات قليلة قصيرة مختارة ، كيف استطعت أن تخرج هذا الأرنب العجيب من القبعة .

— عن طريق إشعاع إشارة منارنا، ثم زيادة شحنة جهاز الإرسال طبعاً .

— نعم ، أعلم هذا .. ولكن مالا أفهمه هو : لماذا أغلقته ثانيا ؟

فأجاب برادلى موضحا فى لهجة أستاذ للفلسفة ، وهو يتحدث إلى طفل متبلد الذهن :

— إن جهاز السيطرة فى القذيفة قد أدى واجبه . فالإشارة الأولى دليل على أنها أكتشفت موجتنا ، فعلمنا حينئذ أنها ستتجه نحونا آليا وقد استغرق ذلك بضع دقائق ، وحين تم ذلك أوقفت محركاتها وبعثت إلينا بالإشارة الثانية . إنها لاتزال على نفس البعد تقريبا بطبيعة الحال ، ولكنها الآن تتقدم نحونا، وينتظر أن تقترب خلال يومين، وحينئذ سأدير المنار مرة أخرى ، وذلك سيجتذبها إلى حدود كيلومتر أو أقل .

وانبعث سعال رقيق فى نهاية الغرفة ، وبدأ جيمى يقول : إنى أكره أن أذكرك ياسيدى ..

فضحك نوردن قائلا : حسناً ، سأدفع الرهان . هاهى ذى المفاتيح قمطر رقم ٢٦ . ماذا ستفعل بزجاجة الويسكى ؟

— كنت أفكر فى بيعها ثانيا إلى الدكتور ماكاى .

فقال سكوت وهو ينظر بصرامة إلى جيمى : بالتأكيد ، فهذه اللحظة تستدعى احتفالا عاما ، فيه نخب ..

ولكن جيمى لم يتوقف ليسمع باقى الحديث ، فقد انطلق ليستولى على غنيمته .

قال الدكتور سكوت ، وهو يدارى الصندوق المعدنى الطويل فى رقة خلال المغلاق الهوائى : منذ ساعة كان لدينا راكب واحد فقط ، أما الآن فلدينا بضعة بلايين .

وسأل جيبسون : ما رأيك فى مدى تحمله للرحلة ؟

— يبدو أن منظمات درجة الحرارة تعمل بنجاح، وعلى ذلك ينبغى أن تكون فى حالة طيبة . سأنقلها إلى المزارع البكتيرية التى جهزتها ، وحينئذ ينبغى أن تظل فى غاية السعادة حتى نصل إلى المريخ ، يلتهم بعضها بعضا وقلوبها الصغيرة راضية .

وانتقل جيبسون إلى أقرب مركز أرصاد . كان فى استطاعته رؤية هيكل القذيفة القصيرة ، الغليظ، ذى الطلاء الأبيض ، ممتدا إلى جوار المغلاق الهوائى ؛ فى حين تمتد خلفها أسلاك الرسو المرتخية كزوائد بعض مخلوقات أعماق البحار . وحين توقفت حركة الصاروخ تقريبا على بعد بضعة كيلومترات عن طريق معداته اللاسلكية الآلية ، تم اقتناصه نهائياً بطرق أبسط بكثير مما سبق. فقد خرج هيلتون وبرادلى مزودين بالأسلاك، فاصطادا القذيفة بالأنشوطة وهى تمر ببطء، ثم تولت الأوناش الكهربية فى الأريس سحبها .

وسأل جيبسون القبطان نوردن الذى كان مشتركا فى مراقبة سير العمل : والآن ما هو مصير الحاملة ؟

— سنستخلص منها جهاز الإدارة ومجمع السيطرة ثم نترك الهيكل فى الفضاء ، فإن نقلها طول الطريق إلى المريخ لا يعادل ما تستنفده من وقود . وعلى ذلك سيكون لدينا قمرنا الصغير حتى نبدأ فى زيادة العجلة مرة أخرى .

— مثل الكلب فى قصة (جولز فيرن) .

— ماذا ؟ قصة « من الأرض إلى القمر » ؟ لم أقرأها على الإطلاق أو على الأقل حاولت ذات مرة فلم تثر مشاعرى ، وذلك ما يضايق فى هذه القصص القديمة . فلا يوجد أشد كسادا من العلم الروائى القديم ، أما (فيرن) فهو ينتمى إلى عصر ما قبل القديم .

وشعر جيبسون بضرورة الدفاع عن مهنته ، فرد قائلا : إذن فأنت تعتقد أن العلم الروائى لا يمكنه أن يحتفظ بقيمة أدبية دائمة ؟

— لا أظن ذلك . قد تكون له أحيانا قيمة اجتماعية وقت كتابتها ، لكنه بالنسبة للجيل التالى يبدو دائما مموجا غير مألوف . فانظر على سبيل المثال ماحدث لقصة رحلة الفضاء.

— استمر ، ولا تعبأ بإحساساتى .. كأنك تحرص على تجنب ذلك.

ومن الجلى أن نوردن كان متحمسا للموضوع ، وهى حقيقة لم تثر

دهشة جيبسون على الإطلاق . فلو اكتشف فجأة أن أحد رفاقه خبير فى إعادة زراعة الغابات ، أو فى اللغة السنسكريتية ، أو فى الفلزات الثنائية ، لأخذ ذلك أمرا مسلما به فى الوقت الحاضر . وعلى أية حال ! كان يعرف أن العلم الروائى شائع ، وأحيانا مثير للبهجة ، بين المحترفين للملاحة الفلكية .

فقال نوردن : حسناً جدا ، دعنا نر ماحدث فى الماضى . فحتى عام ١٩٦٠ ، وربما ١٩٧٠ ، كان الناس ما زالوا يكتبون القصص عن أول رحلة إلى القمر ، وكل ذلك أصبح غير ذى موضوع فى الوقت الحاضر . وحين تم الوصول إلى القمر ، صارت الكتابة عن المريخ والزهرة مأمونة لبضع سنين أخرى. والآن أصبحت هذه القصص أيضاً فى خبر كان ، فلا يقرؤها أحد إلا على سبيل الفكاهة . وأعتقد أن الكواكب الخارجية ستكون رأس مال طيب مدى جيل آخر ، لكن غراميات بين الكواكب التى عرفها أجدادنا انتهت فعلا فى أواخر الأعوام السبعينية .

— ولكن موضوع رحلة الفضاء مازال رائجا كما كان .

— نعم ، ولكنه لم يعد بعد علما روائياً ، فإما أن يكون حقائق بحتة ـ من نوع ما ترسله إلى الأرض حالياً ـ وإما أن يكون بأكمله من نسج الخيال . وهذه القصص تضطر إلى اجتياز حدود المجموعة الشمسية ،

فبالأحرى إذن أن تــكون حكايات عن الجان ، وهى حقيقة كائنة فعلا فى معظمها .

وكان نوردن يتحدث فى لهجة جدية ، لـكن كانت فى عينيه ومضة ماكرة .

وقال جبيسون : إنى أعترض على جدالك فى نقطتين . أولا ، مازال الناس ، كثيرون منهم ، يقرءون روايات ويلز مع أنها بلغت قرنا من العمر . وإذا انتقلنا من الروائع إلى التوافه ، نجد أنهم ما زالوا يقرءون باكورة كتبي مثل « غبار المريخ » رغم أن الحقائق أدركتها ثم تركتها على مسافة كبيرة فى المؤخرة .

فأجاب نوردن قائلا : إن ويلز كتب قصصا ، وحتى مع ذلك أعتقد أن فى إمكانى أن أثبت وجهة نظرى. ما هى أكثر قصصه ذيوعا ؟ إنها القصص الواقعية مثــل « كيبس » و «مستر بولى» . فإذا ما قرئت القصص الخيالية على الإطلاق ، كان ذلك رغم التنبؤات الحديثة غير المقصودة وليس بسببها . ولا يوجد سوى « التايم ماشين » التى مازالت رائجة ، والسبب بكل بساطة هو أنها تتمشى مع المستقبل البعيد إلى درجة تمنع بطلان طرازها .. ولأنها تشتمل على أفضل كتابات (ويلز) .

وساد الصمت لفترة قصيرة ، كان جيمسون خلالها يتساءل عما إذا كان نوردن سيبسط وجهة نظره الثانية . وأخيرا قال : متى كتبت « غبار المريخ » ؟

— عام ١٩٧٣ أو ١٩٧٤ .

ـــ لم أكن أعلم أنها مبكرة إلى هذا الحد ، ولـكن تلك إحدى النواحى التى توضح الأمور . فقد كانت رحلة الفضاء على وشك البدء حينئذ، والـكل كان يعلم ذلك . وكان نجمك قد بدأ يبزغ قبيل ذلك عن طريق الروائيات التقليدية ، وجاءت « غبار المريخ » متمشية بإحكام مع المد المرتفع .

— إن ذلك لا يفسر سوى رواجها حينئذ ، ولـكنه لا يجيب على ثانى اعتراضاتى . فهى ما زالت شائعة ، وأظن أن المستعمرة المريخية أخذت عدة نسخ رغم أنها تصف مريخا لم يـكن له وجود قط خارج مخيلتى .

— إننى أنسب ذلك إلى الدعاية الجريئة التى قام بهـــا الناشر لـكتبك ، وخطة الحرص التى اتبعتها كى تبقى فى الصورة أمام القراء ، وقد يحتمل نسبته إلى أنها خير ما كتبت على الإطلاق . وعلاوة على ذلك ، كما قد يقول ماك ، إنها تمـكنت من اقتناص الروح العصرية فى أعوام السبعين ، وذلك يضفى عليها أهميـة حب الاستطلاع فى الوقت الحاضر .

فهمهم جيبسون وهو ينعم النظر فى الأمور .

وبقى ساكنا هنيهة ، ثم تغضن وجهه فى ابتسامة ، وبدأ يضحك .

— حسناً ، دعنا نشاطرك الدعابة . ماهو ذلك الأمر المضحك ؟

— حديثنا السابق . لقد كنت أعجب ماذا كان يظن هـ . ج . ويلز لو أنه علم أن رجلين سيتناقشان فى أمر قصصه يوما من الأيام فى وسط الطريق بين الأرض والمريخ .

فضحك نوردن بفتور وقال : دعك من المبالغة ، فنحن لم نقطع سوى ثلث المسافة حتى الآن .

* * *

استيقظ جيبسون فجأة من نوم عميق بعد أن تجاوز الوقت منتصف الليل بكثير . لقد أقلقه شىء ما ، صوت شبيه بانفجار بعيد ، هناك فى أعماق السفينة . وانتصب جالساً فى الظلام ، وقد توترت أربطة المطاط التى تشده إلى سريره . ولم يكن هناك سوى بصيص من ضوء النجوم آت من مرآة الكوة ، إذ كانت قمرته فى الجانب الليلى من السفينة وأنصت فاغر الفم ، وهو يحبس أنفاسه كى يلتقط أقل الأصوات خفوتا .

كانت الأريس خلال الليل تعج بالأصوات التى يعرفها جيبسون كلها . لقد كانت السفينة تنبض بالحياة ، والسكون قد يكون دليلا على فناء كل من عليها . ولكن مما أسكن روعه ، تلك الحركة الدائبة المتئدة للمضخات الهوائية التى كانت تثير رياحا تجارية من صنع الإنسان فى هذا الكوكب الصغير . وكانت هناك أصوات متقطعة تتخلل تلك

النغمة الرتيبة الضعيفة ، فمن حين لآخر ينبعث طنين محركات مجهولة تقوم بعمل آلى غامض ، ودقات متوالية ترسلها الساعات الكهربية كل ثلاثين ثانية بالضبط ، وأحيانا خرير الماء وهو يندفع فى أنابيب الضغط العالى . ومن المؤكد أن أيا من هذه لم تكن السبب فى إيقاظه ، فقد ألف هذه الأصوات كما ألف ضربات قلبه .

وذهب جيبسون إلى باب القمرة وهو بين اليقظة والنوم وأخذ ينصت فى الردهة بعض الوقت . لقد كان شيئا طبيعياً ، فأيقن أنه الشخص الوحيد المستيقظ . وأخذ يتساءل برهة عما إذا كان من الواجب أن ينادى نوردن ، ثم أخذ يتدبر الأمور . قد يكون كل مافى الأمر حلما من الأحلام ، أو لعل الصوت أحدثته بعض المعدات التى لم تكن تعمل قبل الآن .

وكان قد عاد إلى فراشه حين خطرت له فكرة فجائية . هل كان الصوت حقا آتيا من مكان بعيد ؟ كان ذلك ما حسبه لأول وهلة فقط ، ولكنه قد يكون قريبا جداً . وعلى كل حال فقد كان مجهداً ، كما أن الأمر لا يستدعى كل هذا التفكير . لقد كان لجيبسون ثقة عمياء بأجهزة السفينة ، فلو أن شيئا منها أصابه الخلل لانطلقت أجراس الإنذار الآلية لتنبه الجميع ، فقد اختبرت عدة مرات خلال الرحلة وكان صوتها كافياً

لإيقاظ الموتى . فى إمكانه أن يستسلم للنوم ،وهو واثق من أنها تحرسه فى يقظة دائبة .

* * *

[تحركت آلة التصوير خارجة من قاعة المجلس المنكوبة ؛ متابعة الموكب الجنائزى وهو يرتقى درجات السلم الدائرى اللانهائى، ثم خارجا إلى الشرفات العاصفة التى تطل على البحر . وخفتت الموسيقى حتى السكون، ولبرهة كانت الهيا كل الموحشة بحملها المحزن يبدو خيالها أمام الشمس الغاربة سا كنا على حواجز (الإلزينور) . « ليلة طيبة » أيها الأمير الرقيق ... وانتهت المسرحية] .

وفجأة أضيئت أنوار المسرح الصغير ، وكانت ولاية الدانيمارك على بعد أربعة قرون وخمسين مليونا من الكيلو مترات . وأعاد جيبسون أفكاره إلى الحاضر ، منتزعا نفسه من السحر الذى كان يأسره . وتساءل كيف يعلل شكسبير ذلك التأويل الذى مضت عليه الآن أحقاب ، ومع ذلك لم يمسه الزمن ، كما بقيت الروائع القديمة للشعر الخالد ؟ وقبل كل شىء ، كيف يعلل هذا المسرح الغريب وشبكة مقاعده طافية غير ثابتة فى قلب الهواء تمسكها دعامات واهية ؟

وقال الدكتور سكوت ، حين كان جمهور المشاهدين الستة خارجا من الردهة : مما يبعث على الأسف أننا لن نملك على الإطلاق مجموعة

أفلام جميلة كهذه فى أسفارنا التالية . فهذه المجموعة من مكتبة المريخ المركزية ، ولا يمكننا أن نستبقيها طويلا .

وسأل جيبسون . ماهو البرنامج التالى ؟

— لم نحدد ذلك بعد ، فقد يكون موسيقى شائعة ، أو قد نداوم على الموسيقى الكلاسيكية ، ونعرض « ذهب مع الريح » .

قال جيمى سبنسر فى حماسة : لقد كان جدى دائم الحديث عن ذلك ، والآن وقد سنحت لنا الفرصة فإنى أود مشاهدتها .

فأجاب سكوت : حسناً جداً ، سأعرض الأمر على لجنة الترفيهات لنرى هل يمكن تدبير ذلك . وبما أن اللجنة تتكون من سكوت وحده ، فمن المحتمل أن تنجح المفاوضات .

أما نوردن الذى بقى غارقا فى أفكاره منذ نهاية الفيلم ، فقد أقبل خلف جيبسون وسعل سعلة عصبية خفيفة ثم قال: بالمناسبة يا مارتن ، أتذكر أنك ألححت كثيراً لأدعك تخرج فى حلة فضاء ؟

— نعم ، وقد أخبرتنى أنه مخالف تماما للوائح .

وبدأ نوردن مرتبكا ، وهو مالم يكن من شيمته .

— حسناً ، إنه مخالف إلى حد ما ، ولكن هذه ليست برحلة عادية ، وأنت لست راكباً بمعنى الكلمة ، وعلى ذلك أظن أنه يمكننا تدبير الأمر .

وابتهج جيبسون لذلك ، فقد كان يتساءل دائماً كيف يبدو ارتداء حلة الفضاء والوقوف فى الفراغ ، حيث تحيط النجوم بالمرء من كل جانب ؛ ولم يخطر على باله قط أن يسأل نوردن لماذا غير فكره ، وبسبب ذلك كان نوردن جد شاكر له .

استغرق اختبار هذه الخطة حوالى أسبوع ، ففى كل صباح كان يعقد فى غرفة نوردن اجتماع صغير حين يأتى هيلتون ببيانات عن الصيانة اليومية ، وهى عبارة عن موجز لقدرة السفينة وسلوك كل جهاز من أجهزتها المتعددة خلال الأربع والعشرين الساعة السابقة . ولم يكن هناك عادة ما يستدعى الاهتمام ، فيقوم نوردن بإمضاء التقارير ، ثم ينسقها فى سجل السفينة . وكان آخر ما يتمناه فى هذا المكان هو التغيير ؛ ولكن ذلك التغيير حدث فى بعض الأحيان .

وقال هيلتون : اسمع ياجونى (كان هو الشخص الوحيد الذى ينادى نوردن باسمه الأول ، أما بالنسبة لبقية الطاقم فقد كان دائماً « ربان ») إن مسألة ضغط الهواء فى السفينة قد أصبحت حقيقة واقعة ، وهبوطه يكاد يكون مستمراً ، وفى غضون عشرة أيام سيصبح التحمل فوق طاقتنا .

— اللعنة ! معنى ذلك أننا يجب أن نقوم بعمل ما . لقد كنت أرجو أن يظل الأمر غير ذى بال حتى نرسو .

أخشى ألا نستطيع الانتظار إلى تلك اللحظة ، إذ يجب أن نقدم التقارير إلى لجنة أمان الفضاء بعد عودتنا ، وإذا تركنا الضغط يهبط إلى مادون الحد الأدنى فمن المؤكد أن تبدأ بعض السيدات العجائز المصبيات فى الصراخ .

— أين مصدر المتاعب فى اعتقادك ؟

— أكاد أوقن أنه فى سطح السفينة .

— أهو ثقبك المدلل الموجود حول القطب الشمالى ؟

— أشك فى ذلك ، فهذا حادث فجائى . أعتقـــد أن بالسفينة ثقباً آخر .

وبدا نوردن قليل الانزعاج، فالثقوب التى يسببها غبار الشهب تحدث لسفينة فى هذا الحجم مرتين أو ثلاثا فى العام . وهم يتركونها تتزايد عادة إلى أن تستحق الاهتمام ، لـكن يبدو أن هذا الثقب كبير إلى درجة لا يمكن تجاهلها .

— ما الوقت الذى يستغرقه العثور على موضع التسرب ؟

فأجاب هيلتون بلهجة فيها شىء من الاستياء : هذا مصدر القلق ، فلا يوجد لدينا سوى جهاز واحد للـكشف عن الثقوب ، فى حين تبلغ مساحة سطح السفينة خمسين ألف متر مربع وسيستغرق الطواف به

يومان . ولو أن هـذا الثقب كان متسعاً لدارت حواجز الوقاية الآلية وحددت لنا موضعه .

فابتسم نوردن وقال : يسرنى جدا أنها لم تفعل ذلك ! وإلا لسلبنا ذلك جزءاً من الإيضاح !

ولما كان چيمى سبنسر هو الشخص الوحيد الذى يلقى عليه عبء العمل الذى لا يرغب فيه أحد ، فقد عثر على الثقب بعد ثلاثة أيام بعد أن دار حول السفينة اثنتى عشرة مرة فقط . وكان الثقب الصغير غير المنتظم لا تـكاد تلحظه العين ، ولـكن جهاز الـكشف عن الثقوب ، الشديد الحساسية ، سجل بما لا يدع مجالا للشك أن الفراغ المجاور لهذا الجزء من السطح لم يكن كاملا كما يجب . وقام چيمى بوضع علامة بالطباشير على الموضع ، ثم عاد إلى المغلاق الهوائى .

وأخرج نوردن تصميمات السفينة وحـدد عليها الموضع بالتقريب حسب تقرير چيمى ، ثم أطلق صفيراً خافتاً وارتفع حاجباه نحو السقف ، وسأل : چيمى ، أيعلم المستر جيبسون بما كنت تفعل ؟

وأجاب چيمى : كلا ، فإنى لم أتوقف عن إعطائه محاضرات الملاحة الفلـكية رغم أن ذلك كان أمرا شاقا إلى جانب ..

— حسناً .. حسنا أتظن أن أحداً آخر أبلغه بأمر هذا التسرب ؟

— لا أدرى ، ولـكنى أعتقد أنه قد يشير إلى ذلك لو أنهم أبلغوه به

— حسناً ، أعرنى سمعك . إن هذا الثقب اللعين فى منتصف جدار قمرته تماما ، فلو فهت إليه بكلمة واحدة عنه لسلخت جلدك ، هل فهمت ؟

فازدرد چيمى لعابه وقال : نعم .. ثم انطلق خارجا فى عجلة .

وقال هيلتون فى استسلام : والآن ما العمل ؟

— علينا أن نستدرج مارتن بعيداً عن طريقنا بحجة ما ، ثم نسد الثقب بأسرع ما يمكن .

— من الغريب أنه لم يلحظ التصادم على الإطلاق، لابد أنه أحدث طنيناً قوياً .

— ربما كان فى الخارج فى ذلك الوقت، وإنى لمندهش كيف لم يلحظ تيار الهواء ، لابد أن يكون تياراً قوياً .

— من المحتمل أن دورات الهواء العادية تطغى عليه . لكن ، لم كل هذه الضجة ؟ لم لا نتبع الصراحة، ونوضح لمارتن ماحدث ؟لاداعى لكل هذه التمثيلية المؤثرة .

— أوه ، ألا يوجد داع حقا ؟ فلنفرض أن مارتن أعلن لجمهوره أن شهابا من القدر الثانى عشر أحدث ثقبا فى السفينة .. ثم استطرد قائلا إن هذا الشىء يحدث مرة كل رحلتين ! كم من قرائه سيدرك أن هذا ليس فقط ذا خطورة حقيقية ، بل إننا أيضاً لانهتم عادة بعمل شىء حتى

فى حالة حدوثه ؟ سأنبئك بما يكون عليه رد الفعل العام : (إذا كان هذا الشهاب صغيرا ، فماذا يمنع من أن يكون كبيرا ؟) ، إن الجمهور لا يثق بالإحصائيات على الإطلاق . وهلا استطعت تخيل العناوين (شهاب يثقب الأريس !) سيكون أثر ذلك سيئا فى أعمالنا .

— إذن لماذا لا نبلغ مارتن بكل بساطة ، ونطلب منه ألا ينبس ببنت شفة ؟

— لن يكون ذلك عدلا بالنسبة للفتى المسكين ، فهو لم يحصل على أى أخبار ينسج عليها مقالاته طوال أسابيع ، فمن الأكرم ألا نذكر شيئاً .

فتنهد هيلتون وقال : حسنا ، إنها فكرتك ، فلا تلمنى إذا انقلبت إلى سوء .

— لن يحدث ذلك . . . أعتقد أن لدى خطة محكمة لا يتسرب منها الماء .

— لا يهمنى إذا كان لا يتسرب منها الماء ، هل هى لا يتسرب منها الهواء ؟

* * *

كان جيبسون طوال حياته مفتونا بالآلات ، وكانت حلة الفضاء واحدة مما رغب فى إضافته إلى مجموعة الأجهزة التى فحصها وأتقن استعمالها .

وقد تلقى برادلى الأوامر بالتفصيل ، كى يتأكد من استيعابه للتمرين الصحيح ، وكى يصحبه إلى الخارج فى الفضاء ، ويبذل جهده حتى لا يضل الطريق .

وقد نسى جيبسون أن الحلل فى الأريس كانت دون أرجل ، وما على المرء إلا أن يجلس داخلها . وكان ذلك أمراً معقولا ، إذ أنها صنعت للاستعمال فى عدم وجود جاذبية ، وليس للسير على كوكب لا هواء فيه . وكان الاستغناء عن مفاصل الأرجل المرنة عاملا هاما فى بساطة تصميم الحلل فلم تزد على أسطوانات ذات رأس شفاف ، وتبرز من أطرافها العليا أذرع ذات مفاصل . وعلى طول الجوانب كانت توجد حفر ونتوءات تختص بتكييف الهواء واللاسلكى ومنظمات الحرارة وجهاز الدفع ذات القوة المنخفضة . وكان بداخلها فراغ كاف للحركة ، فيستطيع الشخص أن يسحب أذرعه ليصل إلى أجهزة القيادة الداخلية ، بل يمكنه تناول الغذاء دون اللجوء كثيراً إلى الحركات البهلوانية .

وأمضى برادلى داخل مغلاق الهواء ما يقرب من ساعة ليتأكد أن جيبسون عرف كل أجهزة القيادة الرئيسية وليختبره فى طريقة استعمالها ، وقد قدر جيبسون تدريبه الكامل حق قدره ، ولكن صبره بدأ ينفد حين لم يشاهد أى إشارة إلى قرب نهاية الدرس . وأخيراً انفجر ثائراً عندما بدأ برادلى يوضح الترتيبات الصحية البدائية فى الحلة ، وقال

معترضاً : ما كل هـــــذا ! إننا لن نبقى فى الخارج وقتاً طويلا إلى هذا الحد .

فابتسم برادلى بفتور وقال فى غموض: قد يدهشك كم من الناس من يقع فى هذا الخطأ .

وفتح قسما فى جدار المغلاق الهوائى ، وأخرج منه بكرتين من الحبال تشبهان تماما بكرات صيادى السمك . وكانت البكرتان تَركبان فى أجزاء خاصة فى أردية الفضاء بحيث تلتصقان بها فى ثبـــات فلا تنفصلان عنها عرضاً .

وقال : احتياط الأمان رقم واحد ، خذ دائما حبل إنقاذ ليربطك بالسفينة . إن القوانين توضع كى يخالفها الإنسان، فيما عدا هذا القانون. وزيادة فى الاحتياط ، سأربط رداءك بردائى بحبل آخر طوله عشر أمتار . والآن نحن على استعداد لارتقاء (الماترهورن) .

انزلق الباب الخارجى جانباً ، وأحس جيبسون بآخر أثر للهواء يجذبه فى أثناء إفلاته . وكان لقوة الدفع الضعيفة أثر فى تحريـكه نحو المخرج ، ثم سبح ببطء خارجا بين النجوم .

وقد اجتمع بطء الحركة والسكون المطبق ليجعلا هذه اللحظة آخذة بالألباب . كانت الأريس تتراجع خلفه بإصرار رهيب . وكان يغوص فى الفضاء ــ أخيراً فضاء حقيقى ــ وكان الخيط المفـكوك بجواره هو

صلته الوحيدة بالأمان . ومع أن التجربة كانت جديدة عليه إلا أنها أيقظت فى نفسه ذكريات مألوفة .

ولا بد أن عقله كان يعمل فى سرعة غير عادية ، إذ تذكر التجربة المشابهة على الفور . إن هذا يطابق لحظة فى طفولته ــ لحظة ، يمكنه أن يقسم حتى الآن إنها كانت نسياً منسيا ــ حين درب على السباحة بإلقائه فى مياه عمقها عشرة أمتار . ومرة أخرى هاهو ذا يغوص بطوله فى عنصر جديد مجهول .

وقد خفف احتكاك البكرة من اندفاعه حين توتر الحبل الذى يربطه ببرادلى . لقد كاد ينسى رفيقه الذى كان فى هذه اللحظة يندفع بعيداً عن السفينة ساحباً جيبسون معه ، بينما تنبثق من أسفل ردائه تفجرات غازية صغيرة .

وأجفل جيبسون حين مزق صوت زميله السكون ، منبعثاً حاد النبرات خلال مكبر الصوت فى ردائه .

— لا تستخدم الغاز النفاث مالم أطلب منك ذلك ، فنحن لا نريد أن نكون سرعة كبيرة ، كما يجب أن نحترس حتى لا تتشابك حبالنا .

— حسناً .. قال جيبسون ذلك ، وقد داخله شعور غامض بالضيق للتهجم على خلوته . والتفت خلفه إلى السفينة فوجدها قد أصبحت على بعد بضع مئات من الأمتار ، كما أخذت تتضاءل سريعاً .

وسأل فى قلق : ماطول الحبل الذى معنا ؟

ولم يسمع رداً على سؤاله ، واعتراه فزع طفيف لبرهة قبل أن يتذكر أن يضغط مفتاح « الإرسال » .

وبعد أن أعاد سؤاله ، رد برادلى قائلا : حوالى كيلومتر ، وذلك كاف لأن يحس الإنسان بالبهجة والوحدة .

وسأل جيبسون فى شبه دعابة : لنفرض أنه انقطع ؟

— لن ينقطع ، إذ يمكنه أن يتحمل وزنك كاملا هناك على الأرض . وحتى لوحدث ذلك ، يمكننا العودة بكل سهولة باستخدام غازاتنا النفاثة .

— وإذا نفدت ؟

— تلك محادثات مليئة بالبهجة . إنى لا أتصور أن يحدث ذلك إلا نتيجة إهمال جسيم ، أو حوالى ثلاث إخفاقات ميكانيكية فى آن واحد . تذكر أن هناك وحدة محركة إضافية لمثل هذه الطوارى، ولديك أجهزة تحذير فى الرداء لتنبهك قبل أن يفرغ الخزان الرئيسى بوقت كاف .

وأصر جيبسون قائلا : لكن لنفرض فقط .

— الحل الوحيد فى هذه الحالة هو أن تفتح منار الاستغاثة فى الرداء ، ثم تنتظر حتى يأتيك أحدهم ليعود بك، ولكنى أشك كثيراً فى

أنهم سيهرعون فى تلك الظروف ، فأى شخص يوقع بنفسه فى ورطة كهذه لن يلقى كثيراً من العطف .

وحدثت هزة فجائية ، فقد وصلوا إلى نهاية الحبل ، واستمان برادلى بنفاثاته فى كبت قوة الارتداد . . .

وقال فى هدوء : نحن الآن على مسافة كبيرة من مقرنا .

واستغرق جيبسون بضع ثوان فى تحديد مكان الأرض . لقد كانا فى الجانب الليلى من السفينة، ولذا كانت بأكملها فى شبه ظلام ، وبدت الكرتان كهلالين رقيقين نائيين ، من السهل أن يحسبهما الإنسان الأرض وقمرها على بعد قد يبلغ مليوناً من الكيلو مترات . ولم يعد هناك أى إحساس ملموس بوجود صلة بينه وبين السفينة ، فقد كانت السفينة من الصغر والوهن إلى درجة أن أصبح لا ينظر إليها كمحراب مقدس بعد ذلك . كان جيبسون أخيراً وحده مع النجوم .

وحمد الله كثيراً على أن برادلى تركه فى هدوء ولم يقطع عليه حبل أفكاره . وربما كان هو الآخر مأخوذاً مثله بجلال هذه اللحظة الرائعة. وبلغت النجوم من اللمعان والعدد حداً عجزمعه جيبسون حتى عن تحديد أكثر الكوكبات شهرة لأول وهلة . ثم عثر على المريخ ، ألمع ما فى السماء بعد الشمس ، وبذلك أمكنه أن يحدد مستوى فلك البروج . وفى حذر شديد أطلق غازاته النفاثة ليدير حلة الفضاء رويداً رويداً كى يشير

رأسه إلى النجم القطبي على وجه التقريب ، وبذلك أصبح « كالواقف فى الوضع الصحيح » ثانياً وأمكن تمييز صور النجوم مرة أخرى .

وشق طريقه فى بطء على طول منطقة البروج وهو يتساءل كم من الأشخاص عبر التاريخ شاركوه هذه التجربة (عما قريب سيصبح ذلك دون شك شائعاً بما فيه الكفاية وسيفقد سحره بعد أن يصير شيئاً مألوفاً) . وفى التو وجد المشترى ، وفيما بعد زحل — أو هكذا خيل إليه . فإن الكواكب لم تعد بعد مميزة عن النجوم بضوئها الثابت الذى لا يتلألأ ، والذى كان مرشداً نافعاً لهواة الفلك ، وإن كان خداعاً فى بعض الأحيان . ولم يبحث جيبسون عن الأرض أو الزهرة ، إذ لو حول بصره فى هذا الاتجاه لبهره سطوع ضوء الشمس فوراً .

وكان شريط من الضوء الباهت يربط بين نصفى كرة السماء ، إذ كانت الحلقة الكاملة للطريق اللبنى ظاهرة . وكان جيبسون يرى بوضوح الفرجات والتشققات على طول حافته ، حيث تبدو قارات كاملة من النجوم وكأنها تحاول الإفلات والترحال وحدها فى الهوة . وفى نصف الكرة الجنوبى ، كانت الهوة المظلمة لعرارة الفحم [١] تفغر فاها كنفق محفور خلال النجوم إلى كون آخر .

ودفع هذا التفكير جيبسون إلى الالتفاف ناحية كوكبة المرأة

(١) سديم على هيئة سحابة مظلمة فى كوكبة الدجاجة ـ « المترجم » .

المسلسلة حيث يمتد السديم العظيم ـ كعدسة جبارة مضيئة . وكان فى مقدوره أن يحجبه بظفر إبهامه ، ومع ذلك كان مجرة كاملة فى ضخامة حلقة النجوم الممتدة عبر السماء والتى يصبح فى قلبها الآن . أما ذلك الطيف المبهم، فكان أبعد من النجوم بمقدار مليون مرة ـ وهذه بدورها أبعد من الكواكب بمليون مرة . ياحسرة على كل رحلات ومغامرات الرجال إذا ماقورنت بتلك الصورة !

وكان جيبسون يبحث عن نجم رجل قنطوروس بين الكوكبات المجهولة فى نصف الكرة الجنوبى ، حين لمح شيئاً لم يتمكن من معرفته لأول وهلة ، فعلى مسافة نائيـة كان جسما أبيض مستطيلا يسبح بين النجوم ، أو هكذا كان إحساس جيبسون فى أول الأمر ، ثم لم يلبث أن أدرك أن بصره قد خدعه ، وأنه فى الحقيقة ينظر إلى شيء صغير جدا لايبعد عنه سوى بضعة أمتار . وحتى وقتئذ ، انقضت فترة قبل أن يعرف طبيعة هذا المتسكع بين الكواكب ، ربع فرخ عادى جدا من ورق المسودات يدور فى الفضاء ببطء شديد . ولم يكن هناك شيء عادى .. أو غير منتظر أكثر من هذا .

وتفرس جيبسون فى الشبح بعض الوقت قبل أن يقنع نفسه بأنه ليس وهما ، ثم أدار جهاز إرساله متحدثاً مع برادلى .

ولم يكن هذا مندهشا على الإطلاق ، وأجاب فى شيء من الملل : ليس فى هذا الأمر مايثير العجب ، فلبضعة أسابيع خلت ونحن نلقى

بالنفايات خارجاً كل يوم ، ولما كنا لا نسير بأى عجلة فستجد بعضها ما زال يتسكع حولنا . وبطبيعة الحال ما إن نبدأ فى (الفرملة) حتى نتخلف عنها . وحينئذ تندفع كل الفضـــلات خارجة من المجموعة الشمسية .

وفــكر جيبسون وهو يشعر بشىء من الحماقة فى أن الأمر يبدو واضحا تماما، فليس هناك أشد بلبلة من سر غامض يتبخر فجأة . من المحتمل أن تـكون مسودة إحدى مقالاته ، ولو كانت أقرب إليه من ذلك ، لـكان من المسلى استردادها كتذكار ولمعرفة الآثار التى ترتبت على وجودها فى الفضاء . ومن سوء الحظ أنها كانت بعيدة عن متناول يده، ولم يـكن هناك أى طريقة لاقتناصها دون أن يفلت الحبل الذى يربطه بالأريس .

وبعد أحقاب طويلة من وفاته ، ستظل قطعة الورقة هذه حاملة رسالتها هناك بين النجوم ، ولن يعلم على الإطلاق كنه هذه الرسالة .

* * *

كان نوردن فى استقبالهم عند عودتهم إلى المغلاق الهوائى . وكان يبدو راضيا عن نفسه وإن لم يكن جيبسون فى حالة تسمح له بملاحظة تلك التفاصيل . فقد كان ما زال تائها بين النجوم ، وسيمضى بعض الوقت قبل أن يعود إلى حالته الطبيعية ، وقبل أن يبدأ فى الضرب بلطف على آلته الـكاتبة وهو يحاول أن يسترجع إحساساته .

وحين صار جيبسون خارج مدى السمع ، سأل برادلى: هل أنجزت العمل فى موعده ؟

— نعم ، مع وقت فائض قدره خمس عشرة دقيقة . أغلقنا أجهزة التهوية واكتشفنا مكان التسرب فوراً باستعمال طريقة الشمعة الدخانية القديمة الطيبة. وأنجز بقية المهمة ، مسمار برشام غير مثقوب مع نقطة طلاء سريع الجفاف، ويمكننا أن نسد السطح الخارجى بعد هبوطنا إن كان يستحق ذلك . لقد قام ماك بالعمل بإتقان كاف ـ إنه يبدد مواهبه فى العمل كملاح .

- ٦ -

كانت الرحلة بالنسبة إلى مارتن جيبسون تسير فى سهولة وبهجة كافيين . وكان قد تمكن فى ذلك - كما كانت عادته دائما - من توجيه الوسط المحيط به لأقصى درجات راحته (لم يقصد بذلك الوسط المادى فقط، بل تعداه إلى البشر الذين يشاركونه فى ذلك الوسط) لقد أتم جانبا كبيرا من الكتابة ، بعضها صالح تماما ومعظمها مقبول ؛ رغم أنه لن يسترد مقدرته الكاملة كما يجب قبل أن يبلغ المريخ .

وكانت الرحلة قد بدأت تدخل فى أسابيعها الأخيرة، ولم يكن هناك مفر من الشعور السائد بالتراخى وعدم الاهتمام الذى سيستمر حتى يدخلوا مسار المريخ. فحتى ذلك الحين، لن يحدث أى شىء ، أما فى الوقت الحاضر فقد انقضت كل عوامل الإثارة فى الرحلة .

وآخر الأحداث الكبرى التى صادفت جيبسون كانت فى ذلك الصباح الذى افتقد فيه الأرض. فيوما بعد يوم، كانت تقترب من الأجنحة اللؤلؤية الضخمة الهالة الشمسية ، كما لو كانت على وشك أن تقدم ملايينها قربانا جنائزيا فى وقود الشمس . وفى إحدى الليالى كانت لا تزال ظاهرة خلال التلسكوب ، شرارة دقيقة تلمع فى جرأة ضد الرونق الذى لن يلبث أن يطغى عليها . وكان جيبسون يظن أنها ستظل ظاهرة فى الصباح ،

ولـكن خلال الليل امتدت الهالة فى الفضاء نصف مليون كيلومتر أخرى نتيجة لانفجار هائل ، فاختفت الأرض فى ضوء ذلك الستار المتوهج . وسيمر أسبوع قبل ظهورها ثانياً ، وحينئذ سيكون عالم جيبسون قد تغير أكثر مما يعتقد أنه محتمل الوقوع فى تلك الفترة القصيرة .

* * *

لو سأل شخص ما ، جيمى سبنسر عن رأيه الصريح فى جيبسون، لأعلن ذلك الفتى الصغير إجابات مختلفة نوعا ما فى المراحل المختلفة للرحلة. ففى البداية كان متهيباً تماما ذلك الزميل الشهير ، ولـكن سرعان ما تلاشت تلك المرحلة . ومن باب الإنصاف لجيبسون ، نقرر أنه كان بعيداً تماماً عن التعاظم ولم يحاول قط أن يسيء استعمال مركزه الممتاز فى الأريس . وبذلك من وجهة نظر جيمى ، كان التعامل معه أيسر من باقى المقيمين فى السفينة ، وكلهم كانوا ضباطا رؤساء له إلى درجة ما .

وحين بدأ جيبسون فى الاهتمام جديا بالملاحة الفلـكية ، كان جيمى يراه عن كثب مرة أو مرتين فى الأسبوع وبذل محاولات عديدة كى يسبر غوره . ولم يكن ذلك بالأمر اليسير ، إذ أن جيبسون لم يكن يحتفظ بطابع واحد قط لفترة طويلة . فأحيانا كان يبدو رزينا عاملا تستحب صحبته بوجه عام ، ومع ذلك فى مناسبات أخرى كان جافا حاد الطباع إلى درجة يستحق معها لقب الشخص الذى يجب تجنبه أكثر من غيره على الأريس .

ولم يكن چيمى واثقا على الإطلاق برأى جيبسون فيه ، فأحيانا كان يعتريه إحساس غير مريح بأن الكاتب لاينظر إليه إلا كمادة خام قد تصبح – أولا تصبح – ذات قيمة يوما ما . إن معظم من يعرفون جيبسون معرفة طفيفة شعروا بذلك الإحساس ، وأغلبهم كان على حق . ولكن ، بما أنه لم يحاول قط مواجهته مباشرة ، فإن شكوكه كانت تبدو على غير أساس .

وناحية أخرى غامضة حول جيبسون ، هى خبرته الفنية . فحينما بدأ چيمى ما أطلق عليه الجميع اسم الدروس المسائية ، افترض أن جيبسون لم يكن يهمه منها سوى تجنب الأخطاء الجسيمة عند إرسال مقالاته باللاسلكى إلى الأرض ، ولم تكن لديه الرغبة العميقة فى دراسة الملاحة الفلكية نفسها . وما لبث أن اتضح مجانبة ذلك للحقيقة ، فقد كانت لدى جيبسون الرغبة والشوق كى يلم بفروع العلم العويصة ، ويطالب بالبراهين الرياضية التى وجد چيمى مشقة فى تقديم بعضها . ولا بد أن هذا الرجل المسن قد تلقى فى وقت من الأوقات قدراً كبيراً من المعلومات الفنية مازالت بقايا منها عالقة فى ذهنه . أما كيف حصلها ، فذلك مالم يفسره قط ، وكذلك لم يذكر أى باعث دعاه إلى محاولاته المضنية للفكر – التى كان مصيرها الفشل تلو الفشل – كى تستوعب آراء علمية فوق مستواه بكثير . وكانت خيبة أمل جيبسون بعد كل إخفاق واضحة إلى درجة تبعث چيمى على الرثاء لحاله ، فيما عدا تلك الأوقات التى يتوتر

فيها تلميذه محاولا إلقاء اللوم على مدرسه . حينئذ يحدث تبادل قصير للعبارات الفظة ، ثم يجمع چيمى كتبه ، ولا يستأنف الدرس حتى يعتذر جيبسون .

وأحيانا ، من ناحية أخرى ، كان جيبسون يأخذ ذلك العجز فى استسلام مازح ثم يغير الموضوع بكل بساطة . وحينئذ يتحدث عن تجاربه فى أحراش الأدب العجيبة التى يعيش فيها ، عالم يموج بالوحوش الغريبة التى غالباً ما تكون ضارية ، وقد وجد چيمى فى تصرفاته ما يفتن الألباب . وكان جيبسون محدثا بارعا ، ذا استعداد طيب لتوريد الفضائح وتقويض السمعات ، وكان يبدو أنه يفعل ذلك دون أن يتعمد النكاية بأحد . وكانت بعض القصص التى رواها لچيمى عن الشخصيات البارزة وقتئذ مخجلة تماما لذلك الشاب الغض . ومما زاد من غرابة الأمر أن غالبية هؤلاء الناس الذين بادر جيبسون بتمزيقهم إربا كانوا من أقرب أصدقائه وكان من العسير على چيمى أن يفهم هذا الأمر .

ومع ذلك ، رغم كل هذه التحذيرات ، كان چيمى متأهباً للحديث عندما حان الوقت لذلك. فقد ارتطم أحد الدروس بصخور من المعادلات التفاضلية ولم يكن أمامهم سوى الإقرار بالعجز . وكان جيبسون فى أحد أحواله الودية ، وحين أغلق كتبه وهو يتنهد التفت إلى چيمى وسأله بطريقة عابرة : إنك لم تذكر لى قط أى شىء عن نفسك ياچيمى وعلى كل ، من أى مناطق إنجلترا أتيت ؟

ـ كامبردج .. أو على الأقل هذا حيث ولدت .

ـ لقد كنت أعرف المكان خير معرفة منذ عشرين عاما ، ولكنك لا تقيم هناك فى الوقت الحاضر ؟

ـ كلا ، فحين بلغت السادسة تقريباً ، انتقلت أسرتى إلى ليذر حيث بقيت منذ ذلك العهد .

ـ لماذا اخترت الملاحة الفلكية ؟

ـ من العسير ذكر السبب ، فقد كنت دائما مهتما بالعلم ، وبطبيعة الحال كان سفر الفضاء هو الشيء المرتقب حين بدأت أشب عن طوق . وبذلك أعتقد أن الأمر طبيعى . ولو أنى ولدت قبل ذلك بخمسين عاما لسلكت طريق الملاحة الجوية كما أظن .

ـ إذن فأنت مهتم بسفر الفضاء كمسألة فنية فقط ، وليس باعتباره طريقا قد يطور أفكار البشرية ويكشف عن كواكب جديدة وما إلى ذلك ؟

فضحك چيمى فى فتور وقال: أعتقد أن ذلك هو الصواب بالطبع. أنا مهتم بهذه الأفكار ، ما يفتننى هو الجانب الفنى . . وحتى لو كانت الكواكب خالية من كل شىء ، فإنى سأظل تواقا لمعرفة كيفية الوصول إليها .

فهز جيبسون رأسه فى ألم مصطنع وقال : حين يتقدم بك العمر ،

ستصبح واحداً من هؤلاء العلماء الذين يعرفون كل شىء عن لا شىء .
رجل طيب آخر عديم المنفعة .

فقال چيمى فى شىء من الجدل : من دواعى سرورى اعتقادك أنه سيكون هباء منثورا ، وعلى أية حال ، لماذا تهتم هكذا بالعلم ؟

فضحك جيبسون، ولكن غشيت صوته آثار من الضيق حين أجاب قائلا : إنى مهتم بالعلم كوسيلة وليس كغاية .

وكان چيمى واثقا أن ذلك بعيد كل البعد عن الحقيقة ، ولكن شيئاً ما حذره بأن يترك الأمر عند هذا الحد ، وقبل أن يتمكن من الإجابة كان جيبسون قد استأنف أسئلته .

وكان كل شىء يسير فى اهتمام طبيعى تسوده روح ودية حتى إن چيمى لم يقدر على تجنب الشعور بالإطراء ، ولم يكن أمامه سوى أن يتحدث فى حرية وبساطة . ومهما يكن ، فلم يكن يهمه ما إذا كان جيبسون يدرسه حقا اكلينيكيا ودون أى غرض، كما يرقب عالم الأحياء تصرفات أحد حيواناته المعملية . وأحس چيمى بالرغبة فى الحديث ، كما فضل أن يعفى دوافع جيبسون من الشبهات .

وتحدث عن صباه وحياته المبكرة ، وسرعان ما أدرك جيبسون بواعث السحب العرضية التى تغشى أحيانا نزعة المرح الطبيعية عند الفتى . كانت قصة قديمة . واحدة من أقدمها . فقد ماتت أم چيمى ولم يتجاوز

سن الطفولة ، وتركه والده فى رعاية أخت متزوجة . وكانت عمة چيمى شفوقة به ، إلا أنه لم يشعر قط أنه فى بيته بين أبناء عمته . . لقد كان دائما غريبا عن الدار . كما لم يكن والده ذا عون كبير له ، إذ نادرا ما كان موجودا فى إنجلترا ، ومات حينما بلغ چيمى العاشرة تقريباً . ويبدو أنه لم يترك أى انطباعات فى نفس ابنه الذى احتفظ بذكريات واضحة عن أمه التى لا يكاد يعرفها ، مما يثير أشد العجب .

وما إن زالت الحواجز ، حتى أخذ چيمى يتكلم دون تحفظ ، كما لو كان سعيدا بإزاحة هذا العبء عن صدره . وكان جيبسون أحيانا يلقى الأسئلة ليستحثه على الكلام ، ولكن الفترات بينها أخذت تتباعد رويداً رويداً حتى كف عن إلقائها .

وقال چيمى : لا أعتقد أن والدى كانا يحبان بعضهما بعضا كثيرا وقد استنتجت مما ذكرته العمة إلين أن زواجهما كان غلطة إلى حد ما . ففى بادىء الأمر كان هناك رجل آخر لكن ، أصيب المشروع بالفشل ، وكان أبى هو أفضل الموجودين بعد ذلك . أوه ! أعلم أن فى حديثى شيئاً من القسوة ، ولكن أرجوك أن تذكر أن كل ذلك حدث منذ وقت طويل ولم يعد يهمنى كثيرا فى الوقت الحاضر .

فقال جيبسون فى هدوء ، وكان يبدو عليه أنه يعنى مايقول : إننى أدرك ما تقول. حدثنى بالمزيد عن أمك .

كان والدها ـ أى جدى ـ أحد أساتذة الجامعة . وأعتقد أن أمى

قضت كل حياتها فى كامبردج ، وحين بلغت السن المناسبة التحقت بالكلية للحصول على شهادة .. كانت تدرس التاريخ . أوه ! لعل كل ذلك لا يهمك .

فقال جيبسون بحماسة : إنه حقا يهمنى . استمر .

وهكذا تكلم چيمى .. وكل مانطق به لابد أن يكون قد عرفه عن طريق الرواية ، ولكن الصورة التى رسمها لجيبسون كانت واضحة مفصلة إلى درجة مدهشة، حتى يخيل للمستمع إليه أن العمة إلين كانت ثرثارة للغاية ، وأن چيمى كان طفلا يجيد الإنصات .

لقد كان إحدى غراميات الكلية العديدة ، التى تزهر وسرعان ما تذوى خلال الأعوام المعدودة التى تبدو كعالم صغير من الحياة نفسها ، ولكن هذا الغرام كان أكثرها جدية . فى آخر فصل دراسى وقعت أم چيمى ـ حتى الآن لم يذكر اسمها لجيبسون ـ فى غرام طالب بالهندسة فى منتصف الطريق الجامعى . كان غراماً عنيفاً كالإعصار ، وكان التوافق بينهما مثالياً رغم أن الفتاة تكبر الفتى بعدة أعوام . وفى الحقيقة وصل الأمر إلى مرتبة الخطبة عندما .. وهنا كان چيمى غير واثق تماما مما حدث. فقد أصيب الشاب الصغير بمرض خطير ، أم لعله أصيب بانهيار عصبى ، ولم يعد قط بعد ذلك إلى كمبردج .

واستطرد چيمى يقول وهو يتظاهر بالفطنة ، وإن بدت مناسبة له

بعض الشيء : لم تتغلب أمي على الصدمة تماما . ولـكن طالباً آخر كان غارقا في حبها ، وهـكذا تزوجته . إنني أحس أحيانا بالرثاء لوالدي ، فلابد أنه كان يعلم كل شيء عن الغرام الآخر . ولم أره كثيراً لأن . . . ماذا يامستر جيبسون ، ألست على مايرام ؟

— لاشيء .. إنه أثر دوار .. الفضاء . أصاب به بين حين وآخر .. سيزول بعد لحظات .

كان يتمنى أن يكون صادقا في قوله . لقد كان طوال هذه الأسابيع يسلك طريق التصادم مع القدر ، وهو في جهل تام به ، ويظن نفسه محصناً ضد كل صدمات الزمن والمصادفات ، إلا أنه حانت لحظة التصادم وتلاشت الأعوام العشرون السابقة كما يتلاشى الحلم .. وصار مرة أخرى وجها لوجه مع ماضيه الذي كان قد نسيه .

* * *

قال برادلي وهو يوقع في سجل الإشارات : إن أمراً غير طبيعي يعتري مارتن ، وليس الأمر متعلقاً بأية أخبار تلقاها من الأرض ، فقد قرأتها جميعاً . أتظن أنه بدأ يحس بالحنين إلى الوطن ؟

وأجاب نوردن : لقد غادره في وقت متأخر من اليوم — إن كان في ذلك مايفسر شيئاً — وفضلا عن ذلك ، سنصل إلى المريخ في مدى أسبوعين . ولـكنك تتوهم نفسك عالما نفسانياً هاوياً ، أليس كذلك ؟

ـ حسناً ، من ذا الذى لايفعل ذلك ؟

فبدأ نوردن يجيب كالواعظ :أنا مثلا ـ فالتدخل فى شئون الآخرين ليس أحد ..

وفى الوقت المناسب ، حذرته ومضة توقع وانتظار فى عينى برادلى فتوقف فى وسط الحديث ، مما أصاب زميله بخيبة أمل واضحة ؛ فقد اندفع مارتن جيبسون إلى الغرفة مزودا بدفتر المذكرات وهو يبدو كمراسل ناشىء فى أول مؤتمر صحفى يحضره .

وسأل فى لهفة : حسناً يا أوين ، ماهذا الذى أردت أن تريني إياه ؟

فتحرك برادلى إلى حامل الاتصالات الرئيسية وقال : ليس الأمر فى الحقيقة مثيراً للانفعال ، ولكن معناه أننا اجتزنا موقعاً آخر .. إستمع إلى هذا .

وضغط مفتاح المذياع ثم أخذ يرفع صوته فى بطء ، فغمر الحجرة طنين وطقطقة أصوات لا سلكية أشبه بالصوت الذى تحدثه ألف مقلاة على وشك الاشتعال . كان صوتاً سمعه جيبسون كثيراً فى قمرة الإشارات وبسبب نغمها الرتيب الذى لايتغير ، لم تفشل قط فى إثارة عجبه . لقد كان ينصت ـ كما يعلم ـ إلى أصوات النجوم والسدم .. إلى إشعاعات بدأت رحلتها قبل خلق الإنسان . وبين ثنايا هذه القرقعة ، الهامسة المشوشة قد تكون ـ بل لابد أن تكون ـ أصوات الحضارات الأجنبية

يخاطب بعضها بعضا فى أعماق الفضاء . ولـكن ، واأسفاه ! كانت أصواتها ضائعة بلا أمن فى حمـــأة الاضطراب الـكونى الذى صنعته الطبيعة بنفسها .

ولم يكن ذلك على أية حال ما استدعاه برادلى ليسمعه . وبكل دقة ، قام ضابط الإشارات ، وهو مقطب الجبين ، بحركات طفيفة لضبط الموجة .

لقد استقبلتها منذ دقيقة مضت .. أعنى ألا تـكون قد تلاشت . . آه ، ها هى ذى .

وفى بادىء الأمر لم يكشف جيبسون أى تغيير فى غلالة الصوت ، ثم لاحظ أن برادلى كان يحرك يده فى صمت وبشىء من السرعة موضحا الزمن .. بمعدل حركتين كل ثانية . ومالبث جيبسون حين اتخذ ذلك مرشداً له ، أن تبين صفيراً متموجا غاية فى الخفوت ينبعث خـــلال العاصفة الـكونية .

فتساءل ؛ وقد قطع نصف الطريق إلى معرفة الحقيقة : ماذلك ؟!

ـ إنه الشعاع اللاسلـكى فى ديموس. وهناك واحد أيضا فى فوبوس، ولـكنه ليس بهذه القوة، ولا نستطيع استقباله بعد . وحين نقترب من المريخ ، يمكننا أن نستخدمها لنتخذ موقعنا فى حدود بضع مئات من الـكيلو مترات . أما الآن فنحن على بعد عشرة أمثال المجال الصالح للاستعمال ، ولـكن معرفة ذلك شىء جميل .

نعم . إن معرفة ذلك شيء جميل .. هكذا فكر جيبسون وبطبيعة الحال ، ليست المساعدات اللاسلكية ضرورة حتمية إذا كانت وجهة المرء ظاهرة طوال الوقت ، ولكنها تقوم بتبسيط بعض مشكلات الملاحة . وحين أخذ ينصت بأعين نصف مغمضة إلى تلك النبضات الضعيفة التى تكاد تطغى عليها ضوضاء الكون أحيانا ، أدرك إحساس البحارة القدماء حين كانوا يستقبلون الومضات الأولى لأضواء الميناء وهم فى عرض البحر .

وقال برادلى وهو يغلق المذياع فيسود الصمت : أعتقد أن ذلك كاف . وعلى أية حال سيزودك ذلك بشيء جديد لتكتب عنه . . فأخيراً كانت الأمور هادئة جداً ، أليس كذلك ؟

وكان يراقب جيبسون بإمعان وهو يقول ذلك ؛ ولكن الكاتب لم يجب على الإطلاق .. بل دون فى مفكرته بضع كلمات ، ثم شكر برادلى فى ذهول وأدب غير عادى وغادر الغرفة إلى قمرته .

وقال نوردن بعد ذهابه : إنك على حق ، فمن المؤكد أن شيئاً ما حدث لمارتن ويجدر بى أن أتحدث مع الطبيب .

فأجاب برادلى قائلا : لو كنت مكانك لما أوليت الأمر أهمية ، فمهما يكن ماحدث أعتقد أنك تستطيع علاجه بالأقراص . من الخير أن تدع مارتن يحل ذلك بطريقته .

فرد نوردن متذمراً : ربما كنت على حق ، ولـكن أرجو ألا يستمر ذلك طويلا .

وقد مضى على ذلك حتى الآن حوالى أسبوع . وكانت الصدمة الرئيسية لاكتشاف أن چيمى سبنسر كان ابن كاثلين مورجان ، قد بدأت تتلاشى ! ولـكن بدأ الإحساس بآثارها الثانوية ، ومن بينها شعور بالاستياء من حدوث شىء كهذا له ، فقد كان خرقا شنيعا لقوانين الاحتمالات .. شىء من المحال حدوثه فى إحدى روايات جيبسون نفسه . ولـكن الحياة كانت خالية من الذوق الفنى ، ولم يـكن هناك ما يستطيع المرء أن يفعله فى هذا الصدد . وكان ذلك الإحساس بسرعة الغضب الصبيانية فى طريقه إلى الزوال ليحل محلها شعور عميق بالقلق . فقد بدأت كل إحساساته التى حسبها مدفونة فى أمان تحت عشرين عاما من النشاط المحموم ، تطفو إلى السطح ثانيا ، كمخلوقات من أعماق البحار أهلـكها انفجار بركانى تحت سطح البحر . ولو كان فى الأرض لأمكنه الهرب مرة أخرى فى خضم الحياة ، ولـكنه هنا داخل المصيدة . . . لا مخرج له .

وكان من العبث التظاهر بأن شيئا لم يتغير فى الحقيقة ، وأن يقول : « أنا أعلم بالطبع أن لـكاثلين وجيرالد ابنا » فماذا يغير ذلك من الأمور فى الوقت الحاضر ! إنه يغيرها إلى درجة كبيرة . فـكلما رأى چيمى سيتذكر ماضيه ـ وأسوأ من ذلك ـ المستقبل الذى كان من المحتمل أن

أن يصادفه. وكانت أهم مشكلة عاجلة فى الوقت الحاضر هى مواجهة الحقائق بكل صراحة ، والقبض على ناصية الموقف الجديد . وكان جيبسون يعلم تماما أن هناك طريقا واحدا فقط لذلك ، وأن الفرصة سرعان ما تسنح له .

وكان چيمى قد هبط إلى نصف الكرة الجنوبى فى طريقه عبر منصة الأرصاد الاستوائية ، حين شاهد جيبسون جالساً عند إحدى النوافذ يتطلع إلى الفضاء . ولأول وهلة ، حسب أنه لم يره ، وقرر ألا يقطع عليه حبل أفكاره حين ناداه جيبسون قائلا :

— هالو چيمى .. أيمكنك أن تمنحنى لحظة من وقتك ؟

وقد حدث أن كان چيمى مشغولا ، ولكنه كان يعلم أن جيبسون فى حالة غير طبيعية ، وأدرك أن الرجل العجوز فى حاجة إلى صحبته . ولذلك أقبل وجلس على المقعد فى ممر الرصد ، وما لبث أن عرف من الحقائق ماقدر جيبسون أن فيه الخير لكليهما .

وابتدأ جيبسون قائلا : سأخبرك ياچيمى بشىء لا يعرفه سوى نفر قليل ، فلا تقاطعنى ولا تسل عن شىء بأى حال من الأحوال . . حتى أنتهى من حديثى .

« حينما كنت أصغر منك سنا ، كان أملى أن أصبح مهندسا . وفى تلك الأيام ، كنت فتى نابها لم أصادف أى صعوبات فى الالتحاق

بالكلية عن طريق الامتحانات المعتادة . ولما كنت غير واثق مما أنوى عمله ، فقد اخترت مقرر السنوات الخمس فى الطبيعة الهندسية ، الذى كان شيئا جديداً فى تلك الأيام. وكانت نتيجة السنة الأولى حسنة.. إلى درجة أنها حفزتنى على بذل مجهود أكبر فى المرة التالية ، وفى السنة الثانية لم أكن . . مجدا تماماً ولكن أحسن بكثير من المتوسط . وفى السنة الثالثة وقعت فى الحب . ولم يكن ذلك للمرة الأولى ولكننى عرفت أنه الحب الحقيقى أخيراً .

والآن ، قد يكون فى وقوعك فى الحب أثناء الدراسة بالكلية خيراً ، أو قد لايكون ، فالأمر كله يتوقف على الظروف . فلو كان الأمر مجرد مغازلة لما كان له أثر على أى وجه ، ولكن إذا كان حباً جديا بحق لأدى ذلك إلى احتمالين :

قد يكون أثره كمنبه . . ربما يدفعك إلى بذل كل جهدك كى تظهر أنك خير من بقية الزملاء . ومن جهة أخرى ، قد تغرق عاطفياً إلى أذنيك إلى درجة ألا تهتم بما عدا ذلك ، وتصبح دراساتك هباء منثورا . وذلك ماحدث لى .

ولاذ جيبسون بالصمت وهو يفكر ، فى حين اختلس جيمى نظرة إليه وهو جالس فى الظلام على بعد خطوات . لقد كانوا فى الجانب الليلى من السفينة ، بينما خفتت أضواء الدهاليز حتى أمكن رؤية النجوم فى روعتها الخالدة . وإلى الأمام مباشرة كانت كوكبة الأسد . . وفى قلبها

تلك الجوهرة الحمراء التى كانت هدفهم . فقد كان المريخ ألمع الأجرام السماوية ــ بعد الشمس مباشرة ــ وكان قرصه قد بدأ يظهر للعين المجردة وكان الضوء القرمزى الساطع ، الساقط على وجه جيبسون ، يضفى عليه مظهر الصحة .. بل مظهر السرور المناقض تماما لإحساساته .

وعجب جيبسون مما إذا كان المرء حقاً لاينسى أى شىء . والآن ، يبدو أن ذلك صواب . مازال فى إمكانه أن يرى تلك الرسالة المثبتة فى لوحة إعلانات الكلية بنفس الوضوح الذى رآها به منذ عشرين عاما « عميد الهندسة يرغب فى رؤية جيبسون بمكتبه فى الساعة الثالثة » .

وكان عليه أن ينتظر بطبيعة الحال حتى الثالثة والربع ، ولم يكن فى ذلك أى عون له . وما كان الأمر ليزيد سوءاً لو أن العميد كان متهكما ، أو مترفعا فى جمود ، أو حتى لو أنه فقد صوابه ، وما زال فى إمكان جيبسون أن يتخيل تلك الحجرة الأنيقة القاسية ، بأضابيرها المرتبة والكتب المصفوفة بعناية .. وفى مقدوره أن يتذكر سكرتيرة العميد جالسة فى الركن وتضرب على آلتها الكاتبة ، وتتظاهر أنها لاتسمع شيئا . (والآن حين يفكر فى هذه الناحية يرى من المحتمل أنها لم تكن تتظاهر بذلك ، فهذه التجربة لم تكن جديدة عليها كما كانت بالنسبة إليه) .

وكان جيبسون يحب العميد ويحترمه لوسائله المتحذلقة ، والآن وقد خيب ظنه صار فشله مضاعفا لا يطاق . وتناول العميد الموضوع

بطريقته « المعبرة عن الحزن أكثر من الغضب » ، والتى كان لها أثرها البالغ أكثر مما يقصد أو يعتقد . لقد منح جيبسون فرصة أخرى ، ولكنه لم ينتهزها على الإطلاق .

فما جعل الأمور أكثر سوءاً ، أن كاثلين أجادت بعض الشيء فى امتحاناتها رغم أنه خجل من الاعتراف بهذه الحقيقة . وحين أعلنت نتيجته تحاشاها جيبسون عدة أيام، ثم لما التقى بها ثانية ، كانت الفكرة بأنها سبب فشله قد تسلطت على عقله . والآن يمكنه أن يرى الأمر بوضوح لدرجة أنه لم يعد يتألم من ذلك . هل كان حقا غارقا فى الحب حين كان مستعداً للتضحية بكاثلين فى سبيل كرامته ؟. فذلك ما تطورت إليه الأمور ؛ لقد حاول أن يلقى باللوم عليها .

وما تلا ذلك كان لا مفر منه ، ذلك الشجار أثناء آخر رحلة لهم بالدراجات فى الريف ثم عودتهما متفرقين . والخطابات التى لم تفتح . . وأهم من ذلك الخطابات التى لم تكتب . ومحاولتهما عبثاً للقاء فى آخر يوم له فى كامبردج ، ولو للوداع فقط . فحتى هذه المحاولة قد فشلت لأن الرسالة لم تصل إلى كاثلين فى الوقت المناسب ، ورغم أنه بقى فى الانتظار حتى آخر دقيقة فإنها لم تحضر قط . والقطار المزدحم بالطلبة المبتهجين ، الذى غادر المحطة فى ضوضاء تاركا كامبردج وكاثلين وراءه . ومنذ ذلك الحين لم يرها ثانية .

ولم يكن هناك داع لأن يطلع جيمى على الشهور السوداء التى

أعقبت ذلك . ولم تكن ثمة ضرورة قط لأن يعرف معنى الكلمات البسيطة « إنى أصبت بانهيار ، وكانت النصيحة أن أترك الكلية » . لقد قام الدكتور إيفانز بمجهود طيب لعلاجه ، وسيظل بسبب ذلك معترفا له بالجميل على الدوام . لقد كان إيفانز هو الذى حثه على الكتابة خلال دور النقاهة ، وكانت النتيجة مفاجئة لكليهما . (كم شخصا يعرف أن أولى قصصه مهداة إلى طبيبه النفسانى ؟ حسنا ، ما دام راخمانينوف قد فعل نفس الشىء بمعزوفته فلم لا يفعل هو ذلك ؟)

لقد منحه إيفانز شخصية جديدة ومهنة تمكن عن طريقها من استرداد ثقته بنفسه. ولكن لم يكن فى إمكانه استرجاع المستقبل الذى ضاع منه . لقد ظل جيبسون طوال حياته يحسد الرجال الذين أتموا ما بدأه هو . . الرجال الذين يمكنهم أن يضعوا إلى جانب أسمائهم ، الدرجات والمؤهلات التى لن يحصل عليها ، والذين يجدون عملا فى المجالات التى لا يمكنه ـ بالنسبة إليها ـ إلا أن يكون متفرجا .

ولو أن المضايقات لم تمتد إلى أعمق من هذا لما اهتم بالأمر كثيراً . ولكنه حين أنقذ كبرياءه بإلقاء اللوم على كاثلين، اختلت حياته بأكملها لقد أصبحت هى رمزا لكل النساء . . تقترن بالفشل والعار . وفيما عدا قليل من الصلات التى لم يأخذها أى من الطرفين مأخذ الجد ، لم يقع جيبسون فى الحب مرة ثانية . والآن يعلم أنه لن يقع فيه قط مادامت معرفة سبب شكواه لم تحاول أن تساعده فى البحث عن علاج .

ولم تكن هناك ضرورة بالطبع إلى ذكر أى من هذه الأشياء لچيمى . كان كافياً أن يعطيه الحقائق مجردة ثم يترك له بعد ذلك أن يخمن ما يراه . وربما يستطيع أن يخبره بالمزيد يوما ما ، ولكن ذلك يتوقف على عوامل كثيرة .

وبعد أن أتم جيبسون حديثه، دهش كثيرا حين وجد نفسه فى انتظار تأثير ذلك فى چيمى ، وأخذ يتساءل عما إذا كان الفتى قد قرأ ما بين السطور وأنصف فى إلقاء اللوم حيث يجب أن يكون ، وعما إذا كان سيشعر بالعطف أم بالغضب . . أم بالحيرة والارتباك ليس إلا . . لقد أصبح فجأة من الأهمية بمكان أن يكتسب احترام چيمى وصداقته ، أهم من أى شىء صادف جيبسون منذ وقت طويل . وبهذا يمكنه أن يرضى ضميره ويسكت تلك الأصوات المنبعثة من الماضى لتشير إليه بإصبع الاتهام .

ولم يكن يستطيع أن يرى وجه چيمى الذى كان فى بقعة مظلمة ، ومر ما خيل إليه أنه دهر قبل أن يقطع حبال الصمت .

وحين تكلم ، كان صوته محايدا — لا أثر فيه للعطف ولا للوم . وتساءل فى هدوء : لماذا ذكرت لى ذلك ؟

وتردد جيبسون قبل أن يجيب . وكان ذلك أمرا طبيعيا ، حتى بالنسبة إليه . فقد كان من الصعب أن يفسر كل دوافعه .

وأجاب فى حماسة : كان لزاماً على أن أخبرك ، فما كنت لأشعر

بالرضا قبل أن أفعل هذا . وفضلا عن ذلك ـ أحسست أنه قد يمكننى تقديم المساعدة بطريقة ما .

ومرة أخرى ساد ذلك الصمت المحطم للأعصاب ، ثم نهض چيمى على قدميه فى بطء .

وأجاب فى صوت مازال خالياً من التعبير : سأفكر فيما أخبرتنى به ، فلست أدرى الآن ما أقول .

ثم انصرف . لقد ترك جيبسون فى حالة من الاضطراب التام والارتباك ،وهو يعجب مما إذا كان تصرفه يتصف بالحق أم لا . فقد أدى تمالك چيمى لنفسه ، وعدم وضوح أثر الحديث عليه ، إلى أن يفقد جيبسون توازنه ويصبح فى حالة ضياع تام . ولم يكن واثقا إلا من شىء واحد : حين صرح بالحقائق ، أزاح عبئاً كبيراً عن كاهله .

ولكن مازال هناك الكثير لم يذكره لچيمى ؛ بل هناك حقا الكثير مما لم يعرفه هو نفسه .

- ٧ -

صاح نوردن ثائراً ، وهو يبدو كرئيس للقراصنة : هذا جنون مطبق ! لابد أن هناك تفسير ما ! بحق السماء ، لايوجد على ديموس أى استعدادات (مرفئية) مناسبة .. كيف يتوقعون منا تفريغ البضائع ؟ سأتصل بالرئيس الإدارى وأقلب الدنيا رأسا على عقب .

فقال برادلى ببطء : لو كنت مكانك لما فعلت هذا . هل لاحظت الإمضاء ؟ هـذه ليست أوامر من الأرض عن طريق المريخ ، بل إن مصدرها هو مكتب المهندس المدنى . قد يكون الرجل العجوز من بلاء التتار ، ولـكنه لايتخذ إجراء مالم يكن لديه أسباب قوية .

— اذكر لى واحداً فقط .

وهز برادلى كتفيه قائلا : إننى لا أشرف على إدارة المريخ ، فكيف لى بمعرفة الأسباب ؟ سنكتشف ذلك عاجلا . ثم أطلق ضحكة ماكرة واستطرد يقول : إنى لأعجب كيف يتلقى ماك النبأ ؟ إن عليه أن يعيد حساب مسار الاقتراب .

ومال نوردن ناحية لوحة السيطرة ثم حرك أحـد المفاتيح وقال : هالو ، ماك .. هذا هو القبطان . أتسمعنى ؟

وانقضت لحظة صمت ، ثم انبعث صوت هيلتون من المذياع : ماك ليس هنا فى هذه اللحظة . هل من رسالة ؟

— حسنا .. يمكنك أن تنقلها إليه . لقد تلقينا أوامر من المريخ بتغيير مسار السفينة وتحويلنا عن فوبوس دون إبداء أية أسباب. أخبر ماك أن يحسب المسار إلى ديموس وأن يبلغنى به بأسرع مايستطيع .

— لست أدرك السر فى ذلك. لماذا ؟ إن ديموس ليس إلا كمية من الجبال دون ..

— نعم .. لقد تباحثنا فى كل ذلك ! قد نعرف السبب عند وصولنا هناك . أبلغ ماك أن يتصل بى بأسرع ما يمكنه . أفهمت؟

وساق الدكتور سكوت الأخبار إلى جيبسون ، حين كان الكاتب يقوم بالمراجعة النهائية لإحدى مقالاته الأسبوعية . فقد صاح لاهث الأنفاس : أسمعت آخر الأنباء ؟ لقد حولونا إلى ديموس ، والقبطان ثائر كالجحيم .. قد يؤخرنا ذلك يوما عن موعدنا .

— ألا يعلم أحد السبب فى ذلك ؟

— كلا ، إن المسألة سر غامض ـ لقد استفسرنا ولكن المريخ يرفض الإجابة .

وحك جيبسون رأسه وهو يقلب عدة آراء ، ثم يدعها جانباً . كان يعلم أن القمر الداخلى فوبوس قد استخدم كقاعدة منذ أول بعثة وصلت

إلى المريخ ، فهو المكان النموذجي لهذا الغرض ، إذ لا يبعد سوى ٦٠٠٠ كيلو متر عن سطح الكوكب ، وتقل قوة جاذبيته عن واحد على ألف من جاذبية الأرض .

وكان من المقرر أن تهبط الأريس بعد أقل من أسبوع، وكان المريخ قد أصبح قرصا صغيرا تبدو عليه كثير من العلامات السطحية يمكن رؤيتها بالعين المجردة . وقد استعار جيبسون خريطة كبيرة للكوكب ثم بدأ يستظهر أسماء معالمه الأساسية .. أسماء أطلقها — أو أطلق معظمها علماء الفلك منذ أكثر من قرن ، ولم يدر بخلدهم قط ، أن الناس قد يستخدمونها في يوم من الأيام كجزء من حياتهم الطبيعية . كم كان هؤلاء راسمو الخرائط القدامى ، شعراء حين نقبوا فى الأساطير ! حتى مجرد النظر إلى هـــذه الأسماء على الخريطة يبعث الدماء متدفقة فى الشرايين .. ديوكاليون ! إليسيوم ، يومينيدس ، أركاديا ، أطلانطس ، أيوتوبيا ، إيوس . . فى إمكان جيبسون أن يجلس ساعات يترنم بهذه الأسماء البديعة ، وهو يحس كما لو تفتحت أمامه فى الواقع نوافذ سحر (كيتس) الفتانة . لكن لم يكن هناك أية بحار — خطرة أو آمنة — فى المريخ ، رغم أن كثيرا من أراضيه كانت خطرة بما فيه الكفاية .

وكان مسار الأريس فى ذلك الوقت يقطع مدار الكوكب بميل كبير ، وبعد بضعة أيام ستقوم المحركات بكبح جماح السرعة الخارجية للسفينة . وكان التغيير المطلوب فى السرعـة لتحويل مسار الرحلة من

فوبوس إلى ديموس طفيفـــاً ، رغم أن ماكاى استغرق فى حساباته ساعات عديدة .

وكان النقاش فى كل وجبة مقصورا على أمر واحد ، وهو . . خطة كل فرد من الطاقم عند الوصول إلى المريخ . ويمكن بلورة خطة جيبسون فى جملة واحدة.. مشاهدة أكثر ما يمكن رؤيته . قد يكون هناك بعض التفاؤل إذا تصورنا أن المرء يمكنه معرفة كوكب بأكمله فى مدى شهرين رغم تأكيدات برادلى المتكررة بأن يومين على المريخ فيهما أكثر من الكفاية .

أما الإثارة التى صاحبت قرب انتهاء الرحلة، فقد ساعدت على جذب انتباه جيبسون إلى حد ما بعيد عن مشاكله الشخصية . فقد تقابل مع چيمى عدة مرات يوميا خلال وجبات الطعام ، بالإضافة إلى المقابلات العرضية ، إلا أنهما لم يستأنفا حديثهما السابق . وحسب جيبسون لأول وهلة أن چيمى يقصد تحاشيه ، ثم ما لبث أن أدرك خطأ حدسه . كان چيمى مشغولا كبقية الطاقم فى الاستعدادات لنهاية الرحلة . فقد كان نوردن عازما على الهبوط بالسفينة وهى فى حالة جيدة ، ولذا كان العمل قائما على قدم وساق للمراجعة والقيام بالخدمة .

ورغم ذلك النشاط ، كان جزء كبير من أفكار چيمى منصباً على ما أخبره به جيبسون . ففى البداية أحس بمرارة وغضب نحو الرجل الذى كان مسئولا ، ولو دون قصد، عن تعاسة والدته . ولكن بعد حين

بدأ يقدر وجهة نظر جيبسون ويدرك بعضاً من إحساساته . وكان جيمى من الذكاء بحيث خمن أن جيبسون لم يكتم الكثير فقط ، بل بسط قضيته فى مصلحته قدر الإمكان . وعلى كل حال ، لو تغاضينا عن ذلك ، كان من الواضح أن جيبسون مخلص فى ندمه على الماضى ، وكان راغبا فى إصلاح ما يمكن إصلاحه رغم أنه تأخر عن ذلك جيلا .

وكان الإحساس بعودة الوزن شعوراً غريباً ، بالإضافة إلى الاستماع مرة أخرى للهدير القاصى للمحركات حين أبطأت الأريس لتجارى سرعة المريخ البالغة فى الصغر . وقد استغرقت المناورات والتصحيحات الدقيقة النهائية للمسار أكثر من أربع وعشرين ساعة . وحين تم ذلك، كان المريخ يربو على اثنتى عشرة مرة من حجم البـــــدر كما يظهر من الأرض ، فى حين يبدو فوبوس وديموس كنجمين دقيقين يمكن رؤية حركاتهما بوضوح بعد النظر إليهما لبضع دقائق .

ولم يدرك جيبسون قط مقدار احمرار الصحراوات الكبرى، ولكن كلمة (الاحمرار) البسيطة لا تعطى فكرة عن اختلاف اللون فى ذلك القرص الذى يكبر ببطء . فبعض المناطق كانت قريبة من اللون القرمزى وبعضها أصفر بنى ، أما اللون الغالب فقد يكون خير تشبيه له هو رماد الآجر .

وكان الوقت فى نصف الكرة الجنوبى من المريخ فى أواخر الربيع

وقد تضاءلت الطاقية القطبية إلى بضع بقع بيضاء متلألئة ، حيث بقيت الثلوج فى عناد فوق الأرض المرتفعة . أما حزام النباتات العريض الممتد بين القطب والصحراء ، فكان فى معظم أجزائه أخضر باهتاً يميل إلى الزرقة ، ولكن كل ما يمكن تخيله من تفاوت طفيف فى الألوان يمكن العثور عليه فى مكان ما على القرص المرقط .

وكانت الأريس تسبح فى مدار ديموس بسرعة نسبية تقل عن ألف كيلو متر فى الساعة . وكان هذا القمر الدقيق أمام السفينة وقد بدأ يظهر كقرص ينمو بمرور الوقت حتى أصبح يضارع المريخ على بعد بضع مئات من الكيلومترات ، ولكن شتان ما بينهما فى المنظر . فلم يكن هذا غنياً بالألوان الحمراء والخضراء ، بل فوضى قاتمة من خليط مشوش من الصخور والجبال ترتفع نحو النجوم فى جميع الزوايا ، فى ذلك العالم التى لا تزيد قوة جاذبيته كثيراً عن الصفر .

وأخذت الصخور القاسية تقترب ببطء ، وما لبثت أن تجاوزتهم حين كانت الأريس تتحسس طريقها هابطة فى حذر نحو منارة اللاسلكى التى سمعها جيبسون تناديه منذ أيام . وما لبث أن شاهد أولى الدلائل على زيارة الإنسان لهذا العالم المهجور ، فوق أرض تكاد تكون مستوية على بضعة كيلو مترات إلى أسفل . فقد برز من الأرض صفان من الأعمدة الرأسية تحمل بينها شبكة من الأسلاك . وكان هبوط الأريس نحو ديموس غير محسوس به ، وأسكتت الصواريخ الرئيسية منذ وقت

طويل ، حيث لم تجد النفاثات الإضافية الصغيرة أى صعوبة فى السيطرة على الوزن الفعال للسفينة والذى يبلغ بضع مئات من الكيلوجرامات .

وكان من المحال الإحساس بلحظة انتهاء الهبوط ، وكل ما فى الأمر أن السكوت الفجائى حين أغلقت النفاثات أكد لجيبسون انتهاء الرحلة وأن الأريس تستريح الآن فى المهد المعد لها . وكان لايزال بالطبع على مسافة عشرين ألف كيلو متر من المريخ . ولن يصل إلى الكوكب نفسه قبل انقضاء يوم آخر ، فى أحد الصواريخ الصغيرة التى بدأت تصعد لمقابلتهم . ولكن انتهت الرحلة بالنسبة للأريس .

وسرعان ما تنساه تلك القمرة الصغيرة التى كانت موطنا له عدة أسابيع .

وغادر منصة الرصد ، ثم هرع صاعداً إلى غرفة القيادة التى تحاشاها عن عمد خلال الساعات الأخيرة الحافلة بالعمل . ولم تعد الحركة داخل الأريس بالسهولة التى كانت عليها ، لأن مجال الجاذبية الضئيل على ديموس يكاد يكون كافياً لأن يؤدى إلى اضطراب حركاته الغريزية ، ولذا كان عليه أن يأخذ ذلك فى الاعتبار . وأخذ يعجب من كنه الإحساس مرة أخرى بمجال حقيقى للجاذبية . لقد كان من الصعب أن يصدق أنه منذ ثلاثة أشهر فقط ، بدت له فكرة انعدام الجاذبية غاية فى الغرابة وعدم الاستقرار ، مع أنه الآن صار يعتبرها شيئاً عادياً . كم كان جسم الإنسان قابلا للتكيف !

وكان جميع أفراد الطاقم جالسين حول منضدة الخرائط فى اختيال ، راضين عن أنفسهم .

وقال نوردن فى مرح : لقد جئت يا مارتن فى الوقت المناسب ، فسنقوم باحتفال صغير . إذهب وأحضر آلة تصويرك كى تلتقط صورنا بينما نشرب نخب صحة هذا القفص القديم .

فأجاب جيبسون يحذرهم : لا تشربوا كل شىء قبل أن أعود . . ثم غادر المكان باحثا عن آلته (لايكا) ، وحينما رجع كان الدكتور سكوت يحاول القيام بتجربة مثيرة .

كان يقول متذمراً : لقد عيل صبرى من دفع الجعة إلى فمى عن طريق الحقنة ، وأريد أن أصبها فى كأس بالطريقة المناسبة مادامت الفرصة قد واتتنا . لنر كم من الوقت يستغرق ذلك .

وأجابه ماكاى محذراً : « إنها ستصبح مفرطحة قبل وصولها . دعنى أر . . قيمة عجلة الجاذبية حوالى نصف سنتيمتر لمربع الثانية ، وأنت تصب من ارتفاع قدره .. »

ثم انسحب إلى حجرة مكتب بنية اللون .

ولكن التجربة كانت سائرة فى طريقها ، وكان سكوت ممسكا بعلبة الجعة المثقوبة على ارتفاع قدم تقريباً فوق كأسه .. ولأول مرة منذ ثلاثة أشهر أصبح لكلمة (فوق) معنى ملموس حتى ولو كان ضئيلا . لأن

السائل العنبرى انبثق من العلبة ، فى بطء يصعب تصديقه . . بطئ إلى درجة أن المرء قد يحسبه شراباً غليظا . وأخذ عمود رفيع فى الامتداد إلى أسفل ، متحركا فى البداية حركة غير مدركة ، ثم تسارع بعد ذلك فى بطء . وبدا كأنما انقضى دهر قبل أن يصل إلى الكأس ، ثم انطلق هتاف صاخب حين لمس القاع وبدأ سطح السائل يزحف مرتفعاً فيه .

وسمع صوت ماكاى فوق الضوضاء وهو يعلن : .. نتيجة الحسابات تبين أنها تستغرق مائة وعشرين ثانية لتصل إلى الكأس .

فرد عليه سكوت قائلا : إذن يجدر بك أن تعيد الحسابات . إن تقديرك معناه دقيقتان ، فى حين وصلت الجعة قبل ذلك .

— ماذا ؟ .. قالها ماكاى فى فزع ، ومن الواضح أنه أدرك لأول مرة انتهاء التجربة . فقام بمراجعة حساباته سريعاً ثم انفرجت أساريره فجأة حينما اكتشف أن علامة عشرية فى غير موضعها ، وقال : كم كنت أحمق ! لم أكن يوما ما بارعا فى الحسابات العقلية . لقد قصدت اثنتى عشرة ثانية بالطبع .

وقال شخص ما فى دهشة بالغة : وهذا هو الرجل الذى قادنا إلى المريخ ! إننى سأعود إلى الأرض سيراً على الأقدام .

ولم يشعر أحد بالميل لإعادة تجربة سكوت التى كانت رغم طرافتها، غير ذات أهمية عملية ، وسرعان ما أخذت كميات كبيرة من الجعة تندفع

من الحقن بالطريقة (العادية) وبدأ المرح يتزايد بين الجماعة . وسرد الدكتور سكوت الملحمة الكاملة لطرق الفضاء ـ وكان عملا عظيما يعتمد على الذاكرة ـ نادرا ما يصادفها الركاب الذين يدفعون الأجر، والتي تبدأ هكذا « لقد كانت سفينة الفضاء فينوس » .

وتابع جيبسون بعض الوقت مغامرات هذه السفينة ذات الاسم المناسب تماما ، وأفراد طاقمها الذين يتصفون بالمهارة وسلامة النية . ثم بدأ الجو يصبح ثقيلا على نفسه ، فغادر الحجرة ليستعيد نشاط ذهنه . وبدون وعي تقريباً ، شق طريقه عائداً إلى مكان التأمل المفضل لديه على منصة الرصد .

وكان عليه أن يتشبث فى مكانه حتى لاتزحزحه قوة جذب ديموس التى وإن كانت صغيرة إلا أنها تعمل فى إصرار . وأمامه مباشرة ، كان المريخ أكبر من نصف بدر يتزايد ببطء . وهناك قد تكون الاستعدادات جارية للترحيب بهم ، وحتى فى هذه اللحظة قد تكون الصواريخ الصغيرة صاعدة غير مرئية كى تهبط بهم إلى المريخ . وعلى مسافة أربعة عشر كيلو مترا إلى أسفل ، ولكن مع ذلك على بعد ستة آلاف كيلو متر فوق المريخ ، كان فوبوس يعبر الوجه المظلم للكوكب ويلمع فى بهاء على هلال المريخ الذى يطغى على النجوم . وتساءل جيبسون دون تحمس عما كان يحدث فى هذا القمر الصغير . حسنا ، سوف يعرف ذلك حالا . وفى نفس الوقت سيصقل معلوماته عن تضاريس الكوكب

من الجو . دعنا نر . . هناك (سينوس مريديانى) ثنائى التشعب (فى موضع ملائم جداً ، على خط الاستواء بالضبط وعند خط طول الصفر) وإلى الشرق منه نجد (سيرتس ميجور) ومن هاتين العلامتين الواضحتين يمكنه أن يملأ بقية التفاصيل الدقيقة . وكان (مرجريتيفير) جيد الوضوح فى ذلك اليوم ، ولكن كثيرا من السحب كانت تظلل (اكسانت)و..

— مستر جيبسون !

وتلفت حوله فى فزع ثم قال :

— لماذا ، چيمى .. لقد تناولت أنت أيضاً مافيه الكفاية .

وكان چيمى يبدو متورد الوجه ، ساخنه .. ومن الواضح أنه أيضا كان يبحث عن الهواء الطلق . وترنح قليلا فى مقعد الرصد ثم أخذ يحدق هنيهة فى المريخ وهو صامت كما لو لم يره قط من قبل . ثم هز رأسه فى استهجان ، وقال دون أن يوجه الحديث إلى شخص معين: إنه ضخم بشكل مخيف .

واعترض جيبسون قائلا : إنه ليس فى ضخامة الأرض ، وفضلا عن ذلك ، لا يوجد أى معنى لانتقاداتك مالم تحدد المعايير التى تتخذها أساسا . وعلى كل حال ، ماهو بالضبط الحجم الذى ترى أن يكون عليه المريخ .

ومن الواضح أن چيمى لم يكن قد فكر فى ذلك ، فأخذ يتروى فى

الأمر بعض الوقت، ثم أجاب فى اكتئاب: لست أدرى، ولكنه مازال ضخما . كل شىء كبير للغاية .

وقرر جيبسون أن هذا الحديث لن يؤدى إلى نتيجة ، وكان عليه أن يغير الموضوع فسأله : ماذا ستفعل حين تهبط إلى المريخ ؟ إن أمامك شهرين تتصرف فيهما كيف تشاء قبل عودة الأريس إلى الوطن .

— حسنا ، أعتقد أنى سأتجول حول (بورت لويل) ، وأنطلق لمشاهدة الصحراوات . وأود القيام ببعض الاستكشافات ما استطعت إلى ذلك سبيلا .

ورأى جيبسون أن هذه فكرة ممتعة جدا ، ولكنه كان يدرك أن استكشاف المريخ على نطاق مفيد لم يكن أمرا سهلا ، وهو يحتاج إلى كثير من المعدات إلى جانب مرشدين ذوى خبرة . ولم يكن محتملا أن ينضم جيمى إلى إحدى الجماعات العلمية التى تغادر مقراتها من حين لآخر ، فقال إن عندى فكرة. فمن المفروض أن يأخذونى لمشاهدة ما أريد، وقد يمكننى تنظيم بعض الرحلات إلى (هيلاسى) أو (هسبريا) حيث لم يذهب أحد حتى الآن . أترغب فى المجىء ؟ قد نقابل بعضا من أهل المريخ !

وكانت هذه بالطبع ، الفكاهة المتداولة عن المريخ منذ أن عادت أولى السفن بالأنباء المخيبة للآمال ، وهى عدم وجود سكان فى المريخ .

وكان عدد من الناس لايزال يأمل ـ رغم كل الدلائل ـ فى احتمال وجود حياة متقدمة فى مكان ما من المناطق الكثيرة التى لم تستكشف فى الكوكب .

وأجاب چيمى : نعم ، قد تكون هذه فكرة راجحة . ومهما يكن ، لايمكن لأحد أن يمنعنى . . سيكون وقتى ملكا لى فور وصولنا إلى المريخ ، هكذا ينص التعاقد .

وقد ذكر ذلك فى لهجة تحد ، كما لو كان يريد تأكيده لأى ضباط عظام قد يصيخون السمع ، ورأى جيبسون أنه من الخير أن يلوذ بالصمت .

وساد الصمت لبضع دقائق ، ثم بدأ چيمى ينساب خارج مرفأ الرصد منزلقا أسفل الجدران المائلة فى السفينة . وتلقفه جيبسون قبل أن يبتعد كثيرا ، ثم ثبت ماسكين من المطاط فى ثيابه .. على أساس أن چيمى يمكنه النوم هنا مستريحا كما ينام فى أى مكان آخر . فمن المؤكد أنه كان مجهداً إلى درجة أنه لا يستطيع حمله إلى سريره .

وتساءل جيبسون : أحقيقة أننا نبدو على طبيعتنا حين ننام ؟ كان چيمى يبدو الآن مسالما راضياً وهو فى استرخائه التام .. رغم أن الضوء الأحمر المنبعث من الكوكب الهائل قد يكون مضفيا عليه مظهر المتسم بالرفاهية . وتمنى جيبسون ألا يكون كل ذلك وهما . فالحقيقة الكائنة بأن چيمى بحث عنه أخيراً بملء حريته ، كانت ذات مغزى كبير . حقا

لم يكن چيمى متمالكاً نفسه تماما وقد ينسى الحادث بأكمله فى الصباح ، ولكن جيبسون لم يكن يعتقد ذلك . لقد قرر چيمى ، ربما دون وعى، أن يمنحه فرصة أخرى .

لقد كان تحت الاختبار .

واستيقظ جيبسون فى اليوم التالى وهو يحس بأبشع طنين جهنمى فى أذنيه. وخيل إليه أن الأريس تتحطم متناثرة حوله ، فارتدى ثيابه فى عجلة ثم أسرع خارجا إلى الردهة . وكان أول من صادفه هو ماكاى الذى لم يتريث كى يفسر ما حدث ، بل اندفع بجواره وهو يصيح : الصواريخ هنا ! وستهبط أولاها بعد ساعتين . . يجدر بك أن تسرع ، إذ المفروض أن تدركها .

وحك جيبسون رأسه فى خجل ثم تمتم قائلا : كان من الواجب أن يخبرنى أحدهم بذلك .. ثم تذكر أنهم أبلغوه فعلا ، وإذن فاللوم واقع عليه هو . وهرع عائداً إلى قمرته ثم بدأ يرمى حاجاته فى حقائب . وكانت الأريس تهتز حوله بوضوح من وقت لآخر ، وقد تساءل عن السبب فى ذلك .

وكان نوردن متضايقا حين قابله عند المغلاق الهوائى، كما كان الدكتور سكوت فى صحبته مرتديا ثيابه استعداداً للرحيل ، ويحمل صندوقا معدنياً ضخما فى احتراس شديد .

وقال نوردن : أتمنى لكما رحلة طيبة . سنراكما بعد حوالى يومين

حين ننتهى من تفريغ الحمولة . وحتى ذلك الوقت . . أوه ، لقد كدت أنسى ! المفروض أن أعطيك هذا لتوقع فيه بإمضائك .

فسأله جيبسون فى ريبة : ماهذا ؟ إننى لا أوقع أى شىء على الإطلاق قبل أن يصدق عليه وكيل أعمالى .

فضحك نوردن وقال : اقرأه لتعرف ماهو ، إنها وثيقة تاريخية . وكان الرق الذى سلمه إليه نوردن يحمل هذه الكلمات .

« هذه شهادة بأن مارتن م . جيبسون المؤلف كان أول راكب يسافر فى الأريس ، التابعة للأرض ، فى رحلتها العذرية من الأرض إلى المريخ » .

وأعقب ذلك التاريخ ، ثم فراغ لتوقيعات جيبسون وباقى أفراد الفريق « الطاقم » .

ووقع جيبسون بإمضائه ثم قال : أعتقد أن هذا سيحفظ فى متحف الملاحة الفلكية ، حين يقررون أين يتم بناؤه .

وقال سكوت : وكذلك الأريس على ما أعتقد .

فاعترض نوردن قائلا : هذا شىء جميل تقوله عنها فى نهاية رحلتها الأولى ، ولكن أظنك على صواب . حسنا ، يجب أن أذهب . إن بقية الأفراد فى الخارج مرتدون حللهم .. نادهم عند مرورك بهم . إلى اللقاء فى المريخ !

وللمرة الثانية دخل جيبسون فى حلة الفضاء ، وقد أحس الآن أنه ذو خبرة فى ذلك .

وقال سكوت شارحا: أنت تعلم بطبيعة الحال أنه بعد التنظيم المناسب للخدمة ، سينتقل الركاب إلى المعبر خلال أنبوبة تصل السفينة بالصاروخ وهذا سيوفر كل ذلك المجهود .

— سيفوتهم كثير من المتعة . . قال جيبسون ذلك وهو يفحص المقاييس الموجودة على اللوحة الصغيرة أسفل ذقنه فى عجلة .

وفتح الباب الخارجى أمامهم ، وأخذوا يندفعون فى بطء عبر سطح ديموس وكانت الأريس تبدو ، وهى مرتكزة فى المهد المكون من الحبال (والذى لابد وأنه أقيم فى عجلة خلال الأسبوع السابق) ، كأنما تعمل فى إصلاحها فرقة من عمال الإنقاذ ، وأدرك جيبسون الآن سر الطرقات والهبدات التى أيقظته . وكان معظم غلاف نصف الكرة الجنوبى قد أزيل للوصول إلى جوف السفينة ، وكان أفراد الفريق « الطاقم » فى حلل الفضاء المرقمة يخرجون الحمولة ويكومونها على الصخور حول السفينة . وفكر جيبسون فى أن هذه العملية تجرى كيفما اتفق ، وتمنى ألا يدفع أحدهم أمتعته عرضا فيقذف بها إلى الفضاء دون رجعة لتصبح تابعاً ثالثاً صغيراً للمريخ .

وعلى مسافة خمسين مترا من الأريس يرقد الصاروخان المجنحان اللذان وصلا ليلا من المريخ ، يبدوان كقزمين إلى جانب ضخامتهما .

وكان أحدهما يستقبل البضائع فى داخله ، بينما كان واضحا أن الآخر ، وهو أصغرهما ، مهيأ لاستقبال الركاب فقط . وبينما كان جيبسون يتبع سكوت فى الطريق إليه ببطء وحذر ، حول جهازه إلى الموجة العامة وهتف مودعا رفاقه . وجاءت ردودهم سريعاً يشوبها الحسد ، ويتخللها كثير من النفث واللهث .. فرغم أن الأثقال التى ينقلونها تكاد تكون عديمة الوزن ، إلا أنها استنفدت قواهم الطبيعية ، ولذا كان من الصعب نقلها كما لو كانت فى الأرض .

وجاء صوت برادلى صائحا : حقا ! دعنا هنا نقم بالعمل كله .

وأجاب جيبسون ضاحكا : فى حالتكم يوجد عزاء واحد ، فلا بد أنكم أعلى عمال الشحن والتفريغ أجرا فى المجموعة الشمسية ! . . وكان يشارك برادلى فى وجهة نظره ، فليس هذا بنوع العمل الذى تعاقد عليه خبراء الأريس . ولكن التحويل الغامض للسفينة من مرفأ فوبوس ، الذى وإن كان صغيرا ، إلا أنه مزود بالاستعـــدادات ، حتم هذه الأعمال الارتجالية .

لا يمكن للمرء أن يودع كل فرد على حدة خلال إذاعة عامة ينصت إليها ما يقرب من نصف دستة ؛ وعلى كل حال سيراهم جيبسون جميعاً خلال بضعة أيام ، كان يرغب فى تبادل بضع كلمات أخرى مع چيمى ، ولكن عليه أن يرجىء ذلك .

وكان رؤية وجه آدمى جديد مرة أخرى ، تجربة غريبة . فقد جاء

قائد الصاروخ إلى المغلاق الهوائى ، كى يساعدهم وهم مرتدون حللهم التى ألقيت بلطف على ديموس للاستفادة منها مستقبلا ، وذلك بفتح الباب مرة أخرى ، وبكل بساطة يقوم تيار الهواء ببقية المهمة . ثم قادهم إلى القمرة الصغيرة وطلب منهم الاسترخاء فى المقاعد ذات الوسائد ، ثم قال : بما أنكم لم تتعرضوا لأى جاذبية مدة شهرين ، فسأهبط بكم بقدر ما أستطيع من تؤدة . لن أزيد الجاذبية عن قيمتها الطبيعية فى الأرض . وحتى ذلك سيشعر كل منكم أنه يزن طنا . أمستعدون ؟

فأجاب جيبسون بالإيجاب وهو يحاول فى بسالة نسيان تجربته الأخيرة فى هذا المضمار .

وانبعث هدير رقيق على بعد ، وأحس بشىء يضغطه بقوة فى أعماق مقعده . وأخذت صخور وجبال ديموس تهبط سريعاً وراءهم ، ثم ألقى نظرة أخيرة على الأريس وكانت تبدو كازدواج فضى يلمع بين الصخور الشامخة المفزعة .

واستغرقت قوة الدفع ثانية واحدة لتحررهم من قبضة القمر الصغير وكانوا الآن يسبحون حول المريخ فى مسار حر . وأخذ القائد يتفحص أجهزته لعدة دقائق ، مستقبلا إشارات الضبط من الكوكب وأخذ يؤرجح السفينة حول (جيروسكوبها) . ثم ضغط مفتاح الإطلاق مرة ثانية فهدرت الصواريخ بضع ثوان أخرى . وبذلك انفصلت السفينة عن مدارها حول ديموس وأخذت تندفع نحو المريخ . وكانت العملية

بأكملها نسخة مصغرة طبق الأصل من رحلة حقيقية بين الكواكب ، ولم يتغير فيها سوى التوقيت وفترات التشغيل ، فقد كانت أمامهم ثلاث ساعات ـ لا شهور ـ للوصول إلى هدفهم ، كما كان عليهم السفر آلافاً فقط بدلا من ملايين الكيلومترات .

وأغلق القائد أجهزة التحكم ثم استدار إليهما في مقعده قائلا : حسنا هل كانت الرحلة طيبة ؟

فأجاب جيبسون : ممتعة جدا ، شكرا لك . وبالطبع لم يكن هناك كثير من المثيرات ، وكل شيء سار على مايرام .

وسأل سكوت : كيف الأحوال في المريخ هذه الأيام ؟

— أوه ، عادية . عمل متواصل وقليل من اللهو . وأهم شيء في الوقت الحالى هي القبة الجديدة التي نقيمها في (لويل) . يبلغ اتساعها ثلاثمائة متر .. ستظن نفسك هناك في الأرض . ونحن نتساءل عما إذا كنا نستطيع تزويد داخلها بالسحب والأمطار ؟

وسأل جيبسون وهو يتشمم الأخبار : ما كنه الأمر الخاص بفوبوس ؟ لقد سبب لنا كثيراً من المتاعب !

— أوه ، لا أظنه شيئاً هاما . لا أحد يدرى حقيقة الأمر ، ولكن هناك عددا كبيرا من الناس يقيمون معملا ضخما في هذا القمر . وفى اعتقادى أن فوبوس سيصبح محطة للبحوث فقط ، ولذا لا يرغبون في

مجىء السفن وذهابها حتى لا تربك أجهزتهم بكل أنواع الإشعاعات المعروفة علميا .

وأحس جيبسون بخيبة أمل لانهيار عدة نظريات ممتعة . ولو أنه لم يكن موجها كل اهتمامه للكوكب الذى يدنو منهم ، فلربما خمن بعض بعض الشىء فى هذا التفسير ، ولكنه اقتنع به فى الوقت الحاضر ولم يعر الأمر بعد ذلك أى تفكير .

وحين تبين أن المريخ ليس فى عجلة للاقتراب منهم ، قرر جيبسون أن يتعلم قدر ما يستطيع كل التفاصيل العملية عن الحياة على الكوكب خاصة وقد وجد بين يديه مستعمراً حقيقيا ليلقى عليه أسئلته . وقد اعتراه الفزع من أن يجعل نفسه أضحوكة ، إما بإظهار الجهل أو عدم الكياسة وخلال الساعتين التاليتين كان القائد مشغولا بين جيبسون وبين أجهزته .

وحين أصبح المريخ على بعد يقل عن ألف كيلومتر، أطلق جيبسون سراح ضحيته ووجه كل انتباهه إلى المنظر الذى يتمدد تحته . وكانوا يمرون فى سرعة فوق خط الاستواء داخلين فى الأطراف الخارجية لجو الكوكب البالغ فى العمق ومع ذلك رقيق للغاية .
وسرعان ما تغير المريخ من كوكب يسبح فى الفضاء إلى أرض منبسطة على بعد كبير أسفلهم ، وكان مستحيلا تحديد لحظة هذا التبدل وأخذت الصحراوات والواحات تتسابق تحتهم ، ومر (سيرتوس ميجور)

قبل أن تتاح لجيبسون فرصة التعرف عليه . وكانوا على ارتفاع خمسين كيلومترا حين ظهرت أولى الدلائل على تكثف الهواء حولهم ، فقد ملأت القمرة تنهدة خافتة نائية تبدو آتية من المجهول . فقد كان الهواء الرقيق يجذب قذيفتهم المارقة بأصابع واهنة ، ولكن لن تلبث قوته أن تزداد بسرعة .. بسرعة كبيرة ، لو حدث أى خطأ فى ملاحتهم . وأمكن لجيبسون أن يشعر بتخفيض سرعة السفينة ، وكان صفير الهواء فى تلك اللحظة مرتفعا إلى درجة نفاذه خلال الجدران العازلة حتى صار تبادل الحديث العادى أمراً شاقاً .

ويبدو أن ذلك قد استمر لفترة طويلة ، رغم أنها قد لا تزيد على بضع دقائق ، وأخيراً همد عويل الرياح فى بطء . فقد تخلص الصاروخ من كل زيادة فى سرعته ضد مقاومة الهواء ، وسرعان ما ستبدأ مادة رأسه المنعطفة وأجنحته الشبيهة بالسكين تبرد من اللون الأحمر الفاتح .

ولم تعد السفينة الصغيرة الآن سفينة فضاء ، بل طائرة سريعة دون محركات ، وقد أخذت تمرق عبر الصحراء بسرعة تقـــل عن ألف كيلومتر فى الساعة ، متتبعة شعاع اللاسلكى إلى (بورت لويل) .

ولمح جيبسون القاعدة لأول مرة ، كشريط رفيع أبيض عند الأفق ، ووراءها منطقة (أورورا سينوس) المظلمة . وأدار القائد السفينة نحو الجنوب فى مسار طويل منحن هابطا إلى ارتفاع منخفض ، وعاملا على التخلص من السرعة الزائدة . وعندما انحدر الصاروخ ، شاهد جيبسون لفترة وجيزة

صورة لنصف « دستة » من القباب الدائرية الضخمة المتقاربة . وبدأت الأرض تندفع صاعدة لمقابلته ، وأعقب ذلك سلسلة من الهزات الخفيفة ثم أخذ دوران الآلة فى الخفوت حتى سكنت .

لقد أصبح فى المريخ ، ووصل إلى ما كان ينظر إليه القدماء كضوء أحمر يتحرك بين النجوم .. إلى ما كان يعتبره الناس منذ قرن مضى ، عالما غامضاً بعيد المنال ، والذى أصبح الآن قاعـــدة أمامية للجنس البشرى .

وقال القائد : هناك لجنة استقبال ضخمة فى انتظارنا ، فأسطول النقل بأكمله جاء لمشاهدتنا . لم أكن أظن أنهم يمتلكون كل هذا العدد من المركبات الصالحة للخدمة .

وتسابقت لاستقبالهم آلتان صغيرتان ضيقتان ذات إطارات بالونية عريضة ، ولكل منهما مركبة مزودة بالضغط تتسع لشخصين ، ولكن تمكن اثنا عشر راكبا من التزاحم على المركبتين الصغيرتين بأن تشبث كل منهم بمقبض مريح . وجاء خلفهم سيارتا أتوبيس كبيرتان نصفا مقطورتين مزدحمتان أيضاً بالمشاهدين. ولم يكن جيبسون يتوقع كل هذا الحشد ، وبدأ يعد خطبة قصيرة .

وجاء القائد بقناعى تنفس ، ثم قال : لا أظن أنكما تعرفان طريقة استخدام هذه الأشياء بعد ، ولكن ما عليكما إلا أن تلبساها لدقيقة واحدة عند انتقالكما إلى البراغيث . (وتساءل جيبسون فى نفسه إلى

ماذا ؟ .. أوه ، بالطبع . إن هــــذه المركبات الصغيرة هى « براغيث الصحراء » المريخية الشهيرة ، المواصلات العالمية فى الـكوكب) . سأثبتها لـكما . الأكسجين مضبوط ؟ نعم .. هاهى ذى . قد تحسون بغرابتها فى بادى الأمر .

وبدأ الهواء يصفر ببطء خارجا من القمرة حتى صار الضغط داخلها مساويا لخارجها . وأحس جيبسون بتخدير غير مريح يسرى فى جلده المعرض للهواء ، فقد كان الجو المحيط به حينئذ أرق من نظيره عند قمــة جبل (إفرست) . لقــد تعرض فى الأريس إلى تأقلم بطىء لمدة ثلاثة أشهر بالإضافة إلى كل مصادر العلوم الطبية الحـديثة ، حتى أصبح فى إمكانه الخروج إلى سطح المريخ ، دون أى وقاية سوى قناع بسيط للأكسجين .

وكان فى مجىء هذا العــــدد الـكبير لمقابلته ، إطراء وتـكريم . وبطبيعة الحال ، لم يكن المريخ يستقبل مثل هذا الزائر المرموق فى أغلب الأحيان ، ولـكنه يعلم أن تلك المستعمرة الصغيرة المشغولة لم يكن لديها وقت للاحتفالات .

وخرج الدكتور سكوت إلى جانبه وهو ما زال يحمل الصندوق المعدنى الـكبير الذى اعتز به فى حرص شديد طوال الرحلة . وعند ظهوره، اندفع إليه عدد من المستعمرين والتفوا حولهمتجاهلين تماماوجود

جيبسون . وأمكن لجيبسون أن يسمع أصواتهم ، وقد شوهتها خفة الهواء فبدت غير مفهومة .

— يسعدنا رؤيتك ثانيا يادكتور ! هنا .. دعنا نحمله !

— لقد أعددنا كل شيء ، وهناك عشر حالات تنتظر الآن فى المستشفى ، وسنعرف مدى صلاحيته فى ظرف أسبوع .

— هيا بنا .. استقلوا الأتوبيس وتحدثوا فيما بعد !

وقبل أن يدرك جيبسون ماحدث، كان سكوت وحمله قد اكتسحا بعيدا . وأعقب ذلك عويل حاد لمحرك قوى ، ثم انطلقت السيارة نحو (بورت لويل) تاركة جيبسون غارقا فى إحساس من الحماقة لم يشعر به قط طوال حياته .

لقد نسى تماما كل شيء عن هذا المصل الذى كان وصوله ذا أهمية كبرى ـ بالنسبة المريخ ـ من زيارة أى قصصى مهما تكن شهرته فى كوكبه الأصلى . لقد كان درسا لن ينساه سريعاً .

ومن حسن حظه ، لم يكن الجميع قد هجروه . . فما زالت براغيث الصحراء باقية . وهبط أحد الركاب ، ثم هرع نحوه قائلا : مستر جيبسون ؟ إننى وسترمان من جريدة التايمز .. أقصد (تايمز المريخ) . يسعدنى مقابلتك . إن هذا هو ..

وقاطعه رجل طويل القامة منمش الوجه ، وهو متضايق من سبقه

له : هندسون ، المسئول عن وسائل الراحة فى المرفأ . سأشرف على جمع أمتعتك ، هيا اصعد .

وكان من الواضح أن وسترمان يفضل أن ينفرد بجيبسون، ولـكنه اضطر إلى الإذعانعن طيب خاطر. واستقلجيبسون برغوث هندرسون خلال الحقيبة المرنة المصنوعة من البلاستيك ، والتى كانت بمثابة مغلاق هوائى بسيط ـ ولـكنه فعال ـ للمركبة ، ولحق به الآخر فى « كابينة » القيادة بعد دقيقة . وأحس بالراحة للتخلص من قناع التنفس، إذ أصابته الدقائق القليلة التى أمضاها فى الخارج بالإجهاد . وشعر أيضاً بثقل فى جسمه مع بطء فى الحركة ، وهى أعراض على طرف نقيض مما يتوقعه المرء عند وصوله إلى المريخ . ولـكنه عاش ثلاثة أشهر بعيداً عن أى جاذبية ، ولذا سيستغرق بعض الوقت فى التعود حتى على ثلث وزنه فى الأرض .

وأخذت المركبة تسابق الريح عبر رقعة الهبوط متجهة إلى قباب المرفأ على بعد كيلومترين . ولاحظ جيبسون لأول مرة أنه محاط من كل جانب بالخضرة المتألقة المبرقشة للنباتات الصلبة التى كانت المظهر الشائع للحياة فى المريخ . ولم تعد السماء فوقه حالـكة السواد ، بل يطغى عليها اللون الأزرق القاتم الرائع . ولم تـكن الشمس بعيدة عن سمت الرأس ، وكانت أشعتها تبعث دفئا عجيبا خلال قبة الـكابينة المصنوعة من البلاستيك .

وتطلع جيبسون إلى القبة المظلمة محاولا تحديد مكان القمر الصغير الذى ما زال رفاقه يعملون فيه . ولاحظ هندرسون نظرته ، وأبعد إحدى يديه عن عجلة القيادة ، ثم أشار إلى مكان قريب من الشمس وقال :
ها هوذا .

وستر جيبسون عينيه محملقا فى السماء ، فشاهد نجما لامعاً ينحرف عن الشمس قليلا ناحية الغرب ومعلقا فى القبة الزرقاء كقوس كهربية بعيدة . وكان صغير الحجم جدا حتى بالنسبة لديموس ، ولكن انقضت برهة قبل أن يدرك جيبسون أن زميله أخطأ فى فهم غرضه .

فهذا الضوء الثابت غير المتلألىء ، الذى يتقد فى ضوء النهار على غير انتظار ، هو الآن ، وسيبقى عدة أسابيع ، نجم الصباح فى المريخ . . أما اسم الشهرة فهو الأرض .

قال المحافظ هويتاكر : آسف لإبقائك فى الانتظار ، ولكنك تعرف الأمور .. فقد كان الرئيس فى اجتماع خلال الساعة الأخيرة . لقد ظفرت بمقابلته منذ برهة لأخطره بوصولك . من هذا الطريق .. سنسلك طريقا مختصرا خلال (ريكوردز) .

قد تكون غرفة مكتب عادية فى الأرض ، وعلى الباب توجد لافتة بسيطة تقول : « الرئيس الإدارى » . لم يكن هناك أى اسم ، إذ أنه لاضرورة له . فكل شخص فى المجموعة الشمسية يعلم من الذى يدير المريخ . حقا ، كان من الصعب أن يفكر الإنسان فى الكوكب ، دون أن يخطر بباله فى نفس الوقت وارين هادفيلد .

ودهش جيبسون حين قام الرئيس الإدارى من مكتبه ، إذ رآه أقصر كثيراً مما كان يتخيل. لابد أنه حكم على الرجل من أعماله، ولم يعتقد قط أنه قد يزيد بوصتين فى طول الرجل . ولكن الهيكل الرفيع القوى والرأس الحساس القريب الشبه من رأس الطير ، كانا كما توقع تماما .

وحين بدأت المقابلة ، لزم جيبسون جانب الدفاع ، إذ أن الكثير يتوقف على حسن التأثير . فاستمالة الرئيس إلى جانبه يمهد طريقه إلى حد بعيد . وفى الحقيقة ، إذا أثار عداوة هادفيلد لكان عليه كذلك أن يعود إلى الوطن فى الحال .

وقال الرئيس بعد تبادل المجاملات : أتمنى أن يكون هويتا كر مهتما بأمرك . أنت تدرك أننى لم أتمكن من رؤيتك من قبل ، فقد عدت الآن من جولة تفتيشية . كيف تطيب لك الإقامة هنا .

فابتسم جيبسون وأجاب قائلا : عظيم ! أخشى أننى كسرت بضعة أشياء حين تركتها فى وسط الهواء ، ولكننى آخذ فى تعود الحياة مرة ثانية فى وجود الجاذبية .

— وما رأيك فى مدينتنا الصغيرة ؟

— عمل عظيم . لست أدرى كيف أنجزت كل ذلك فى هـــذا الوقت .

ورمقه هادفيلد بنظرة ضيق قائلا : كن فى غاية الصراحة . إنها أصغر مما كنت تتوقع . أليس كذلك ؟

وتردد جيبسون قبل أن يجيب : حسناً ، أعتقد أنها كذلك . . ولكنى من جهة أخرى ، تعودت على مقاييس لندن ونيويورك . وفضلا عن ذلك ، اجتماع ألفى شخص فى الأرض يكون قرية كبيرة . وهذا أيضا كثير بالنسبة لسكنى تحت الأرض فى بورت لويل ، وذلك وجه الاختلاف .

ولم يبد على الرئيس الإدارى ضيق ولا دهشة ، ثم رد قائلا: يصاب كل شخص بخيبة أمل حين يشاهد أكبر مدن المريخ . ومع ذلك

سيزداد حجمها كثيرا فى خلال أسبوع بعد إقامة القبة الجديدة . خبرنى ما هى مشروعاتك الآن بعد مجيئك ؟ أظنك تعلم أننى لم أكن أحبذ هذه الزيارة بادىء ذى بدء .

وبغت جيبسون . لقد كان عليه أن يكتشف أن الصراحة هى إحدى الخصال الكبرى للرئيس الإدارى ، ولم تكن شيئا يحبب فيه الناس . ورد عليه قائلا : لقد استنتجت ذلك وأنا فى الأرض . أعتقد أنك كنت تخشى أن أكون عقبة فى الطريق .

— نعم.ولكن بما أنك هنا الآن، فسنبذل مافى جهدنا لمساعدتك وأتمنى أن تقوم بنفس الشىء من جانبك .

وسأل جيبسون وقد توترت أعصابه فى حالة دفاعية : بأية كيفية ؟

ومال هادفيلد على المنضدة ثم شبك يديه فى شدة وقال : نحن فى حالة حرب يامستر جيبسون . نحن فى حرب مع المريخ وكل القوى التى يمكنه تعبئتها ضدنا .. البرد ، ونقص المياه وقلة الهواء . ونحن فى حالة حرب مع الأرض . حقا ، هى حرب على الورق، ولكن لها انتصاراتها وهزائمها ، إننى أحارب حملة فى طرف خط التموين على بعد لايقل عن خمسين مليونا من الكيلومترات . وتستغرق التموينات الضرورية الهامة ما لايقل عن خمسة أشهر فى الوصول إلينا . . وأحصل عليها فقط إذا

قررت الأرض عـــــدم وجود طريق آخر أمامى لأسلكه .

أعتقد أنك تدرك ما أحارب من أجله .. أقصد هدفى الأساسى ؟ إنه الاكتفاء الذاتى . تذكر أن الحملات الأولى اضطرت إلى إحضار كل شىء معها . حسنا ! يمكننا الآن أن نعد كل ضروريات الحياة الأساسية من مصادرنا الخاصة ، ويمكن لمصانعنا أن تعمل أى شىء إذا كان غير معقد، لكن المسألة كلها هى مشكلة القوى العاملة. هناك بعض البضائع الخاصة لا بد من صنعها فى الأرض ، ولا حيلة لنا فى ذلك حتى يزداد تعدادنا إلى عشرة أمثاله . كل شخص فى المريخ خبير فى شىء ما ، لكن هناك من الحرف الفنية فى الأرض أكثر من عدد الأشخاص فى هذا الكوكب ، ولا فائدة من المجادلة بالأرقام .

أترى تلك الرسومات البيانية هناك ؟ لقـــــد بدأتها منذ خمس سنوات ، وهى تبين إنتاجنا لعدة مواد رئيسية . لقد وصلنا إلى مستوى الاكتفاء الذاتى ـ هذا الخط الأفقى الأحمر ـ لحوالى نصف هذه المواد . وأعنى أننا فى خلال خمس سنوات أخرى لن نستورد من الأرض سوى النزر اليسير منها . وحتى فى الوقت الحاضر ، أهم ما نحتاج إليه هو القوى العاملة ، وهنا قد يمكنك مساعدتنا .

وبدا على جيبسون شىء من الضيق ، ثم أجاب قائلا: لا أستطيع أن أرتبط بأى وعد . أرجو أن تتذكر أنى هنا كمراسل فقط . إننى إلى جانبكم بجوارحى، ولكنى مضطر إلى وصف الحقائق كما أشاهدها.

— إننى أحبذ ذلك ، ولكن ليست الحقائق هى كل شىء . إن ما أعنى أن تشرحه للأرض هو ما نود القيام به هنا إلى جانب ماأنجزناه . بل إنها أ كثر أهمية، ولكنا لانستطيع إنجازها إلا بمساعدة من الأرض . لم يدرك هذه الحقيقة الكثيرون ممن سبقوك .

وأدرك جيبسون صواب هذا الحديث. وتذكر سلسلة من مقالات النقد فى « الديلى تلجراف » منذ عام مضى . وقد روعيت فيها الدقة التامة فى سرد الحقائق ، ولكن لو نشر بيان مماثل عما أنجزه المستوطنون الأوائل لأمريكا الشمالية، لكان من المحتمل أن يكون مثبطا للهمم كذلك.

وقال جيبسون: أظن فى إمكانى إدراك جانبى القضية. عليك أن تعلم أنه من وجهة نظر الأرض تعتبر المريخ على بعد شاسع ويستنفد أموالا طائلة فى حين لا يعطى شيئا فى مقابل ذلك . وقد تلاشى السحر المبدئى لاستكشاف ما بين الكواكب ، ويتساءل الناس فى الوقت الحاضر قائلين : « مادا نفيد منه ؟ » والإجابة حتى الآن هى « النزر اليسير » . إننى مقتنع بأهمية عملكم ولكن مهمتى مبنية على العقيدة والإيمان لا على المنطق . فرجل الأرض العادى قد يعتقد أن الملايين التى تنفقونها هنا قد يفضل استغلالها فى إصلاح كوكبه .. أقصد إذا فكر فى ذلك على الإطلاق .

— أدرك مشكلتك ، إذ أنها شائعة وليس من السهل الإجابة

عنها . دعنى أعبر عنها كما يلى . أعتقد أن أعقل الناس يقدرون قيمة قاعدة علمية فى المريخ ، موقوفة على البحوث والدراسات البحتة ؟

— دون شك .

— ولكنهم لا يدركون الغرض من بناء مدينة مستقلة بذاتها ، قد تصبح بلا مراء حضارة مستقلة .

— هذا بيت القصيد . إنهم لا يعتقدون ذلك ميسوراً . . أو ، إذا سلمنا بإمكان ذلك ، يرون أنها لاتستوجب الاهتمام . سترى فى أغلب الأوقات مقالات تشير إلى أن المريخ سيظل دائما عبئاً على كاهل الكوكب الوطن بسبب الصعوبات الكبرى الطبيعية التى تحيط بأعمالكم .

— وماذا عن التشبيه بين المريخ والمستعمرات الأمريكية ؟

لا يمكن التمادى فيه بعيداً . وفضلا عن ذلك ، أمكن للرجال تنفس الهواء والعثور على الطعام عند وصولهم إلى أمريكا !

— هذا حق ، ولكن رغم أن مشكلة استعمار المريخ أصعب بكثير ، إلا أننا نمتلك قوى هائلة تحت سيطرتنا ، فإذا منحنا الوقت والمادة أمكننا أن نجعله عالما صالحا للحياة مثل الأرض . وحتى فى الوقت الحاضر لن تجد الكثيرين هنا يرغبون فى العودة ، فهم يدركون أهمية عملهم . والأرض ليست بعد فى حاجة إلى المريخ ، ولكن يوما ما ستحتاج إليه .

— أتعنى أن أصدق هذا . قال جيبسون ذلك فى شىء من الاكتئاب . وأشار إلى النباتات الخضراء الداكنة الملتفة كبحر جائع حول قبة المدينة التى لا تكاد ترى ، وإلى السهل المترامى الأطراف الذى يمتد سريعاً حتى حافة الأفق القريب ، وإلى التلال القرمزية التى تحتضن المدينة ، ثم استطرد يقول : المريخ عالم مشوق ، بل دنيا جميلة . ولكن لا يمكن أن يصير مثل الأرض على الإطلاق .

— لم لا يكون ؟ وماذا تقصد (بالأرض) على أى حال ؟ أتعنى برارى أمريكا الجنوبية أم مزارع الكروم فى فرنسا ، أم جزائر المرجان فى المحيط الهادى ، أم أصقاع سيبريا ؟ إن (الأرض) هى كل واحد من هؤلاء ! أينما تستطيب الحياة للرجال ، سيكون وطنا لشخص ما فى يوم ما . وعاجلا أو آجلا سيتمكن الرجال من الحياة فى المريخ دون كل هذا . . قال ذلك وهو يشير إلى القبة العائمة فوق المدينة فتهبها الحياة .

واعترض جيبسون قائلا : أتظن حقا أن الرجال يمكنهم تكييف أنفسهم مع الغلاف الجوى فى الخارج وقتاً ما ؟ إنهم لو فعلوا هذا لصاروا فئة أخرى غير الرجال .

ومرت لحظة لم ينبس الرئيس الإدارى ببنت شفة ، ثم عقب فى هدوء يقول : لم أذكر شيئا عن تكييف الرجال للمريخ . ألم تأخذ فى اعتبارك مطلقا احتمال مقابلة المريخ لنا فى منتصف الطريق !

ولم يترك لجيبسون وقتاً سوى ما يكفى لأن يعى كلماته ، ثم نهض واقفاً على قدميه قبل أن يتمكن زائره من صياغة الأسئلة التى كانت تتواثب فى ذهنه .

— حسنا ! أتمنى أن يوليك هويتاكر اهتمامه ويطلعك على كل ما تريد رؤيته ! أنت تعلم أن وسائل المواصلات محدودة نوعا ما ، ولكن إذا منحتنا الوقت الكافى لعمل الترتيبات ، سننقلك إلى جميع المراكز . أبلغنى إذا صادفتك أية صعوبات .

وكان فض الاجتماع مهذبا وقاطعاً ، على الأقل فى الوقت الحاضر . لقد منح أكثر رجال المريخ مشاغل جزءاً كبيراً من وقته لجيبسون، وعلى أسئلته أن تنتظر حتى الفرصة التالية .

* * *

قال المحافظ هويتاكر بعد عودة جيبسون إلى المكتب الخارجى : ما رأيك فى الرئيس ، بعد أن قابلته ؟

وأجاب جيبسون فى حذر : كان فى منتهى اللطف والتعاون ، وفى غاية التحمس للمريخ ، أليس كذلك ؟

فزم هويتاكر شفتيه وقال : لست واثقا من صحة هذا الوصف . أعتقد أنه ينظر إلى المريخ كعدو يجب التغلب عليه . وبالطبع كلنا كذلك ، ولكن لدى الرئيس أسباب أقوى مما لدى معظمنا . ألم تسمع عن زوجته؟

— كلا !

— كانت بين أوائل من ماتوا بسبب حمى المريخ بعد عامين من وصولها إلى هنا .

فقال جيبسون ببطء : أوه ، لقد أدركت الآن . أعتقد أن ذلك أحد الدوافع لذلك المجهود الكبير الذى يبذل للبحث عن علاج.

— نعم ، إن الرئيس يوجه اهتماماً كبيرا له ، فهو يستنزف كثيرا من مواردنا . لا يمكننا احتمال المرض هنا .

وأدرك جيبسون وهو يعبر برودواى (الذى سمى كذلك لأن عرضه خمسة عشر مترا) أن هذه الإشارة الأخيرة مجمل تقريبى للموقف فى المستعمرة . ولم يكن قد أفاق بعد من خيبة أمله لصغر (بورت لويل) ونقص كل وسائل الترف التى اعتادها فى الأرض . وإذا نظرنا إلى صفوف المنازل المعدنية المنتظمة ، والأبنية العامة القليلة ، لرأيناها أشبه بمعسكر حربى منها بمدينة ؛ رغم أن السكان بذلوا قصارى جهدهم لإشاعة البهجة فيها بالأزهار الأرضية . وقد نما بعضها إلى أحجام تثير الدهشة تحت تأثير الجاذبية المنخفضة ، وكان ميدان أكسفورد غاصا بأزهار عباد شمس أطول من الرجل ثلاث مرات . ورغم أنها صارت مصدر إزعاج إلى حد ما ، إلا أن أحدا لم يطاوعه قلبه على اقتراح إزالتها . ولو أنها استمرت تنمو بنفس المعدل الحالى ، فسرعان ما تحتاج إلى قاطع أخشاب بارع ليسقطها دون تعريض مستشفى المرفأ للخطر .

واستمر جيبسون فى طريق برودواى وهو يفكر، حتى وصل إلى (ماربل آرش) عند تقاطع القبة رقم (١) مع القبة رقم (٢) . وسرعان ما وجد أنه نقطة تقاطع من نواح عديدة . فهنا ـ فى موقع هام قرب المفاليق الهوائية المتعددة ـ يوجد « محل چورچ » ، الحانة الوحيدة فى المريخ .

قال چورچ : صباح الخير يامستر جيبسون، أرجو أن يكون الرئيس معتدل المزاج .

وحيث إن جيبسون غادر مبنى الإدارة منذ أقل من عشر دقائق ، فقد حسبه يقرأ أفكاره . وسرعان ما عرف أن الأخبار تنتشر فى (بورت لويل) على جناح السرعة ، ويبدو أن غالبية الأنباء تسلك طريق چورچ .

وكان چورچ شخصية تسترعى الاهتمام ، ففى (بورت لويل) يعير المشرفون على الحانات ضرورة نسبية ـ لا حتمية ـ لرفاهية المرفأ ، ولذا كان يقوم بوظيفتين رسميتين . ففى الأرض كان منظما مشهورا للحفلات المسرحية ، ولكن المطالب الباهظة لزوجاته الثلاث أو الأربع اللاتى أحرزهن فى نزوة حماسة الشباب اضطرته إلى الهجرة . وكان فى الوقت الحاضر مشرفا على المسرح الصغير بالمرفأ ، ويبدو عليه الرضا والقناعة بالحياة . ولما كان فى منتصف العقد الرابع من عمره ، فهو أكبر الرجال سنا فى المريخ .

وبعد أن قام بخدمة جيبسون ، أشار قائلا : لدينا حفلة فى الأسبوع القادم .. فقرة أو فقرتان ممتعان . أعنى أن تأتى .

فأجاب جيبسون : بالتأكيد . سأنتظرها فى شوق . إلى أى حد تقيمون مثل هذه الحفلات ؟

— حوالى مرة كل شهر . ولدينا عرض للأفلام ثلاث مرات أسبوعياً ، وعلى ذلك لسنا مقفرين فى هذه الناحية .

— يسعدنى أن فى (بورت لويل) شيئا من الحياة الليلية .

— ستصاب بدهشة . ومع ذلك ، يحسن ألا أنبئك عن ذلك حتى لاتنشره كله فى الجرائد .

— لست أكتب لهذا النوع من الجرائد . . قال جيبسون ذلك وهو يرتشف الشراب المحلى فى تفكير . حين تعتاده ، لن تجده رديئاً رغم أنه كان بطبيعة الحال مركبا كيمويا بحتا . . نسل مشترك بين المزرعة المائية (دون تربة) وبين المعمل الكيموى .

وكانت الحانة خالية ، لأن كل شخص فى (بورت لويل) منهمك فى عمله فى هذه الساعة من النهار . وأخرج جيبسون مفكرته وأخذ يكتب فيها بعناية وهو يصفر لحنا هادئا . وكانت عادة تبعث الضيق ، وهو غافل عن ذلك تماما ، قام چورچ بالرد عليها ، فأدار جهاز الراديو فى الحانة .

وتصادف أن كان البرنامج حافلا ، موجها إلى المريخ من مكان ما فى الجانب الليلى من الأرض ، يدفعه عبر الفضاء عدد من الكيلو واط لايعلمه غير الله، ثم تستقبله المحطة الموجودة على التلال المنخفضة جنوبى المدينة وتعيد إرساله . وكان الاستقبال جيدا ، فيما عدا آثار ضوضاء شمسية .. اضطرابات كهربية من مصدر الإرسال الهائل الذى تقاومه إذاعة الأرض . وتساءل جيبسون عما إذا الأمر حقا يستدعى كل هذه المتاعب لإرسال صوت (سوپرانو) عادى و (أوركسترا) خفيفة من عالم إلى آخر. ولكن من المحتمل أن يكون نصف المريخ منصتاً بدرجات متفاوتة من العاطفة والحنين إلى الوطن .. وكلاهما يرفض الاعتراف بهما علناً فى إباء وشمم .

وانتهى جيبسون من كتابة قائمة العشرين سؤالا التى يود توجيهها إلى شخص ما . وكان مازال يحس كصبى مستجد فى مدرسته الأولى ، فكل شىء كان غريبا ، ولا يمكن أخذ شىء على علاته . كان من العسير أن يصدق أن الموت الفجائى بالاختناق ، واقف بالمرصاد فى الجانب الآخر من هذه الفقاعة الشفافة . وبكيفية ما ، لم يزعجه هذا الإحساس قط وهو فى الأرض ، وفضلا عن ذلك ، هذه طبيعة الفضاء . ولكن ذلك يبدو هنا فى غير موضعه حيث يمكن للمرء أن ينظر عبر هذه السهول الخضراء اليانعة ، التى هى الآن ساحة قتال تكافح فيها نباتات المريخ الصلبة سنويا فى سبيل وجودها . . نضـــــال ينتهى بالموت

للمنتصرين والمهزومين على السواء عند قـــدوم الشتاء .

واعترت جيبسون فجأة، رغبة شبه جارفة للهرب من الشوارع الضيقة والخروج تحت السماء المكشوفة . فلأول مرة تقريبا وجد نفسه يفتقد الأرض ، الكوكب الذى ظن أنه لن يمنحه أكثر مما منحه . وأحس برغبة فى التحدث إلى الحقول الخضراء كالأطفال ، مثل (فالستاف) .. إذا أضيف إلى ذلك سخرية القدر ، حين أحاطه من جانب بالحقول الخضراء ، تبـــدو له كأمل كاذب ، ومع ذلك تحول بينهما قوانين الطبيعة .

وقال جيبسون فجأة : چورچ ، إننى هنا منذ حين ولم أذهب إلى الخارج بعد . والمفروض ألا أقوم بذلك دون صحبة دليل . ولن يأتيك أى زبون فى بحر ساعة أو ما يقرب من ذلك ، فـكن رياضى الروح ورافقنى خلال المغلاق الهوائى .. لعشر دقائق فقط .

وفـكر جيبسون فى شىء من الخجل أن چورچ ولا شك ، اعتبر هذا طلباً جنونياً . وكان مخطئا فى ظنه ، فقد حدث ذلك من قبل عدة مرات ، حتى إن چورچ تقبله كأمر مسلم به . وفضلا عن ذلك ، كانت مهمته هى تحقيق أهواء زبائنه ، ويبدو أن غالبية الفتيان الجدد يعتريهم هذا الإحساس بعد بضعة أيام تحت القبة . وهز چورچ كتفيه فى رصانة وهو يعجب مما إذا كان الواجب يقتضيه أن يتقدم لوظيفة الطبيب النفسى

للمرفأ ، ثم اختفى فى خلوته الداخلية . وعاد بعد هنية وهو يحمل زوجاً من أقنعة التنفس ومعداتها الإضافية .

وبينما كان جيبسون ينظم أجهزته فى ارتباك ، قال له : لن نحتاج إلى كل الآلات فى يوم جميل كهذا . تأكد من وضع المطاط الإسفنجى بإحكام حول رقبتك . حسناً ، هيــــا بنا ، ولـكن تذكر ! . . عشر دقائق فقط .

وتبعه جيبسون فى تحمس ، مثل كلب الحراسة وراء سيده ، حتى وصل إلى مخرج القبة . وكان هنا مغلاقان : أحدهما كبير مفتوح على مصراعيه ويؤدى إلى القبــة رقم اثنين ، وآخر أصغر منه يؤدى إلى الأراضى المـكشوفة . وكان عبارة عن أنبوبة معدنية قطرها ثلاثة أمتار وتخترق الجدار المـكون من قوالب الزجاج الذى يشد قبة البلاستيك إلى الأرض .

وكان هناك أربعة أبواب منفصلة ، ولا يمكن فتح أحدها مالم تغلق الثلاثة الأخرى . واستصوب جيبسون هــذه الاحتياطات ، ولـكن خيل إليه أن وقتاً طويلا قد انقضى قبل أن يتحرك آخر الأبواب إلى الداخل وتنـكشف أمامه السهول الخضراء الزاهية . وأحس بتخدير فى جلده المعرض للجو بسبب انخفاض الضغط ، ولـكن الهواء الرقيق كان دافئاً إلى درجــة معقولة ، وسرعان ما أحس بالراحة . وتجاهل وجود چورچ تجاهلا تاماً ، وشق طريقه بين النباتات القصيرة الـكثيفة وهو

فى عجب من تزاحمها حول القبة إلى هـذه الدرجة . ربما كان يجذبها الدفء ، أو التسرب البطىء للأكسجين من المدينة .

وتوقف على بعـد بضع مئات من الأمتار ، وهو يحس أخيرا بتخليصه من قبضة ذلك السرادق ، وقد أصبح مرة أخرى تحت السماء المـكشوفة ، ولم يكن يهمه على أية حال ، حقيقة وجود غطاء كامل حول رأسه . وانحنى ليفحص النباتات التى كانت تصل حتى ركبتيه .

وكان قد شاهد بطبيعة الحال صورا لنباتات المريخ قبل ذلك مراراً . ولم تـكن فى الحقيقة مبعث اهتمام كبير ، ولم يكن هو عالم نباتات صميما كى يعرف قدر غرابتها . وفى الحقيقة ، لو أنه صادف مثل هذه النباتات فى بقعة مهجورة على الأرض لما أثارت اهتمامه . فلم يـكن من بينها ما يرتفع عن خصره ! وبدت تلك المحيطة به كرق منبسط من الخضرة اليانعة ، رقيقة جدا ولـكن غاية فى الخشونة ، هيأتها الطبيعة لاستقبال أكبر كمية من ضوء الشمس دون أن تفقد كثيرا من الماء . وكانت هذه الرقائق الخشنة منبسطة فى الشمس كشراع صغير تتبع حركتها فى السماء حتى تنحدر ناحية الغرب عند الغسق ، وتمنى جيبسون أن لو كان هناك بعض الأزهار كى تضفى مسحة من الألوان المتباينة إلى الزمرد الزاهى ، ولـكن المريخ كان خلوا من الأزهار . ربما كانت هناك ــ فى وقت ما ــ حين كان الهواء كثيفا إلى درجة تصلح للحشرات ، ولـكن أغلب الحياة النباتية فى المريخ كانت الآن فى إخصاب ذاتى .

ولحق به چورج ، ثم وقف ينظر إلى مواطنى المريخ دون أدنى اكتراث . وتساءل جيبسون عما إذا كان متضايقا من خروجه إلى الخلاء فى عجلة ، ولكن وخزات ضميره كانت فى غير موضعها : فقد كان چورج يفكر فى إنتاجه القادم ، وهو يخاطر بمسرحية من مسرحيات (نويل كوارد) بعد الكارثة التى حلت آخر مرة حاولت فيها شركته تقديم المسلسلات . وفجأة أفاق من أحلام يقظته ، وقال لجيبسون فى صوت خافت ، ولكنه يسمع فى وضوح على هذه المسافة القصيرة : هذا أمر مسل ، قف ساكنا للحظة فقط ، وراقب ذلك النبات الذى يغطيه ظلك .

وأطاع جيبسون هذا الأمر الغريب . ومضت لحظة دون حدوث شىء ، ثم شاهد الرقائق المنبسطة ينطوى بعضها على بعض فى بطء شديد وانتهت العملية فى حوالى ثلاث دقائق ، صار النبات بعدها ورقة خضراء على هيئة كرة صغيرة مضغوطة بإحكام ، وأصغر بكثير من حجمها السابق .

وقهقه چورج ، ثم قال : لقد حسبت أن الظلام قد حل ، ولا تود أن يضبطها أحد وهى تغفو بعد ذهاب الشمس . ولو أنك تحركت بعيدا ، لأخذت تتدبر الأمور نصف ساعة قبل أن تخاطر بفتح حانوتها مرة ثانية . ولو أنك داومت على هذا العمل طول النهار ، فمن المحتمل أن تصيبها بانهيار عصبى .

وسأل جيبسون : ألهـذه النباتات أية منفعة ؟ أقصد ، أيمكن أكلها ، أو هل تحتوى على مواد كيموية ذات قيمة ؟

— من المؤكد أنها لا تؤكل .. إنها ليست سامة ولـكنها تجعلك تحس باكتئاب . إنها فى الحقيقة لاتشبه نباتات الأرض على الإطلاق، فتلك الخضرة هى من قبيل المصادفة . ليست .. ماذا تسمى المادة . .

— اليخضور ؟

— نعم . فهى لاتعتمد على الهواء مثل نباتاتنا ، فهى تحصل على حاجاتها من الأرض . وفى الواقع يمكنها النمو فى فراغ تام ، مثل نباتات القمر ، إذا وجدت تربة مناسبة وأشعة شمس كافية .

وفـكر جيبسون فى أن هذا انتصار كبير للتطور . ثم تساءل . . لـكن لأى هدف ؟ لم تشبثت الحياة بهذا العالم الصغير فى إصرار ، رغم أسوأ العراقيل التى يمكن للطبيعة أن تتمخض عنها ؟ ربما استمد الرئيس الإدارى بعضا من تفاؤله من عزيمة هذه النباتات وخشونتها .

وقال چورج : يا إلهى ! حان وقت العودة .

وتبعه جيبسون بكل وداعة . فلم يعد يثقل كاهله مضايقات الخوف الجنونى الذى يرجع بعضه كما كان يعلم ، إلى الأثر الحتمى الذى تولد عندما وجد المريخ شيئا فى غاية التفاهـــــة . أما هؤلاء الذين جاءوا للاضطلاع بأعمال محددة ولم يكن لديهم الوقت للتفـكير ، قد يحتمل

ألا يتعرضوا إطلاقا لهذ الطور . ولكنه كان متحررا من العمل ، يفكر في عواطفه وانفعالاته ، وكان أهمها حتى الآن ، شعور بالعجز عند مقارنة ماحققه الإنسان فى المريخ حتى هذه اللحظة بالمشكلات التى مازال يواجهها . لماذا ، حتى فى الوقت الحاضر ، مازال ثلاثة أرباع الكوكب دون استكشاف ، وكان هذا مقياسا لما تبقى من الأعمال .

وكانت الأيام القليلة الأولى فى (بورت لويل) حافلة بالعمل والإثارة الكافية . وصادف وصوله يوم أحد ، وكان المحافظ هويتاكر متحررا من أعباء المكتب بما يكفى لأن يصطحبه بنفسه فى جولة لمشاهدة المدينة ، بعد إنزاله فى أحد الأجنحة الأربعة فى (جراند مارشيان هوتيل) (أما الثلاثة الأخرى فلم تكن قد تمت بعد) وبدأت جولتهم فى القبة رقم واحد ، أول مابنى ، ثم أخذ المحافظ يسرد فى فخر كيف نمت المدينة بعد أن كانت مجموعة من الأكواخ ذات الضغط منذ عشر سنوات فقط وكان مسليا — ومؤثرا إلى حد ما — تلك الطريقة التى لجأ إليها المستعمرون لاستعمال أسماء الشوارع والميادين المألوفة من مدنهم القاصية ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا . كما كان هناك نظام علمى لترقيم شوارع (بورت لويل) ، ولكن أحدا لم يستخدمه قط .

وكان معظم المنازل السكنية عبارة عن أبنية منتظمة ، بارتفاع طابقين ، ذات أركان مستديرة ، ونوافذ ضيقة إلى حد ما . وكل منها يكاد يتسع لعائلتين ، لأن معدل المواليد فى (بورت لويل) كان أعلى

ما فى الـكون المعروف . ولم يكن ذلك بالطبع مثيرا للدهشة لأن كل السكان تقريبا كانوا بين العشرين والثلاثين من العمر ، بالإضافة إلى عدد قليل من كبار هيئة الإدارة يزحفون نحو سن الأربعين . وكان لـكل منزل سقيفة عجيبة،أثارت حيرة جيبسون حتى أدرك أنها صممت لتعمل كمغلاق هوائى فى حالة الطوارىء .

وأخذه هويتا كر فى بادى الأمر إلى مركز الإدارة . . أعلى مبانى المدينة . إذا وقفت على سطحه لأمكنك أن تلمس القبة الطافية فوقك . ولم يكن فى مبنى (أرمين) ما يبعث الإثارة ، فهو أشبه بأى مبنى إدارة فى الأرض . . بصفوف مكاتبه وآلاته الـكاتبة وخزانات حفظ السجلات .

وكان مبنى (مين إير) أكثر إثارة ، فقد كان هـذا حقا ، قلب (بورت لويل) إذ لو حدث أن توقف عن العمل لصارت المدينة وما فيها فى عداد الأموات، وكانت طريقة حصول المستعمرة على الأكسجين غامضة فى نظر چيبسون . فقد ظن فى وقت من الأوقات أنه يستخلص من الهواء المحيط بالـكوكب، وقد نسى أن هذا الغلاف الهوائى الطفيف فى المريخ يحتوى على أقل من واحد فى المائة من غازات الأكسجين .

وأشار المحافظ هويتا كر إلى كومة الرمال الحمراء الهائلة التى جرفت إلى داخل القبة . وكان الجميع يطلقون عليها اسم (رمال) ، ولـكنها كانت قليلة الشبه برمال الأرض المألوفة . فلم تـكن سوى أشلاء عالم

تعفن حتى الموت . . . خليط مركب من أكسيدات المعادن .

وقال هويتاكر وهو يركل أقراص المسحوق : فى هذه الخامات كل ما نحتاج إليه من أكسجين، وتقريبا كل معدن يخطر على بالك. لقد صادفنا فى المريخ ضربة حظ أو ضربتين ، وهذه أعظمها .

ثم انحنى والتقط قطعة أشد صلابة من الباقية ، واستطرد قائلا : إن معلوماتى فى الجيولوجيا ضئيلة ، ولكن انظر إلى هذه ،جميلة ، أليس كذلك ؟ أخبرونى أن غالبيتها أكسيد الحديد . وبطبيعة الحال ، ليس للحديد أهمية تذكر ، ولكن المعادن الأخرى هامة . والمعدن الوحيد الذى لا يمكننا استخلاصه من الرمال بسهولة هو المغنسيوم ، وخير مصدر له هو قاع البحر القديم . فهناك بعض طبقات الملح فى (إكسانتى) ذات سمك يبلغ مائة متر ، وما علينا إلا أن نذهب لنجمعه عندما نحتاج إليه .

ودخلا المبنى المنخفض الساطع الإضاءة ، الذى يتحرك صوبه سيل من الرمال على حزام ناقل . ولم يكن هناك الكثير مما يستحق المشاهدة ، ورغم أن المهندس القائم بالعمل كان متحمساً لتفسير ما يحدث بالضبط ، فإن جيبسون اكتفى فقط بأن يعلم أن الخامات تتحطم داخل أفران كهربية ، ثم يستخلص الأكسجين نقيا مضغوطا . . أما خليط المعادن المختلفة فيرسل إلى عمليات أكثر تعقيدا . وهنا كان يستخرج

أيضا كمية كبيرة من المياه . . تكفى تقريبا لحاجات المستعمرة ، رغم وجود مصادر أخرى إلى جانب ذلك .

وقال المحافظ هويتاكر : إلى جانب تخزين الأكسجين ، علينا بطبيعة الحال الاحتفاظ بضغط الهواء عند القيمة المناسبة والتخلص من ثانى أكسيد الكربون . ألا تعلم أن القبة ليست لهـا دعامات على الإطلاق سوى الضغط الداخلى ؟

فأجاب جيبسون قائلا : نعم ، وأعتقد أنه إذا تلاشى الضغط فإن القبة تنهار كبالون مفرغ من الهواء .

— تماماً . نحن نبقى الضغط فى الصيف عند ١٥٠ ملليمتراً ، ونزيده قليلا فى الشتاء ، وذلك يعطى تقريبا نفس ضغط الأكسجين فى غلاف الأرض الجوى . أما عملية إزالة ثانى أكسيد الكربون فإننا نتركها بكل بساطة إلى النباتات لتقوم بها . وقد استوردنا ما يكفى لهذا العمل ، لأن نباتات المريخ لا تهتم بعملية التمثيل الضوئى .

— إذن فعباد الشمس الضخم فى ميدان أكسفورد اقيم لهذا الغرض، على ما أعتقد .

— حسنا، إن مهمتها المنشودة زخرفية أكثر منها عملية. وأخشى أنها أصبحت مزعجة ، وواجبى أن أضع حدا لنثرها الحبوب ـ أو أيا كان ما تفعله ـ فى أرجاء المدينة . والآن دعنا نذهب لنلقى نظرة على المزرعة .

وكان اسما على غير مسمى لمصنع إنتاج الأطعمة الذى يشغل القبة رقم ثلاثة . وكان الهواء هنا رطبا للغاية ، وكان ضوء الشمس متوفرا عن طريق بطاريات أنابيب الفلورسنت حتى يستمر النمو ليلا ونهارا . وكان جيبسون يعرف القليل عن المزارع المائية ، ولذلك لم يكن للأرقام التى صبها المحافظ هويتاكر بفخر فى أذنيه أدنى تأثير فيه . ولم يمتلك ، على أية حال ، سوى التسليم بأن إحدى المشكلات الكبرى كانت إنتاج اللحوم وأعجب ببراعة التخلص منها جزئيا عن طريق التوسع فى زراعة الأنسجة فى آنية ضخمة من السوائل المغذية .

وقال المحافظ فى شىء من الاشتياق : إنها خير من لاشىء ، ولكنى مستعد للتنازل عن كل ما أمتلك فى سبيل ضلع من الضأن الحقيقى ! إن مشكلة اللحوم الطبيعية هى أنها تشغل فراغا كبيرا فوق طاقتنا . وعلى كل حال ، بعد الانتهاء من القبة الجديد ، ستبدأ مزرعة صغيرة فيها قليل من الخراف والبقر . سيشغف بها الأطفال .. فهم لم يشاهدوا بالطبع أية حيوانات على الإطلاق .

ولم يكن فى ذلك صادقا كل الصدق ، كما اكتشف جيبسون بعد فترة وجيزة ، فقد أغفل المحافظ هويتاكر فى تلك اللحظة اثنين من أشهر المقيمين فى (بورت لويل) .

وفى نهاية الجولة ، بدأ جيبسون يعانى من عسر هضم عقلى طفيف . فقد كانت آلية الحياة فى المدينة بالغة (التعقيد) ، بينما حاول المحافظ

هويتا كر أن يطلعه على كل شيء . وحمد الله عندما انتهت الرحلة ، ورجعا إلى منزل المحافظ لتناول طعام العشاء .

وقال هويتا كر : أعتقد أن ذلك يكفي اليوم ، ولـكن كنت أود أن نستمر في جولتنا ، لأننا جميعاً سنكون مشغولين في الغد ولا يمكنني الاستغناء عن كثير من وقتي . فأنت تعلم أن الرئيس غائب ، ولن يعود قبل يوم الخميس القـــادم ، ولذلك فأنا مضطر للاشراف على كل شيء .

وسأل جيبسون ، من قبل الأدب لا الاهتمام الحقيقي : أين ذهب ؟

فأجاب هويتا كر ، بعد تردد ملحوظ : أوه ، ذهب إلى فوبوس ، وعندما يعود سيسعده أن يقابلك .

وقطع عليهم الحديث ، وصول المسز هويتا كر والأسرة ، واضطر جيبسون إلى الـكلام عن الأرض بقيـــة المساء . وكانت أولى تجاربه — وليست آخرها مطلقا — عن تعطش المستعمرين لأنباء كوكب الوطن فلما اعترفوا بذلك جهارا ، ويتظاهرون في عناد بعدم المبالاة (بالدنيا القديمة) وأحوالها . ولـكن أسئلتهم ، وفوق ذلك رد الفعل السريع للانتقادات والتعليقات الأرضية ، كانت على نقيض ذلك تماما .

وكان في الحديث مع أطفال لم يعرفوا الأرض على الإطلاق . . . أطفال ولدوا تحت القباب الهائلة ، وقضوا في حمـايتها طوال حياتهم القصيرة ، شيئا من الغرابة . وتساءل جيبسون عن معنى الأرض بالنسبة

إليهم . أكانت واقعية أكثر من الأراضى الخرافية فى قصص الجان ؟ كل ما كانوا يعلمونه عن العالم الذى هاجر منه ذووهم أخذوه عن الكتب والصور ، وفى حدود إدراكهم لم تكن الأرض سوى نجم آخر .

لم يعرفوا إطلاقا مجىء فصول السنة . حقا ، كان فى إمكانهم مراقبة الشتاء الطويل خارج القبة ينشر الموت فى الأرض حين تنحدر الشمس ناحية الشمال فى السماء ، ويمكنهم رؤية النباتات الغريبة وهى تذوب وتهلك كى تخلى الطريق للجيل التالى عند حلول الربيع . ولكن لم يتعد أثر ذلك الحواجز التى تحمى المدينة ، إذ يقوم المهندسون فى محطة توليد القوى بإضافة خطوط حرارية أخرى ، ثم يهزءون بأسوأ ما يمكن للمريخ أن يعمله .

ومع ذلك ، بدأ هؤلاء الأطفال رغم بيئتهم الاصطناعية البحتة ، مسرورين وفى حالة طيبة ، غافلين تماما عن كل ما فاتهم . وتساءل جيبسون عن كنه إحساساتهم لو ذهبوا يوما ما إلى الأرض . ستكون تجربة مثيرة ، ولكن حتى الآن لم يبلغ أحد من الأطفال المولودين فى المريخ السن الملائمة للابتعاد عن والديه .

وحين غادر جيبسون بيت المحافظ بعد انقضاء أول يوم لمجيئه إلى المريخ ، كانت أضواء المدينة آخذة فى الخفوت . ولم يتحدث كثيرا مع هويتاكر الذى رافقه فى عودته إلى الفندق ، لأن رأسه كان غاصاً

بالانفعالات المختلطة . قد يبدأ تنسيقها فى الصباح ، ولكن أهم إحساساته فى تلك اللحظة ، هو أن معظم مــــدن المريخ لم تكن سوى قرية فوق آلية .

* * *

لم يكن جيبسون قد أتقن بعد ، تعقيدات التقويم المريخى ، ولكنه عرف أن أيام الأسبوع هى نفسها المستعملة فى الأرض ، وأن يوم الاثنين يعقب الأحد كالمعتاد . (كانت الشهور أيضا تحمل نفس الأسماء ، ولكنها تشتمل على خمسين أو ستين يوما) وحين غادر الفندق فى ساعة حسبها مناسبة ، بدت المدينة مهجورة تماما . لم يكن هناك أى من هذه الجماعات الفضولية التى تابعت تحركاته فى اليوم السابق بكثير من الاهتمام . كان كل فرد يعمل فى المكتب أو المصنع أو المعمل ، وأحس جيبسون كيعسوب شارد فى خلية نحل عامرة بالحركة .

ووجد المحافظ هويتاكر محاطا بالسكرتيرات ، يتحدث فى هاتفين فى نفس الوقت . ولما كان جيبسون غير راغب فى التطفل ، فقد قفل راجعاً على أطراف أصابعه وبدأ بنفسه جولة استكشافية . وفضلا عن ذلك ، لم يعد هناك خطر إذا ضل طريقه ، فأقصى مسافة يمكنه قطعها فى خط مستقيم تقل عن نصف كيلو متر . ولم يكن ذلك ممثلا لاستكشافات المريخ التى تخيلها فى أى من مؤلفاته ..

وهكذا أمضى الأيام القليلة فى (بورت لويل) متجولا ، يلقى

بالأسئلة فى أثناء ساعات العمل ، ويقضى الأمسيات مع عائلة المحافظ هويتا كر أو أعضاء الهيئة العليا الآخرين . وأحس كما لو كان قد قضى سنوات فى هذا المكان . ولم يعد هناك جديد يشاهده ، وقد قابل كل فرد ذو شأن بما فيهم الرئيس الإدارى نفسه .

ولكنه كان يعلم أنه مازال غريبا ، فلم يشاهد فى الحقيقة سوى أقل من جزء من مائة مليون من سطح المريخ بأكمله . فما وراء ستار القبة ، وما وراء التلال القرمزية ، وما وراء حافة السهل الزمردى . . كان بقية هذا العالم مازال سرا مغلقا .

قال جيبسون وهو يحمل الشراب من (البار) : حسنا ، جميل أن أراكم مرة ثانية . أعتقد أنكم ستنغمسون الآن فى سهرات ممتعة فى (بورت لويل) ، وأن أول خطوة هى الاتصال بصديقاتكم المحليات .

وأجاب نوردن : ليس ذلك سهلا على الإطلاق، فإنهن سيتزوجن فيما بين الرحلات ، وعلى المرء أن يكون لبقا . وبهذه المناسبة ، ياچورج ما أخبار الآنسة مارجريت ماكينون ؟

فقال چورج : أنت تعنى مسز هنرى لويس . . وطفلها الجميل أليس كذلك .

وسأله برادلى ، دون أن يلجأ إلى الهمس : هل أطلقت عليه اسم چون ؟

فتنهد نوردن وقال : أوه ! حسنا . أتمنى أن تكون قد ادخرت لى بعضا من كعكة الزفاف ، فى صحتك يامارتن .

ورد جيبسون وهو يقرع الكئوس : وفى صحة الأريس . أرجو أن تكونوا قد جمعتم أجزائها مرة ثانية ، فقد بدت فى أسوأ حال حين رأيتها آخرة مرة .

وقهقه نوردن ثم قال : أوه هذا ! كلا ، سنترك القاعدة المصفحة

مفتوحة إلى أن نشحنها . ليس محتملا أن يتسرب المطر داخلها !

وسأل جيبسون : ما رأيك فى المريخ ياچيمى ؟ أنت الفتى الآخر الجديد هنا ، سواى .

فأجاب چيمى فى حذر : لم أشاهد الكثير بعد ، ومع ذلك يبدو كل شىء صغيرا نسبيا .

وصدرت من جيبسون أصوات غمغمة عنيفة ، اضطر معها الحاضرون إلى التربيت على ظهره .

— أذكر أنك قلت عكس هذا تماما ، حين كنا على ديموس ، لكن أظنك نسيت ذلك . فقد كنت حينئذ ثملا إلى حد ما .

فأجاب چيمى فى كبرياء : لم أكن ثملا طوال حياتى .

— إذن أهنئك على تمثيل من الدرجة الأولى .. لقد خدعتنى تماما ولكنى مهتم بما تقول ، لأن هذا بالضبط ما شعرت به بعد اليومين الأولين ، بعد أن شاهدت كل ما يمكن مشاهدته داخل القبة . فهناك علاج واحد فقط .. أن تذهب إلى الخارج وتبسط ساقيك . لقد قمت بجولتين قصيرتين على الأقدام ، أما الآن فقد تمكنت من الحصول على (برغوث صحراء) من هيئة المواصلات وسأنطلق غدا فى التلال . أترغب فى المجىء ؟

فالتمعت عينا چيمى وأجاب : أشكرك كثيرا .. أود ذلك .

واعترض نوردن قائلا : وى ! وماذا بخصوصنا ؟

فأجاب جيبسون بقوله : لقد قمتم بذلك من قبل . . ولكن سيكون هناك معقد خال ، وعليكم إجراء قرعة لشغله . علينا أن نصطحب سائقا رسميا ، إذ لا يدعوننا نخرج وحدنا فى أحد مركباتهم الثمينة ، ولا تثريب عليهم فى ذلك .

وفاز ماكاى فى الاقتراع ، وإذ ذاك أعلن الآخرون أنهم لم يكونوا فى الحقيقة راغبين فى الذهاب على أية حال .

وقال جيبسون : حسنا ، هذا يحسم الأمر . قابلانى فى قسم المواصلات بالقبة رقم أربعة فى العاشرة غدا . والآن يجب أن أنصرف لأكتب ثلاث مقالات . . أو على أية حال ، مقالة واحدة بثلاثة عناوين مختلفة .

وتقابل المستكشفون فى الوقت المحدد تماما ، وهم يحملون معدات الوقاية الكاملة التى تسلموها فور وصولهم ، ولكن لم تسنح حتى الآن فرصة استخدامها . وكانت تشتمل على غطاء الرأس ، وأسطوانات غاز الأكسجين ، وأجهزة تنقية الهواء — كل ما كان ضروريا فى المريخ خارج القبة فى يوم دافىء — وحلة عازلة للحرارة ، وخلاياها الكهربية المحكمة . وهذه تحافظ على دفء الشخص وراحته حتى ولو انخفضت درجة الحرارة فى الخارج إلى أكثر من مائة تحت الصفر . ولم يكونوا

بحاجة إليها فى هذه الرحلة ، اللهم إلا إذا صادف (البرغوث) حادث يعوقهم بعيدا عن موطنهم .

وكان السائق جيولوجيا يافعا صلب المراس ، قرر أنه قضى فترة خارج (بورت لويل) تماثل ما قضاه بداخلها . وبدا أنه ذو كفاية عالية ، وواسع الحيلة ، ولم ير جيبسون بأسا من أن يأتمنه على حياته الغالية .

وعندما صعدوا إلى (البرغوث) سأله : ألم يحدث قط أن أصيبت هذه الآلات بعطب فى الخلاء ؟

— نادراً . إن عامل الأمان فيها مرتفع ، وقلما يحدث لها شىء . أحياناً ، قد يتسبب سائق متهور فى تعطيلها ، ولـكنك عادة تستطيع انتشالها من أى مأزق بواسطة الرافعة . ولم يحدث خلال الشهر الماضى سوى حادثين ، اضطر فيهما الناس إلى العودة سيراً على الأقدام .

وقال ماكاى ، عندما بدأت المركبة سيرها فى المغلاق : أتعنى ألا نصادف ثالث حالة .

وضحك السائق قائلا ، وهو ينتظر فتح الباب الخارجى : لا تدع هذا يزعجك ، فلن نبتعد كثيرا عن القاعدة ، ولذا يمكننا العودة دائماً حتى فى أسوأ الأحوال .

واندفعوا خلال المغلاق بقوة كبيرة خارجين من المدينة . وكان هناك

طريق ضيق ممهد خلال النباتات المنخفضة الزاهية . . طريق ملتف حول المرفأ ، تتفرع منه طرق أخرى تمتد إلى المناجم القريبة وإلى محطة اللاسلكي والمرصد فوق التلال ، وإلى أرض الهبوط التي يجرى فيها الآن تفريغ حمولة الأريس ' التي تنقلها الصواريخ هابطة من ديموس .

وتوقف السائق عند أول تقاطع ثم سأل : حسنا ، كل الطرق تحت تصرفكم . أيها نتبع ؟

وكان جيبسون فى نضال مع خريطة تبلغ ثلاثة أمثال حجم كابينة المركبة . ونظر إليها دليلهم فى ازدراء ، ثم قال: لا أدرى من أين حصلت على ذلك ، وأعتقد أن الإدارة أعطتها لك . على أية حال ، هى قديمة كل القدم . ولو أخبرتنى أين تريد الذهاب لأوصلتك هناك دون أن أعير هذا الشىء أى اهتمام .

— فأجاب جيبسون فى خنوع : حسناً جـدا ، أقترح أن نتسلق التلال لنلقى نظرة على ما حولنا. دعنا نذهب إلى المرصد .

واندفع (البرغوث) فى الطريق الضيق ، فاختلطت صور النباتات الزاهية حولهم بعضها ببعض .

وسأل جيبسون بعد أن غادر حجر ماكاى : ما هى سرعة هذه المركبات ؟

— أوه ! مائة كيلومتر على الأقل فى الطريق الممهد ، ولـكننا

تخفف السرعة فى المريخ لعدم وجود الطرق الممهدة. إننى أسير الآن بسرعة ستين كيلومترا ، أما فى الأراضى الوعرة فسنسير بنصف هذه السرعة إذا صادفنا الحظ .

وسأله جيبسون فى شىء من الانفعال الواضح : وما هو المـــدى الذى تقطعه ؟

— ألف كيلومتر للشحنة الواحدة ، حتى إذا بالغنا فى استهلاك التدفئة والطهو وما أشبه. أما فى الرحلات الطويلة، فإننا نجر معنا مقطورة بها خلايا قوة إضافية . والرقم القياسى للمدى هو خمسة آلاف كيلومتر ، أما أنا شخصيا فقد قطعت من قبل ثلاثة آلاف عند التنقيب فى (أرجير). وعند قيامك بهذا النوع من العمل ، عليك أن تدبر وصول الإمداد إليك من الجو

ورغم أنهم ساروا حتى الآن مالا يزيد على دقيقتين ، كانت بورت لويل قد بدأت تختفى وراء الأفق . وكان من الصعوبة بمكان تقدير المسافات على سطح المريخ نظراً لانحنائه الكبير ، ولذلك كانت الحقيقة الظاهرة فى اختفاء نصف القباب وراء منحنى الكوكب عاملا فى تخيل المرء لها أكبر من الواقع وأبعد مما هى عليه .

وسرعان ما بدأت تظهر ثانيا، حين أخذ (البرغوث) يرتقى المرتفعات، وكان ارتفاع الظلال المطلة على (بورت لويل) أقل من كيلومتر ولكنها

أفادت فى صد الرياح الشتوية الباردة القادمة من الجنوب ، كما كانت مراكز صالحة لمحطة اللاسلكى والمرصد .

ووصلوا إلى محطة اللاسلكى بعد نصف ساعة من مغادرة المدينة . ولما كانوا يحسون بحاجتهم إلى بعض السير ، فقد ارتدوا أقنعتهم ثم هبطوا من (البرغوث) متناوبين فى المرور خلال المغلاق الهوائى الصغير الواهى .

ولم يكن المنظر فى حقيقة الأمر مثيرا ، فإلى الشمال ، تطفو قباب (بورت لويل) كفقاقيع فى بحر زمردى وناحية الغرب ، أمكن لجيبسون أن يلمح لونا قرمزياً منبعثاً من الصحراء التى تطوق الكوكب بأكمله . ولم يكن يستطيع الرؤية ناحية الجنوب لأن قمة التلال مازالت أعلى منه ، لكنه كان يعلم أن أراضى النباتات الخضراء تمتد لبضع مئات من الكيلومترات حتى تندمج فى (مير أريثريوم) . أما أعالى التلال هنا ، فقد كانت خلوا من أية نباتات ، وقد ظن أن ذلك راجع إلى عدم وجود الرطوبة .

وسار إلى محطة اللاسلكى . وكانت المحطة تعمل آليا ، ولذلك لم يجد أحدا يمكنه أن يمسك بتلابيبه كالعادة ، لكنه كان يعرف الكفاية عن الموضوع لكى يخمن ما يجرى وكانت الشبكة العاكسة العملاقة على هيئة قطع مكافىء تكاد تستلقى على ظهرها ، مشيرة إلى الشرق قليلا من سمت الرأس .. موجهة إلى الأرض ، على بعد ستين مليونا

من الكيلومترات صوب الشمس . وكانت الرسائل التى تربط بين هذين العالمين ، تروح وتجىء فى اتجاه شعاعها الخفى . ويحتمل أن تكون إحدى رسائله منطلقة فى هذه اللحظة صوب الأرض . . أو أن تكون إحدى توجيهات روث جولدشتاين فى طريقها إليه .

واستدار حين سمع صوت ماكاى ينبعث مشوشاً ضعيفاً فى ذلك الهواء الرقيق : بعضهم آت ليهبط هناك .. ناحية اليمين .

وفى شىء من الصعوبة ، ميز جيبسون رأس السهم الدقيق للصاروخ يعرق عبر السماء ، مندفعا فى مسار حر كما حدث له منذ أسبوع . وانحدر فوق المدينة ، ولم يلبث أن اختفى وراء القباب حين لامس رقعة الهبوط . وتمنى جيبسون أن يكون الصاروخ قد أتى ببقية أمتعته ، التى استغرقت وقتا طويلا فى الوصول إليه .

وكان المرصد على بعد خمسة كيلومترات نحو الجنوب ، وراء طنف الجبل مباشرة ، حيث لاتعوق أضواء بورت لويل مهمته . ولم يتوقع جيبسون تماما رؤية القباب اللامعة التى تمثل شعار الفلكيين فى الأرض ، وبدلا من ذلك كانت القبة هى فقاعة بلاستيك صغيرة للمنطقة السكنية . أما الأجهزة نفسها فكانت فى الخلاء ، وإن اتخذت احتياطيات لتغطيتها فى الحالات النادرة إذا ساءت حالة الجو .

وحين اقترب (البرغوث) بدا كل شىء مهجورا تماما . وتوقفوا بجوار أكبر الأجهزة .. منظار عاكس يقل قطر مرآته — حسب تقدير

جيبسون — عن متر . وكان جهازا صغيرا إلى درجة تثير الدهشة ، أو بالنسبة للمرصد الرئيسى فى المريخ . وكان هناك منظاران كاسران صغيران، وجهاز أفق معقد، قال عنه ماكاى إنه مرآة زوال .. أيا كان معنى ذلك . وكان هذا — فضلا عن القبة الضاغطة — يبدو كل شىء .

ومن الجلى أن شخصا ما كان فى المقر ، إذ كان (برغوث رمال) واقفا خارج المبنى .

وقال السائق وهو يوقف المركبة : إنهم جماعة لطاف العشرة . فالحياة هنا كئيبة . ولذا يسعدهم دائما رؤية الناس . وسنجد داخل القبة متسعا لنا كى نبسط أقدامنا ونتناول طعام الغداء فى راحة .

— يقينا ، لا نتوقع منهم إمدادنا بوجبة طعام .. قال جيبسون ذلك معترضا ، فقد كان يكره التعرض لالتزامات لا يمكنه الوفاء بها سريعاً . وبدت دهشة صادقة على وجه السائق ، ثم انفجر ضاحكا .

— هذه ليست الأرض ، كما تعلم . فكل شخص فى المريخ يساعد الآخرين .. نحن مضطرون لذلك ، وإلا ما تقدمنا على الإطلاق . ومع ذلك أحضرت معى احتياجاتنا ، وكل ما أريده هو استخدام موقدهم . وستعلم السبب فى ذلك لو أنك حاولت طهى الطعام داخل « برغوث رمال » فى وجود أربعة أشخاص بداخله .

وكان التكهن مصيباً ، فقد استقبلهم عالما الفلك القائمان بالخدمة في حرارة ، وسرعان ما بدأت أجهزة تكييف الهواء في فقاعة البلاستيك الصغيرة في التخلص من روائح الطهو . وفي خلال ذلك ، اتجه ماكاي إلى أكبر الأعضاء وبدأ نقاشاً فنيا حول عمل المرصد . وكانت غالبية النقاش فوق مستوى جيبسون ، لكنه حاول أن يستنتج من الحديث قدر طاقته .

ويبدو أن معظم العمل هنا كان قياس المواقع الفلكية . . مهمة ثقيلة ، ولكنها ضرورية لتعيين خطوط الطول والعرض ، وإعطاء إشارات الوقت ، وربط درجات التردد اللاسلكي بالشبكة الرئيسية في المريخ . وكان هناك النذر اليسير من أعمال الأرصاد ، فقد تولت ذلك الأجهزة الضخمة الموجودة في قمر الأرض منذ وقت طويل ، ولم يكن في استطاعة هذه المناظير الصغيرة ، بالإضافة إلى عوائق الغلاف الجوى فوقها ، أن تأمل في المنافسة . وقد قيست زوايا اختلاف المنظر لقليل من النجوم القريبة ، ولكنها لم تكن تستحق ذلك العناء ، لأن الزيادة في دقتها ـ نتيجة لمدار المريخ المتسع ـ كانت طفيفة .

وبينما كان جيبسون يتناول طعامه ـ وقد دهش حين وجد شهيته خيرا من أي وقت منذ وصوله إلى المريخ ـ أحس بالرضا لأنه أدخل شيئا من البهجة في الحياة الكئيبة التي يعيشها هؤلاء الرجال في نكران للذات . ولما كان لم يقابل منهم قط عدداً كافياً لأن يزعزع عقيدته فيهم

فقد كان يكنّ لعلماء الفلك احتراما أكثر من اللازم ، لأنه كان ينظر إليهم من زاوية الرهبنة التى كرسوا حياتهم لها فى أوكار الجبال النائية. وحتى حين واجه لأول مرة ذلك (البار) الفخم فى مونت بالومار[1] ، لم ينجم عن ذلك تلاشى إيمانه الساذج .

وبعد الانتهاء من الطعام ، الذى ساعد فيه كل واحـــد فى غسل الأطباق بحماسة واستغرقوا فى ذلك ضعف الفترة اللازمة ، دعى الزائرون للنظر خلال المنظار العاكس الكبير . وقد حسب جيبسون أنه لن يرى الكثير ، نظراً لأن الوقت لم يكد يتجاوز الظهيرة، ولكن ذلك كان سهوا من ناحيته .

كانت الصورة ، غير واضحة المعالم لحظة ، فأصلح لواب ضبط بؤرة المرئى بأصابع غير مدربة . ولم يكن من السهل القيام بالرصد خلال العينية اللازمة حين يكون المرء لابساً قناع تنفس ، ولكن جيبسون تمكن منها ببراعة بعد لحظات .

وفى مجال الرؤية الذى يكاد يكون مظلما قرب سمت الرأس ، تعلق هلال جميل ناصع البياض كقمر عمره ثلاثة أيام . وكانت بعض العلامات تكاد تظهر للعين (المجردة) فى الجزء المضىء ، ولكن رغم أن جيبسون

---

(١) مرصد مونت بالومار فى كاليفورنيا بالولايات المتحدة الأمريكية ويضم أكبر منظار فى العالم (المترجم)

أمعن فى التحديق فإنه لم يدرك حقيقتها . وكان معظم الكوكب غارقا فى الظلام فلم يتمكن من رؤية القارات الكبرى .

وعن كثب منه ، كان يسبح هلال مماثل وإن كان أصغر منه وأخفت ضوءا ، وأمكن لجيبسون أن يشاهد بوضوح بعض الفوهات المألوفة على طول حافته . وكان الكوكبان التوأمان ـ الأرض والقمر ـ يكونان ازدواجا جميلا ، ولكنهما كانا نائيين كوهم أو خيال ، إلى حد أنه لم يشعر بحنين الوطن ولا بالندم على كل ماتركه وراءه .

وكان أحد الفلكيين يتحدث ، وقد اقتربت خوذته من خوذة جيبسون .

عندما يحل الظلام ، يمكنك رؤية أضواء المدن هناك فى الجانب الليلى . من السهل رؤية نيويورك ولندن . أما أروع المناظر ، فهو انعكاسات ضوء الشمس على سطح البحار ، تظهر كنجم لامع متألق قرب حافة القرص إذا انعدمت السحب . وهى لاتظهر الآن ، لأن معظم الجزء الهلالى أرض يابسة .

وقبل مغادرتهم المرصد ، ألقوا نظرة على ديموس الذى كان يطلع من ناحية الشرق على مهل كما هو دأبه . وباستخدام قوة المنظار الكاملة ، بدأ القمر الوعر كما لو كان على بضعة كيلومترات فقط ، ولدهشة جيبسون ، أمكنه أن يميز الأريس بوضوح تام كنقطتين لامعتين متجاورتين . وكان يرغب

أيضاً فى مشاهدة فوبوس ، ولـكن هذا القمر الداخلى لم يـكن قد أشرق بعد .

وعندما لم يعد هناك ما يمكن رؤيته ، ودعوا عالمى الفلك اللذين أخذا يلوحان فى عبوس ، فى حين اندفع (البرغوث) على طول حافة التل . وقد أوضح السائق رغبته فى القيام بدورة خاصة لالتقاط بعض عينات الصخور ، فلم يعترض جيبسون على ذلك لأن الأمر سواء بين منطقة وأخرى فى المريخ .

ولم تـكن هناك طرق حقيقية فوق التلال ، ولـكن كل وعورة فى الطرق أزالتها العصور السالفة فأصبحت الأرض ممهدة تماما . وقد انتشر هنا وهناك قليل من الصخور العنيدة التى مازالت بارزة فوق السطح ، تعرض خليطا عجيباً من الألوان والأشكال ، ولـكن كان من السهولة تجنب هذه العوائق . وفاتوا مرة أو مرتين على أشجار صغيرة ـ إذا جاز لنا أن نسميها أشجارا ـ من نوع لم يشاهده جيبسون قبل ذلك قط . وكانت تبدو كقطيع من المرجان . . متيبسة تماما ومتحجرة . كانت أشجارا بالغة فى القدم ـ طبقا لقول سائقهم ـ إذ رغم أن الحياة تدب فيها بكل تأكيد ، لم يتمكن أحد بعد من قياس معدل نموها . وكانت أصغر قيمة يمكن استنتاجها عن أعمارها هى خمسين ألف عام ، أما طريقة تـكاثرها فقد كانت سراً مغلقا.

وعند الأصيل ، وصلوا إلى جرف منخفض جميل اللون . . أطلق

عليه الچيولوچيون اسم (رينبو ريدج) ، ذكر جيبسون دون ريب بوديان الأريزونا التى تفوقها بهاء ، ولكن على مستوى أقل . وخرجوا من (برغوث الرمال) ، وبينما كان السائق يفتت عيناته ، التقط جيبسون فى سعادة ، من الصور ما استهلك نصف الفيلم الملون الذى جاء به معه لأمثال هذه المناسبات . ولو أظهر الفيلم كل هذه الألوان بدقة ، لكان جيد النوع كما يدعى صانعوه ، ولكن عليه أن ينتظر لسوء الحظ حتى يعود إلى الأرض لتحميضه . فلم يكن فى المريخ من يعرف شيئاً عن ذلك .

وقال السائق : حسناً ، أظن الوقت قد حان لنبدأ العودة إذا أردنا أن نلحق بموعد الشاى . يمكننا العودة من الطريق الذى جئنا منه فنظل مرتفعين عن الأرض ، أو نستطيع الالتفاف حول التلال . هل من تفضيل لأيهما ؟

فأجاب ماكاى الذى بدأ يتضايق قليلا : لم لا نهبط إلى السهل ؟ إن ذلك أكثر الطرق استقامة .

— وأبطؤها .. فلن تستطيع المضى بأى سرعة خلال ذلك الكرنب المفرط فى النمو .

وقال جيبسون : إننى أكره دائما العودة من نفس الطريق ، دعنا نلتف حول التلال لنشاهد ما نعثر عليه هناك .

وضحك السائق قائلا : لا تتمسك بأهداب الأمل الزائف ، فالأمر سواء فى الجانبين . هانحن أولاء فى طريقنا.

وانطلق (البرغوث) إلى الأمام، وما لبث (رينبوريدج) أن اختفى خلفهم ، وكانوا الآن يسيرون فى طرق ملتوية خلال منطقة قاحلة تماما اختفى منها كل شىء حتى الأشجار المتحجرة . وكان جيبسون يشاهد أحيانا رقعة خضراء يحسبها نباتات ، ولـكن ما إن يقتربوا منها حتى يتبين أنها طبقة معدنية عند السطح . وكانت هذه المنطقة رائعة الجمال — جنة الچيولوچيين — وتمنى جيبسون ألا يلحقها التلف نتيجة لأعمال التعدين . من المؤكد أنها كانت إحـــدى مناطق السياحة فى المريخ .

وبعد مسير نصف ساعة ، بدأت التلال تنحدر هابطة إلى واد طويل متعرج ، كان بلا ريب ممراً مائياً قديماً . وأخبرهم السائق أنه منذ خمسين مليونا من السنين على الأرجح ، تدفق نهر كبير فى هذا الطريق ليفقد مياهه فى (مير أريثريوم) .. أحد (بحار) المريخ القليلة التى تناسبها هذه التسمية . وإن جاءت متأخرة بعض الشىء .

وأوقفوا (البرغوث) لإلقاء نظرة على قاع النهر الخـاوى ، فى انفعالات ممتزجة . وحاول جيبسون أن يتخيل منظره كما كان فى الأزمنة الخالية ، حين كانت الزواحف الضخمة تحـكم الأرض ، وكان الإنسان ما زال حلم المستقبل البعيد . ما كانت الروابى الحمراء لتتغير كثيرا خلال

تلك الفترة . ولكن النهر كان يسير بين أحضانها متمهلا فى طريقه إلى البحر ، يتدفق فى بطء نتيجة للجاذبية الصغيرة ، كان منظرا قد يمكن نسبته إلى الأرض ، ولكن هل قدر لمخلوقات ذكية أن تشاهده ؟ لا أحد يعلم . يحتمل أن يكون هناك حقا مريخيون فى تلك الأيام ، ولكنهم هلكوا على مر الزمان .

وقد ترك النهر القديم إرثا . . إذ ما زالت الرطوبة تخضل أعماق الوادى . وثمة شريط من النباتات قد شق طريقه فى (أريثريوم) وكان التباين جليا بين لونه الأخضر الزاهى ولون الروابى القرمزى . وكانت هذه النباتات من النوع الذى صادفه جيبسون من قبل فى الجانب الآخر من التلال،ولكنها كانت غريبة سواء هنا أو هناك، فقد كانت مرتفعة إلى حد يصلح معها تسميتها أشجارا ، ولكن لم يكن لها أية أوراق .. وكل ماهناك فروع رفيعة أشبه بالسياط ، دائمة الاهتزاز رغم سكون الهواء . وتخيل جيبسون أنها تفوق فى الشر كل ما رآه . . نوع من نباتات الشؤم التى قد تدفع بزوائدها نحو أحد المارة الابرياء . أما الحقيقة ، كما كان يعلم تماما فهى غير مؤذية ككل ما عداها فى المريخ .

وقطعوا طريقا متعرجا للهبوط إلى الوادى ، وبينما كانوا يصعدون المرتفع الآخر ، أوقف السائق (البرغوث) فجأة ثم قال : وى ! هذا عجيب !! لم أكن أعلم بوجود أى حركة مرور فى هذا الأنحاء .

ولم يدرك جيبسون غرضه برهة ، إذ لم يكن قوى الملاحظة حقا

كما كان يود أن يكون . ثم لاحظ وجود آثار خفيفة تتجه عبر الوادى فى زاوية قائمة مع مسارهم الحالى .

وقال السائق معقباً : كانت هنا بعض المركبات الثقيلة ، وإنى لواثق من عدم وجود هذا الدرب آخر مرة اجتزت هـذا الطريق . . دعنى أتذكر ، منذ حوالى العام . ولم تخرج أى بعثات إلى (أريثريوم) خلال تلك الفترة .

وسأله جيبسون : إلى أين يقود هذا الدرب ؟

— حسناً ، إذا عبرت الوادى وصعدت إلى القمة لقادك إلى (بورت لويل) . وذلك ما كنت أنوى عمـله . أما الاتجاه الآخر فيقودك داخل الـ (مير) .

— أمامنا متسع من الوقت . . دعنا نتقدم قليلا فى هذا الطريق .

وأدار السائق (البرغوث) عن طيب خاطر متجها داخل الوادى . وكان الدرب يختفى من حين لآخر عندما تصادفهم أرضا صخرية ملساء ولـكنه كان يعود دائما إلى الظهور . وعلى أية حال ، فقدوا أثره تماما فى النهاية .

وأوقف السائق (البرغوث) ثم قال : إننى أعلم ماحدث ، فلا يوجد سوى طريق واحد . هل لاحظت ذلك الممر على بعد حوالى كيلو متر إلى الوراء ؟ أراهن عشرة لواحد أنه يقود إلى الدرب .

— وإلى أين يقود من يسلكه ؟

— هذا هو بيت القصيد .. فهو درب مسدود تماما . هناك مدرج جميل بعد حوالى كيلو مترين ، ولكن لا مخرج منه إلى أى مكان سوى طريق الدخول . قضيت هناك ساعتين ذات مرة حين قمنا بمسح هذه المنطقة لأول مرة . إنه مكان صغير لطيف . مسقوف ، وتجرى فيه بعض المياه فى الربيع .

وضحك جيبسون قائلا : مخبأ بديع للمهربين !

فقهقه السائق ثم قال : تلك فكرة صائبة . قد تكون هناك عصابة تهرب شرائح لحم البقر المحظورة . من الأرض . إنى مستعد لقبول واحدة منها كل أسبوع كى أغلق فمى .

من الواضح أن الممر الضيق كان رافداً للنهر الرئيسى ذات مرة ، وكان أكثر وعورة من الوادى . وبعد مسافة قصيرة اتضح لهم تماما أنهم يتبعون الطريق الصحيح .

وقال السائق : لقد حدثت هنا بعض التفجيرات ، إذ لم يكن هذا الطريق موجوداً حين سلكت هذا السبيل . واضطررت إلى الدوران فوق المنحدر ، وكدت أتخلى عن (البرغوث) .

فسأله جيبسون ، وقد بدأ الآن يحس بالانفعال : ماذا تظنه يجرى هنا ؟

— أوه ! هناك عدة مشروعات بحوث متخصصة إلى درجة أننا لانسمع عنها الكثير . هناك أشياء لايمكن عملها قرب المدينة كما تعلم . قد يكون العمل جاريا هنا لبناء مرصد مغناطيسي .. هناك بعض الشائعات عن ذلك . وتقوم الجبال بحماية المولدات فى (بورت لويل) حماية تامة ولكنى لا أعتقد أن ذلك هو التفسير الصحيح وإلا كنت سمعت .. يا إلهى ! .

كانوا قد خرجوا فجأة من الممر ، ووجدوا أمامهم منطقة خضراء يكاد شكلها يكون بيضيا ، ويتاخمها التلال الطفلية . قد تكون هذه بحيرة جميلة ذات مرة ، وما تزال سلوى للعين المجهدة من رؤية الصخور المقفرة متعـــددة الألوان . ولم يسترع البساط الأخضر الزاهى انتباه جيبسون فى تلك اللحظة ، إذ اعترته دهشة بالغة لرؤية حشد من القباب عند حافة السهل الضيق ، كصورة مصغرة من (بورت لويل) نفسها .

وساروا صامتين فى الطريق المعبد عبر البساط الأخضر الحى . ولم يكن هناك أحد خارج القباب . ولكن وجود مركبة نقل كبيرة قدر حجم (البرغوث) عدة مرات ، أكد لهم وجود شخص ما فى الداخل .

وقال السائق وهو يضبط قناعه : يالها من مؤسسة ! لابد أن هنا سبباً قويا لإنفاق كل هذه الأموال . لتنتظروا هنا حتى أذهب لأتحدث إليهم .

وراقبوه وهو يختفى خلال المغلاق الهوائى للقبة الكبيرة . وخيل إليهم — فى لهفتهم — أنه غاب دهراً ، ثم فتح الباب الخارجى ثانياً ورأوه يعود إليهم سائرا فى بطء .

وحين استقل السائق المركبة ، سأله جيبسون فى لهفة : حسناً ؟ ماذا أخبروك ؟

وانقضت فترة صمت قصيرة ، ثم أدار السائق المحرك وبدأ (برغوث الرمال) يتحرك .

وصرخ ماكاى يستحثه : أصغ إلى . . ما خبر الكرم المريخى الشهير ؟ ألم توجه إلينا الدعوة للدخول ؟

وظهر الضيق على السائق . وخيل لجيبسون أنه يبـــدو كرجل اكتشف فى التو أنه جعل من نفسه أضحوكة . وأخيرا تنحنح فى عصبية ، وكان من الواضح أنه ينتقى الألفاظ فى عناية حين أجاب قائلا : إنه مبنى محطة بحوث ، ولم ينقض عليها وقت طويل ، ولذلك لم أسمع عنها . ولا يمكننا دخولها لأن المكان كله معقم ، وهم يتجنبون دخول الغبار .. فكان علينا أن نغير كل ملابسنا ونغتسل بمحلول مطهر .

— لقد فهمت . . قال جيبسون ذلك ، وقد هتف به هاتف ألا فائدة فى إلقاء مزيد من الأسئلة ، كان يعلم ، دون أن يجانب الصواب . أن دليله لم يذكر سوى جزء من الحقيقة .. أقل أجزائها أهمية . ولأول مرة بدأت الشكوك والمتناقضات الطفيفة التى تجاهلها أو نسيها حتى

الآن ، تتبلور فى ذهنه . لقد بدأت قبل أن يصل إلى المريخ ، حين تحولت الأريس عن فوبوس . والآن قد عثرت على المحطة الخفية للبحوث . كانت مفاجأة كبرى لدليلهم المجرب كما كانت لهم ، ولـكنه كان يحاول تغطية عدم تبصره .

كان هناك شيئا ما ، لم يدر جيبسون كنهه . شىء ولا بد أن يكون هائلا ، لأنه لايخص المريخ وحده ، بل يتعداه إلى فوبوس . كان أمراً يجهله معظم المستعمرين ، ومع ذلك كانوا مجبرين على التعاون لإبقاءه سراً إذا ما وقفوا على حقيقته .

كان المريخ يخفى شيئا ، ولا يمكن أن يخفيه إلا عن الأرض .

أصبح الآن فى « جراند مارشيان هوتيل » مالا يقل عن نزيلين ، وهو أمر ألقى عبئا ثقيلا على إدارته المؤقتة . وكان بقية رفاقه فى السفينة قد قاموا بترتيبات خاصة لسكناهم فى « بورت لويل » ، ولكن چيمى اضطر إلى قبول الضيافة الرسمية لأنه لايعرف أحدا فى المدينة . وتساءل جيبسون عما إذا كان يتوقع من ذلك خيرا ، فلم يكن يرغب فى أن يحمل صداقتهما المؤقتة فوق طاقتها ، وإذا تقابل كثيرا مع چيمى فقد تسوء العواقب . وتذكر قولا ابتدعه خير أعدائه ذات مرة : « إن مارتن من أفضل الأشخاص الذين تقابلهم ، ما دمت لا تصادفه كثيراً » . كان فى ذلك من الصدق ما يكفى لإيلامه ، ولم تكن به رغبة فى تجربة صحته مرة أخرى .

واستقر حياته فى المرفأ حتى صارت على نسق واحد . فهو يعمل فى الصباح مسجلا على الورق انفعالته من جهة المريخ .. وهو عمل جرىء إلى حد ما ، إذا أخذنا فى الاعتبار مقدار ماشاهده حتى الآن من الكوكب . وخصص فترة مابعد الظهر لجولات البحث وإلقاء الأسئلة على سكان المدينة . وصاحبه چيمى أحيانا فى هذه الرحلات ، وفى إحدى المرات رافقه فريق « طاقم » الأريس بأكمله إلى المستشفى لمشاهدة سير المعركة

التى يخوضها الدكتور سكوت وزملائه ضد حمى المريخ . كان الوقت ما زال مبكرا للتنبؤ بأى نتيجة ، لكن بدا سكوت متفائلا نوعا ما ، فقد قال وهو يعصر كفيه فى قوة إن ما نرغب فيه ، هو انتشار الوباء حتى يمكننا اختبار المادة كما يجب . ففى هذه اللحظة ، لا يوجد تحت أيدينا ما يكفى من الحالات .

وكان لدى جيمى دافعان لمصاحبة جيبسون فى جولاته بالمدينة . أولا ، فى إمكان هذا الرجل المسن أن يذهب إلى أى مكان يرغب فيه تقريبا ، وبذلك يستطيع دخول كل الأماكن الهامة التى قد تكون محظورة على ماعداه . أما السبب الثانى فقد كان دافعاً شخصياً ، وهو ازدياد اهتمامه بشخصية مارتن جيبسون الغريبة .

ورغم تقاربهما إلى هذا الحد ، لم يستأنفا حديثهما السابق على الإطلاق . وكان جيمى يعلم أن جيبسون مشتاق إلى كسب صداقته ، ومحاولة تعويضه عما قد يكون حدث فى الماضى . وكان من الفطنة بحيث قبل ذلك العرض على أسس غير شخصية ، لأنه أدرك تماما أن جيبسون يمكن أن يفيده فائدة قصوى من ناحية مستقبله . وكمعظم الشبان الطموحين ، راعى جيمى فى تدبيره شيئا من تقدير المصلحة الشخصية ، وقد يكتئب جيبسون قليلا لبعض ما قدره جيمى من مزايا نتيجة لرعايته .

وعلى أية حال ليس من الإنصاف افتراض أن هذه الاعتبارات

المادية كانت الهدف الأسمى فى ذهن جيمى . فأحيانا كان يفطن إلى إحساس جيبسون الداخلى بالوحدة .. وحـدة الأعزب الذى يواجه دنو الشيخوخة . وقد يكون جيمى أدرك أيضاً ـ دون وعى ـ أن جيبسون بدأ يعتبره الابن الذى لم ينجبه قط . ولم يكن جيمى واثقا بأية وسيلة إذا كان جيبسون قد رغب فى القيام بهذا الدور ، ومع ذلك أحس أحيانا بالحزن من أجل جيبسون ، والبهجة فى إرضائه . وفضلا عن ذلك ، فمن الصعوبة بمكان ألا تشعر بالميل نحو من يحبك .

ودخل فى حياة جيمى عامل جديد غير متوقع ، نتيجة لحادث طفيف . فبعد ظهر أحد الأيام كان وحده فى الخارج ، ولمـا كان يشعر بالعطش ، فقد دخل المقهى الصغير المواجه لمبنى الإدارة . ولسوء حظه كان غير موفق فى اختيار الوقت الملائم ، إذ حدث غزو مفاجىء للمكان بينما كان جالسا فى هدوء يرتشف قدحا من الشاى الذى لم يسبق وجوده على بعد ملايين الـكيلومترات من سيلان . فقد حلت فترة توقف العمل فى المريخ لمدة ثلث ساعة بعد الظهر ، وهى قاعدة فرضها الرئيس الإدارى لصالح الـكفاية ، رغم أن الجميع كانوا يفضلون التنازل عنها فى سبيل الانتهاء من العمل مبـكرين ثلث ساعة .

وسرعان ما وجد جيمى نفسه محاطا بجيش من الفتيات ، اللائى أخذن يرمقنه فى صرامة مفزعة ودون أى حيـاء . ورغم أن « نصف دستة » من الرجال جرفهم الحشد المندفع إلى المقهى إلا أنهم انتحوا

جانباً إحدى الموائد بغية الحماية المتبادلة ، وقد دلت أسارير وجوههم المتوترة على أنهم استأنفوا التفكير الذهنى فى الأضابير التى تركوها على مكاتبهم . وقرر جيمى أن ينتهى من شرابه بأسرع ما يمكن ثم ينطلق خارجا .

وكانت امرأة جامدة الوجه فى أواخر العقد الرابع ـ يبدو أنها سكرتيرة كبيرة المقام ـ جالسة فى مواجهته تتحدث إلى فتاة أصغر منها بكثير فى جانب المائدة الذى يجلس فيه . وكان المكان مزدحما إلى درجة يصعب معها المرور ، وبينما كان جيمى يشق طريقه فى الزحام خلال الممر الضيق ، إذ تعثر فى قدم ممتدة فى طريقه . وفى ترنحه أمسك بالمنضدة وتحاشى مسقطة شنيعة ، ولكن على حساب صدمة مؤلمة أصابت مرفقه من الغطاء الزجاجى للمنضدة . وأنساه الألم المبرح أنه لم يكن فى الأريس فعبر عن مشاعره بألفاظ قليلة منتقاة . وحين عاد إلى صوابه ، احمر وجهه من الغضب وولى مدبرا . ولمح المرأة الأكبر سنا تحاول جاهدة كتم ضحكتها ، أما الصغرى فلم تبذل حتى أى مجهود مثلها للسيطرة على نفسها .

ورغم أن ذلك لم يسبق له مثيل ، إلا أنه نسى بعد ذلك كل شىء عن كليهما .

وكان جيدسون هو الذى هيأ الباعث الثانى دون قصد ، فقد كانا يتحدثان

عن نمو المدينة السريع خلال السنوات القلائل الماضية ، ويتساءلان عما إذا كان سيستمر فى المستقبل . وأشار جيبسون إلى الشذوذ فى توزيع الأعمار نتيجة لحظر الهجرة إلى المريخ لمن تقل أعمارهم عن واحد وعشرين عاما ، وبذلك نتج فراغ بين سن العاشرة والحادية والعشرين . . وهو فراغ ، ولا شك ، سيملؤه معدل المواليد المرتفع فى المستعمرة . وكان جيمى يصغى إليه نصف إصغاء حين انتبه فجأة لما طرقت سمعه إحدى ملاحظات جيبسون .

فانبرى يقول : هذا غريب . لقد شاهدت بالأمس فتاة لا يمكن أن يزيد عمرها على ثمانية عشر عاما .

ثم توقف عن الحديث ، إذ اندفع إلى ذاكرته وجه الفتاة الضاحك حين تعثر فى المقهى ، كقنبلة تأخر انفجارها .

ولم يسمع جيبسون قط وهو يؤكد له أنه ولا بد أن يكون مخطئاً . فقد كان كل ما يعلمه هو أيا كانت هذه الفتاة ومن حيثما أتت ، فإنه يجب أن يراها ثانيا .

وفى مكان فى حجم (بورت لويل) كانت المسألة مسألة وقت قبل أن يقابل الإنسان كل شخص ، فقوانين المصادفة ستدبر ذلك . ومع ذلك ، لم يكن فى نية جيمى أن ينتظر حتى تهيىء له تلك القوانين الخليفة غير المؤكدة ، مقابلة ثانية . وفى اليوم الثانى ، قبل استراحة بعد

الظهر مباشرة ، كان يشرب الشاى على نفس المـائدة فى المقهى الصغير .

وسببت له هذه الحركة المـكشوفة بعضا من العذاب الذهنى ، فبادىء ذى بدء ، قد يبدو الأمر كله واضحاً غاية الوضوح . ومع ذلك ، لم لا يتناول الشاى هنـا مادام معظم موظفى الإدارة يفعلون ذلك ؟ أما الاعتراض الثانى والأهم فهو ذكرى كارثة اليوم السابق . ولـكن چيمى تذكر عبارة مقتبسة صحيحة عن القلوب الضعيفة والنساء الشقراوات .

وكان تهيبه فى غير موضعه . فرغم انتظاره حتى أقفر المقهى ثانيا ، لم يظهر أى أثر للفتاة أو زميلتها ، ولابد أنهما ذهبتا إلى مكان آخر .

وكان ذلك بالنسبة لفتى طموح مثل چيمى ، خيبة أمل مؤقتة . فيـكاد يكون من المحقق أنها تعمل فى مبنى الإدارة ، وثمة عدد لا يحصى من الأعذار لزيارته . يمكنه أن يفـكر فى الاستعلام عن مرتبه ، رغم أن هذا العـذر قد يوصله بصعوبة إلى أعماق قسم حفظ الملفات ، أو مكتب فتيات الاختزال ، حيث يحتمل أن تـكون قائمة بالعمل .

وقد تـكون خير طريقة هى مراقبة المبنى عند وصول الموظفين وانصرافهم ، رغم أن القيام بذلك دون إثارة للفضول كان مشكلة جديرة بالاهتمام . وقبل أن يبذل أى محاولة لحل المشكلة ، تدخل القـدر ثانياً متنـكراً فى هيئة مارتن جيبسون وهو يلهث بشدة .

— لقد كنت أبحث عنك ياجيمى فى كل مكان . يحسن أن تسرع لترتدى ملابسك . ألا تعلم أن هناك عرضاً الليلة ؟ حسناً ، لقد وجهت الدعوة إلينا جميعاً لتناول طعام العشاء مع الرئيس قبل ذهابنا ، وذلك فى خلال ساعتين .

وسأله جيمى : ماذا يرتدى المرء لحفلات العشاء الرسميةفى المريخ ؟

فأجاب جيبسون فى شىء من الشك : سراويل قصيرة سوداء ورباط عنق أبيض على ما أعتقد ، أم لعل الأمر بالعكس ؟ على أية حال سيخبروننا فى الفندق ، وأعنى أن يجدوا شيئا يناسبنى .

وقد وجدوا ، ولكنه يكاد يكون مناسبا . فملابس السهرة فى المريخ ، حيث الحرارة وتكييف الهواء يستدعيان الإقلال من جميع الملابس إلى أقصى حد ، كانت تشمل بكل بساطة قميصا حريريا أبيض ذا صفين من الأزرار الصدفية ، ورباط عنق أسود ، وسراويل قصيرة سوداء من الأطلس ذات حزام بمشابك ألومونيومية عريضة مثبتة فى قطعة مطاطة . كان خير ما يمكن توقعه ، ولكن حين ارتداه جيبسون أحس بنفسه وسطا بين فتى كشاف وبين اللورد (فونلبروى) الصغير . ومن ناحية أخرى ، كان مناسبا لنوردن وهيلتون ، فى حين لم ينجح ماكاى وسكوت تماما ، أما برادلى فكان واضحا أن الأمر عنده سيان .

وكان مقر الرئيس هو أكبر منزل خاص فى المريخ ، رغم أنه يعتبر فى الأرض شيئاً متواضعاً جدا . واجتمعوا فى ردهة الاستراحة للتسامر وتناول الشيرى ـ نبيذ حقيقى ـ قبل الطعام . ولما كان المحافظ هوبتاكر هو الرجل الثانى بعد هادفيلد ، فقد دعى أيضاً إلى المأدبة ، وقد أدرك جيبسون لأول مرة مقـدار إحترام واعجاب المستعمرين للرجال الذين يمثلون الصلة الوحيدة بينهم وبين الأرض ، وذلك عندما استمع إليهم يتحدثون إلى نوردن . وقد نوه هادفيلد كثيرا بالأريس ، متغنيا بعظمة سرعتها وحمولتها وما يجلبه ذلك من آثار على اقتصاديات المريخ .

وقال الرئيس بعد الانتهاء من تناول الشيرى : قبل أن ننتقل إلى الداخل ، أود أن أقدم لـكم ابنتى .. إنها تقوم بالإشراف على الترتيبات فى هذه اللحظة .. أستأذنـكم لحظة حتى أجىء بها .

ولم يتغيب أكثر من بضع ثوان .

— هـذه أيرين . . قال ذلك فى صوت ، حاول عبثا ألا يدل على التفاخر . ثم قدمها إلى كل ضيوفه حتى وصل أخيراً إلى چيمى .

ونظرت إليه أيرين فى ابتسامة عذبة ثم قالت : أعتقد أننا تقابلنا من قبل .

فازداد الاحمرار فى وجه چيمى . ولـكنه تمالك نفسه وابتسم قائلا: أجل تقابلنا .

كان من الغباء حقا أنه لم يخمن الحقيقة. فلو أنه قد بدأ يفكر تفكيرا سليما لعرف من هى التى قابلها . فالرجل الوحيد فى المريخ الذى يمكنه مخالفة القوانين هو الشخص الذى وضعها . وتذكر چيمى أنه سمع أن للرئيس ابنة، ولكنه لم يربط الحقائق بعضها ببعض قط، لقد اتضحت الأمور الآن. فحين جاء هادفيلد وزوجته إلى المريخ أحضرا معهما الابنة الوحيدة كجزء من التعاقد . ولم يسمح قط لأى شخص آخر أن يفعل ذلك .

وكان الطعام فاخراً ، إلا أن چيمى لم يتمتع به . ولم يكن قد فقد شهيته تماما — فهذا أمر لا يقبل الجدل — ولكنه كان يأكل وهو مشتت الفكر . ولما كان مقعده قرب طرف المائدة ، فلم يكن فى استطاعته رؤية أيرين إلا إذا اشرأب بعنقه كثيرا بطريقه غير مهذبة . وكان سعيدا حين فرغوا من الطعام وانفضوا لتناول القهوة .

وكان العضوان الآخران فى أسرة الرئيس الإدارى فى انتظار الضيوف ، فقد كان يشغل حيز المقاعد ، زوج من القطط السيامية الجميلة ترمق الزوار بأعين بعيدة الغور . وقـدما إليهم باسم (توباز) و (توركواز) ، ولما كان جيبسون يحب القطط فقد بدأ فورا محاولاته لربط أواصر الصداقة معهما .

وسألت أيرين چيمى : أتحب القطط ؟

وقال چيمى ، الذى ينفر منها : بعض الشىء . كم مضى عليها هنا ؟

— أوه ! حوالى العام . تصور . . إنهما الحيوانان الوحيـدان فى المريخ ! إنى لأتساءل ما إذا كانا يقدران ذلك ؟

— أنا واثق أن المريخ هو الذى يقـدر ذلك . ألا يؤدى ذلك إلى تدللهما ؟

— إنهما مستقلتان تماما . ولا أظن أنهما حقا يلقيان بالاً إلى أحد .. حتى ولا والدى ، رغم أنه يحب التظاهر بعكس ذلك .

ورغم ما يبدو للرائى من أن أيرين تتقدم چيمى دائما ، إلا أنه مال بالحديث فى مهارة بارعة نحو موضوعات شخصية . فاكتشف أنها تعمل فى قسم الحسابات ولـكنها تعرف الـكثير عن كل ما يجرى فى مبنى الإدارة ، حيث تتمنى أن تشغل يوما منصباً إداريا هاماً ، وخمن چيمى أن منصب والدها كان عائقا لها نوعا ما . فرغم أن المنصب يجب أن يجعل الحياة أكثر يسراً فى بعض الأحوال ، إلا أنه فى أحوال أخرى تـكون مساوئه مؤكدة ، كما هى الحال فى (بورت لويل) التى كانت راسخة الديموقراطية .

وكان من أشق الأمور على أيرين أن تركز تفـكيرها فى موضوع المريخ ، فقد كانت أشد شوقا لسماع أخبار الأرض ، ذلك الـكوكب الذى غادرته وهى طفلة ، ولا بد إذن أن يـكون له فى ذهنها شبه حلم غير واقعى . وبذل چيمى جهده للاجابة عن أسئلتها ، وهو قانع تماما بالحديث فى أمر يهمها . فتحدث عن مدن الأرض الـكبرى ، وجبالها

وبحارها ، وسمواتها الزرقاء وسحبها المفزعة ، والأنهار وأقواس قزح .. وكل شيء يفتقده المريخ . وكلما أمعن فى الحديث ازداد وقوعه تحت تأثير عينيها الضاحكتين . وهذه هى العبارة الوحيدة التى تنطبق عليهما . كانت تبدو دائما على وشك مشاركته فى دعابة خفية .

أكانت لا تزال تهزأ به ؟ لم يكن چيمى واثقا . . وما كان يهمه ذلك . ما أسخف أن يتصور المرء — حسب اعتقاده — أن الإنسان يصير معقود اللسان فى هذه المناسبات ! لم يكن فى حياته قط أكثر طلاقة . .

وأحس فجأة أن صمتاً عميقا ساد المكان . كانت الأبصار شاخصة نحوه هو وأيرين .

وقال الرئيس الإدارى : إن كان حديثكما قد فرغ ، يحسن بنا أن نتحرك . فسيبدأ العرض خلال عشر دقائق .

وخيل إليهم ، عند وصولهم ، أن غالبية بورت لويل) يغص بهم المسرح الصغير . وقابلهم المحافظ هويتاكر — الذى كان قد سبقهم للاشراف على الترتيبات — عند الباب ، ثم قادهم إلى مقاعدهم ، وهى عبارة عن منطقة محجوزة تشغل معظم الصف الأول . وجلس جيبسون وهادفيلد وأيرين فى الوسط ، وعلى جانبيهم جلس نوردن وهيلتون ، مما بعث الكدر فى نفس چيمى . ولم يكن أمامه أى اختيار سوى مشاهدة العرض .

وكان العرض جيدا فى بعض نواحيه ، كما هو الشأن فى جميع عروض الهواة . وكانت فقرات الموسيقى ممتازة ، بل إن إحداها وصلت إلى أرفع مستويات المحترفين فى الأرض . ولم يدهش جيبسون حين رأى أمام هذه القطعة فى قائمة البرنامج اسم (أحدث أوبرا لـكوفن جاردن الملـكية) .

وتلا ذلك قطعة درامية فى فترة الاستراحة ، حيث كانت البطلة الواقعة فى ضيق ، وشرير الأيام الخوالى فى نضال عنيف . وأعجب النظارة بذلك ، فقابلوا كلا منهما بما يستحق من التحية أو الصفير ، وارتفع صياحهم متطوعين بالنصائح .

وأعقب ذلك فصل فى التـكلم من البطن كان من أروع ما شاهده جيبسون فى حياته . وأوشك ذلك الدور على الانتهاء قبل أن يدرك وجود جهاز لاسلـكى داخل الدمية ، وكان الشريك المتحـدث وراء الـكواليس .. وقد فطن إلى ذلك قبل أن يكشف الممثل من تلقاء نفسه عن سر اللعبة بدقيقة واحدة .

أما الفقرة التالية فكانت سخرية بحياة المدينة ، وكانت حافلة بعبارات التورية المحلية ، فلم يفهم جيبسون سوى جزء منها . وعلى أية حال ، كان تهريج الشخصية الرئيسية ، وهى شخصية موظف رسمى متضايق قصد به المحافظ هويتاكر ، مثار عاصفة من الضحك . وازداد الضحك حين

أزعجه شخص غريب الشكل بأسئلته المتواصلة المضحكة ، وأخذ يدون الإجابات فى مفكرة صغيرة (كان ينساها دائما) ويلتقط صورا لكل ما يراه .

وانقضت بضع دقائق ، قبل أن يفطن جيبسون إلى حقيقة ما يجرى وتحول وجهه إلى اللون الأحمر القانى ، ثم أدرك أن أمامه طريقاً واحداً يسلكه ، وهو أن يضحك بصوت أعلى من أى شخص آخر .

وانتهى الحفل بأغنيات جماعية ، وهو نوع من التسلية لا يبحث عنه جيبسون فى العادة . . بل الحقيقة عكس ذلك . ولكنه تمتع بها أكثر مما كان يتوقع ، وحين اشترك فى الأجزاء الأخيرة غمره الانفعال فجأة ، فانخفض صوته حتى سكت تماما . وجلس لحظة ، كان فيها الرجل الوحيد الصامت بين هذا الحشد ، يتساءل عما أصابه .

ووافته الوجوه المحيطة به بالجواب. فهنا رجال ونساء ، يجمع بينهم عمل موحد ويسيرون نحو هدف مشترك ، وكل منهم يدرك أن عمله حيوى بالنسبة للمجموعة . لقد انبعث فيهم إحساس بالمسئولية لا يعرفه إلا القليلون فى الأرض حيث تم بلوغ جميع الأهداف منذ وقت طويل . وكان للحقيقة الكائنة بأن (بورت لويل) ما زالت صغيرة إلى درجة أن الناس يعرف بعضهم بعضا ، أثر فى ازدياد هذا الإحساس واعتباره مسألة شخصية .

وبالطبع ، كان هذا الشعور من الروعة بحيث لا يرجى له بقاء . فحين تنمو المستعمرة ، ستتلاشى الروح التى سادت عصر الرواد . فسيصبح كل شىء ضخما جيد التنظيم ، وحينئذ لا يكون ارتقاء الكوكب سوى عمل روتينى آخر . أما فى الوقت الحاضر ، فقد كان ذلك إحساسا رائعاً ، يعتبر الإنسان نفسه مجدودا حقا إذا صادفه ولو مرة واحدة فى حياته . وكان جيبسون يعلم أن كل من حوله يغمرهم ذلك الإحساس ، ومع ذلك لم يتمكن من المساهمة فيه . لقد كان أجنبياً ، وكان يفضل دائما أن يلعب هذا الدور .. والآن تمادى فيه إلى أقصى حد . كان يرغب فى مشاركتهم ، إذا لم يكن الوقت قد فات .

كانت هذه هى اللحظة ، إذا كان هناك حقا مثل هذه النقطة المحددة فى سجل الزمن ، حين غير جيبسون ولاءه من الأرض إلى المريخ . ولم يعرف بذلك أحد قط ، ولا أولئك المجاورون له ، إذا كانوا قد لاحظوا شيئاً على الإطلاق ، أدركوا أنه توقف عن الغناء بضع ثوان فقط ثم اشترك مع المجموعة ثانيا بعزم مضاعف .

وانفض النظارة منصرفين فى الظـــــلام مثنى وثلاث يضحكون ويتحدثون ويغنون . وبدأ جيبسون وأصدقائه فى العودة إلى الفندق بعد توديع الرئيس والمحافظ هويتاكر . وراقبهم الرجلان اللذان يديران المريخ فى الواقع ، حتى اختفوا فى الشوارع الضيقة ، ثم التفت هادفيلد إلى ابنته وقال فى هدوء : اهرعى إلى المنزل الآن يا عزيزتى . . فسأقوم

مع المستر هويتاكر بجولة قصيرة ، وسأعود فى خلال نصف ساعة .

وانتظرا ، وهما يودعان المارة بين حين وآخر ، حتى صار الميدان الصغير خالياً . وتململ المحافظ هويتاكر قليـــــلا ، إذ كان يدرك ماسوف يحدث .

وقال هادفيلد : ذكرنى بتهنئة چورچ على عرض الليلة .

فأجاب هويتاكر قائلا : نعم ، لقد أعجبنى التهـكم على جيبسون ، صداعنا المشترك . أعتقد أنك تود سبر غوره من ناحية اكتشافه الأخير ؟

وبغت الرئيس قليلا لإصابة الهدف ، ثم رد قائلا : الآن ، فات الأوان إلى حد ما .. كما لا توجد قرائن دامغة لحدوث أى ضرر حقيقى . إننى أعجب فقط كيف يمكن تحاشى مصادفات المستقبل .

— تـكاد تـكون غلطة السائق . لم يكن يعلم شيئاً عن المشروع ، وقد قادهم إليه الحظ السيء البحت .

— أتظن جيبسون يشك فى شىء ؟

— بصراحة ، لا أدرى . إنه داهية أريب !

— ما أسوأه من وقت لمجىء مراسل صحيفة إلينا ! فلتشهد السماء أنى بذلت كل ما فى وسعى لإبعاده .

— قد يكتشف قبل فترة طويلة أن شيئاً ما يجرى هنا . أعتقد أن هناك حلا واحدا للمشكلة .

— وما هو ؟

— علينا أن نخبره . . قد لا نذكر كل شيء ، ولكن ما فيه الكفاية .

وسارا بضع خطوات فى صمت ، ثم أشار هادفيلد قائلا : هذه خطوة جريئة ، فأنت تفترض إمكان الوثوق به ثقة عمياء .

— لقد قابلته كثيرا خلال الأسابيع الأخيرة ، وهو فى جوهره إلى جانبنا . فالأمر واضح أننا نعمل نفس الأشياء التى كان يكتب عنها طوال حياته ، رغم أنه لا يؤمن بها بعد . أما النكبة الحقيقية فهى عودته إلى الأرض وهو يشك فى وجود شىء لا يدرى كنهه .

وساد صمت طويل آخر ، وكانا قد وصلا إلى حدود القبة وأخذا يحدقان النظر فى المناظر الحلوية فى المريخ ، التى يسقط عليها نور خافت منبعث من المدينة .

وقال هادفيلد ، وهو يستدير عائدا من نفس الطريق : سأفكر فى الأمر . إن الكثير يتوقف بالطبع على سرعة جريان الأمور .

— هل من أنباء بعد ؟

— كلا ، عليهم اللعنة . لا يمكنك إطلاقا أن تلزم العلماء بموعد معين .

ومر عليهما شاب وفتاة متشابكى الأيدى غافلين عما حولها ، فأطلق هويتا كر ضحكة مكتومة ثم قال : هذا يذكرنى بشىء . . يبدو أن أيرين تميل إلى ذلك الصبى .. ما اسمه .. سبنسر .

— أوه ، لست أدرى . إن رؤية وجه جديد يجذب الانتباه ، كما أن رحلات الفضاء أكثر إثارة من الأعمال التى نقوم بها هنا .

— كل الفتيات المليحات يقعن فى غرام البحارة ، أليس كذلك ؟ حسنا ، لاتقل إنى لم أحذرك .

* * *

وسرعان ما تبين لجيبسون أن شيئاً ما حدث ، ولم يستغرق وصوله إلى الحقيقة أكثر من التخمين مرتين . وكان راضيا تماما عن اختيار الفتى ، إذ اتضح له من المرات القليلة التى شاهد فيها أيرين أنها تبدو كصبية لطيفة . كانت على سجيتها إلى حد ما ، ولكن ليس من الضرورى أن يعتبر ذلك من المساوىء . وأهم من ذلك هى حقيقة ميلها إلى المرح أو الفكاهة ، رغم أن جيبسون ضبطها مرة أو مرتين فى حالة تفكير أضفت عليها جاذبية أخاذة . وكانت أيضاً آية فى الجمال . . لقد تقدم العمر بجيبسون إلى درجة أصبح معها لايعير ذلك كل الأهمية ، ولكن قد تختلف وجهة نظر جيمى إلى الموضوع .

وفى بادىء الأمر ، قرر أن يتجنب الحديث فى هذا الموضوع حتى

يثيره جيمى بنفسه . فمن المحتمل جدا ، أن الفتى يشعر بأن أحـداً لم يلحظ أى شىء غير عادى. وعلى أية حال، انهارت مقاومة جيبسون حين أعلن جيمى عن عزمه على الالتحاق بعمل مؤقت فى (بورت لويل) . ولم يكن فى ذلك ما يبعث على الدهشة ، بل كان أمراً شائعاً بين بحارة الفضاء الذين يزورون المريخ ، فإنهم سرعان ما يتضايقون إذا لم يعملوا شيئا فيما بين الرحلات . وكانوا دائما يختارون عملا فنياً ذا صلة بنشاطهم المهنى ، فما كاى مثلا افتتح فصولا مسائية لتدريس الرياضيات ، بينما لم يحصل الدكتور سكوت المسكين على أية إجازة ، بل توجه إلى المستشفى مباشرة عند وصوله إلى (بورت لويل) .

ولـكن يبدو أن جيمى راغب فى التغيير . كان هناك نقص فى موظفى قسم الحسابات، فاعتقد أن معلوماته الرياضية ذات فائدة . وساق من الأدلة المقنعة ما يثير الدهشة ، فأخذ جيبسون ينصت إليه فى سرور غامر .

وقال له ، بعد أن فرغ من حديثه : ياعزيزى جيمى ، لماذا تحدثنى بكل ذلك ؟ لايوجد مايمنعك من الذهاب إذا أردت .

فأجاب جيمى قائلا : أعلم ذلك ، ولـكنك تقابل المحافظ هوبتا كر كثيرا ، وقد يجنبنى المتاعب لو أنك أوصيت بى خيرا .

— سأخاطب الرئيس إذا شئت .

— أوه! كلا .. ما كنت ...

هكذا بدأ رد جيمى ، ثم حاول تصحيح غلطته فقال :

— إن الأمر لا يستدعى مضايقته بهذه التفاصيل.

فقال جيبسون فى حزم : أضع إلى ياجيمى ، لم لا تكون صريحا ؟ أهذه فكرتك ، أم أن أيرين بثتها فى رأسك ؟

كان الأمر يستحق السفر طوال الطريق إلى المريخ ، لمشاهـــدة تعبيرات وجه جيمى .. كان أشبه بسمكة تنفست الهواء فترة من الوقت ثم أدركت فجأة مايحدث لها .

وأخيرا قال : أوه، لم أكن أدرى أنك تعلم . إنك لن تخبر أحدا ، أليس كذلك ؟

وكان جيبسون على وشك الإشارة إلى أن هـذا الاحتياط غير ضرورى ، ولـكن شيئا ما فى عينى جيمى أرغمه على تجنب المزاح . . لقد دار الزمن دورة كاملة ، ورجع به إلى ذلك الربيع الذى دفن منذ عشرين عاما . وأدرك تماما شعور جيمى فى تلك اللحظة ، وأدرك أيضاً أن لاشىء يعرضه عليه المستقبل يعادل ما يكتشف من إحساسات فى الوقت الحاضر . . إحساسات ظلت دائما ناضرة غضة منـــذ بدء الخليقة . قد يقع فى الحب مرة ثانية فيما بعد ، ولـكن ذكرى أيرين ستظل تملأ حياته . . بالضبط كما تمثل أيرين حتما ذكرى فتاة أحلام أخرى صاحبته إلى هذا العالم .

— سأبذل مافى وسعى . . قال جيبسون ذلك فى رقة ، وكان يعنى ما يقول من كل قلبه . ورغم أن التاريخ يعيد نفسه ، إلا أنه لا يسير على نفس النمط ، وقد يستفيد أحد الأجيال من أخطاء الجيل السابق . هناك ما لا يمكن تخطيطه أو التنبؤ به ، ولكنه سيعمل كل ما فى جهده لمساعدته .. وفى هذه المرة ، قد تختلف النتيجة .

كان النور الكهربى مضاء . وتناول جيبسون جرعة أخيرة من الماء ، وتنحنح ، ثم تأكد من ترتيب أوراق المسودات فى الوضع الصحيح . فبصرف النظر عن أنه أذاع عدة مرات ، إلا أنه يحس دائما بهذا الجفاف فى حلقه . وفى حجرة التنظيم ، رفعت مهندسة البرنامج إبهامها ، فتغير الضوء العنبرى فجأة إلى اللون الأحمر .

« سلام إلى الأرض . هذا مارتن جيبسون يتحدث إليكم من « بورت لويل » بالمريخ . ياله من يوم مشهود هنا ! لقد انتفخت القبة الجديدة هذا الصباح ، فازداد حجم المدينة حاليا بمقدار النصف تقريباً . لا أدرى هل أستطيع أن أنقل إليكم الإحساس بمعنى هذا النصر ، أو شعور الفوز هنا فى معركتنا ضد المريخ .. ولكنى سأحاول .

كلكم تعلمون أنه يستحيل علينا تنفس هواء المريخ . . إذ أنه ضئيل جدا ، ويحتوى على كمية لا تذكر من غاز الأوكسجين . وقد بنيت « بورت لويل » ـ أكبر مدننا ـ تحت ست قباب من البلاستيك الشفاف ، يسندها ضغط الهواء الداخلى .. وهو هواء يمكننا تنفسه فى راحة رغم أنه مازال أقل كثافة بكثير من هوائكم .

وخلال العام الماضى ، كان العمل يجرى فى إقامة قبة سابعة تبلغ

ضعف أى واحدة من الآخرين . سأصفها كما كانت بالأمس حين دخلتها قبل بدء نفخها .

تخيلوا مساحة دائرية ضخمة ، قطرها نصف كيلومتر، وقد أحيطت بجدار سميك من قوالب الزجاج يرتفع إلى ضعف طول الرجل . وخلال هذا الجدار ، ممرات تؤدى إلى القباب الأخرى ، ومخارج تطل على أراضى المريخ الخضراء الزاهية التى تحيط بنا من كل جانب . وليست هذه الممرات سوى أنابيب معدنية ذات أبواب ضخمة تغلق تلقائياً إذا تسرب الهواء من إحدى القباب . ففى المريخ ، لا نثق بوضع البيض كله فى سلة واحدة .

وحين دخلت بالأمس القبة رقم (٧) ، كانت هذه المساحة الدائرية الهائلة مغطاة بأكملها بملاءة رقيقة شفافة مثبتة فى الجدار المحيط بتلك المساحة ، وترقد مترهلة على الأرض فى ثنيات ضخمة كنا نشق طريقنا تحتها . لو أمكنكم تصور وجودكم داخل بالون مفرغ من الهواء ، لعرفتم إحساسى بالضبط . ويتكون غلاف القبة من البلاستيك المتين ويكاد يكون كامل الشفافية وتام المرونة .. نوعا من السيلوفان السميك .

وبطبيعة الحال ، كان على أن أرتدى قناع التنفس الخاص بى ، إذ رغم أننا كنا منعزلين تماما عن الخارج ، فإنه لا يكاد يوجد فى القبة أى هواء. ثم بدأ دفع الهواء بواسطة المضخات إلى داخلها بأسرع ما يمكن ، وشاهدنا رقائق البلاستيك الضخمة تناضل فى بطء كلما ارتفع الضغط .

واستغرق ذلك الليل بطوله . وأول مافعلت هذا الصباح هو أنى ذهبت إلى القبة مرة ثانية ، فوجدت الغلاف وقد انتفخ فى المركز كفقاعة كبيرة ، رغم أنه كان عند الحافة منبسطا على الأرض . أما هذه الفقاعة الكبيرة ، التى كان قطرها حوالى مائة متر ، فقد أخذت تحاول الانتقال من مكانها كأحد المخلوقات الحية ، وفى نفس الوقت كان حجمها يزداد .

وحوالى منتصف الصباح ، كانت تضخمت حتى أصبحنا نرى القبة الكاملة وهى تتشكل ، وكان الغلاف قد ارتفع عن الأرض فى كل مكان. وتوقف دفع الهواء داخلها فترة للبحث عن وجود أى تسرب ، ثم استؤنف مرة ثانية حوالى الظهر . وحينئذ كانت الشمس تمد يد المساعدة ، بتدفئة الهواء وزيادة حجمه .

وانتهت المرحلة الأولى لنفخ القبة منذ ثلاث ساعات ، فخلعنا أقنعتنا ، وانطلقت من أفواهنا هتافات السرور المدوية . ولم يكن الهواء قد بلغ من الكثافة الحد الذى يبعث الراحة ، ولكنه كان صالحا للتنفس ، وأمكن المهندسين أن يعملوا داخل القبة دون الحاجة إلى أية أقنعة . وسيقضون الأيام القليلة التالية ، فى فحص الغلاف الهائل من ناحية التحمل والبحث عن أى ثقوب ؛ ومن المنتظر أن يوجد بعض الثقوب بالطبع ، ولكن مادام فقدان الهواء لا يزيد على حد معين ، فإن وجودها لا يؤثر فى شىء .

وهكذا نشعر الآن أننا دفعنا حدودنا على المريخ إلى الوراء قليلا . وسرعان ما ستبدأ إقامة الأبنية الجديدة تحت القبة رقم سبعة ، ويدخل ضمن هذا التخطيط إقامة متنزه صغيرة .. بل نعتزم عمل بحيرة ستكون الأولى فى المريخ ؛ إذ أن الماء لا يصمد هنا طويلا فى الخلاء .

وبطبيعة الحال ، هذه بداية فقط قد تبدو يوما من الأيام كعمل صغير جدا ، ولكنه خطوة كبرى إلى الأمام فى معركتنا . . فهو يمثل السيطرة على رقعة أخرى من المريخ . ويعنى ذلك مأوى لألف شخص آخرين . أتسمعيننى أيتها الأرض ؟ ليلة سعيدة » .

وتلاشى الضوء الأحمر . وجلس جيبسون برهة يحدق فى (الميكرفون) وهو يفكر فى أن كلماته الأولى، رغم أنها تنتقل بسرعة الضوء ، إلا أنها بدأت الآن تصل إلى الأرض . ثم جمع أوراقه وسار خلال الأبواب المبطنة إلى غرفة الضبط .

وناوله المهندس الهاتف قائلا: جاءتك الآن مكالمة يامستر جيبسون، يبدو أن أحدهم فى عجلة من أمره .

فأجاب وهو يبتسم : إنهم كذلك .. هالو ، جيبسون يتحدث .

— إننى هادفيلد . تهانئى القلبية . لقد كنت أنصت الآن . . لقد نقلتها محطة إذاعتنا المحلية كما تعلم .

— يسرنى أنها أعجبتك .

فقهقه هادفيلد وقال : قد تكون خمنت أننى قرأت معظم مسوداتك الأولى . إن تتبع التغير فى وجهة نظرك يثير كثيرا من الاهتمام .

— أى تغير ؟

— فى البداية كنت تستخدم فى كتاباتك كلمة (هم) والآن (نحن) . ربما لا تكون قد أحسنت استخدامها ، ولكن أعتقد أن وجهة نظرى واضحة .

ولم يدع لجيبسون فرصة للرد ، بل استطرد قائلا دون توقف : فى الواقع طلبتك لأبلغك أنى تمكنت أخيرا من تهيئـــة رحلتك إلى (سكيا) . فلدينا نفاثة ركاب تتسع لثلاثة أشخاص ستذهب إلى هناك يوم الأربعاء . سيزودك هويتاكر بالتفاصيل ، صحبتك السلامة .

وساد الصمت فى الهاتف . فأعاده جيبسون إلى مكانه وهو غارق فى التفكير ، ولكن لم يكن يحس بشىء من السرور . إن فيما قاله الرئيس كثيراً من الصدق . لقد مضى عليه هنا حوالى شهر ، تغيرت خلاله نظرته إلى المريخ تغيرا تاما . ولم تدم الانتقالات الأولى التى أحس بها كما يحس الطفل أول أيام الدراسة ، سوى بضعة أيام ، ثم أيام أخرى معدودة تلاشت بعدها الأوهام الكاذبة . فهو الآن يعلم عن المستعمرة ما يكفى لأن يخفف من نظرته الحماسية تجاهها بحيث أصبحت لا تعتمد بأكملها على المنطق . وكان يخشى تحليلها وإلا تلاشت نهائياً . كان يعلم

أن جزءاً منها ينبعث من احترامه المتزايد لمن حوله من الناس . . .
وإعجابه بالكفاية الممتزجة بالذكاء ، والاستعداد للمخاطرات المرسومة
بدقة ، والتى لم تمكنهم فقط من البقاء أحياء فى هذا العالم الذى يناصبهم
العداء ، بل من وضع أسس أولى المدنيات خارج الأرض . وأحس
برغبة ـ أكثر من أى وقت مضى ـ للاشتراك فى أعمالهم مهما تكن
نتائجها .

وفى نفس الوقت ، حانت أولى الفرص لمشاهدة المريخ على نطاق
واسع ؛ إذ يطير يوم الأربعاء إلى « بورت سكاباريللى » ـ ثانى مدن
الكوكب ـ فى « بريفيوم شارونتس » على بعد عشرة آلاف كيلو متر
إلى الشرق . وقد تقرر القيام بهذه الرحلة منذ أسبوعين ، ولكن فى
كل مرة كان يجد من الأمور ما يدعو إلى تأجيلها . وكان عليه أن
يخطر چيمى وهيلتون ، كى يستعدا لذلك .. فقد كانا المحظوظين اللذين
وقع عليهما الاختيار . ربما كان تحمس چيمى للرحلة قد فتر فى الوقت
الحاضر عما كان عليه من قبل . فلاشك أنه الآن يحصى فى قلق ما بقى
له من أيام فى المريخ . وقد يستاء من أى شىء يبعده عن أيرين .
ولكنه إذا أعرض عن هذه الفرصة ، فلن يشعر جيبسون نحوه بأى
عطف .

* * *

قال الطيار فى فخر : إن تصميمها رائع . أليس كذلك ؟ لا يوجد

سوى ست من نوعها فى المريخ . فتصميم نفاثة تطير فى هذا الغلاف الجوى . يحتاج إلى مهارة فائقة . حتى ولو كانت قلة الجاذبية عاملا مواتيا لك .

ولم يكن جيبسون بعلم عن ديناميكا الغازات ما يكفى لأن يقدر قيمة النواحى الفنية فى سفينة الهواء ، رغم ملاحظته أن مساحة الأجنحة كانت كبيرة بشكل غير عادى . وكانت الوحدات الأربع النفاثة محجوبة بعناية خارج الهيكل مباشرة ، لا يكشف عن مكانها سوى انبعاجات طفيفة جدا ، ولو أن جيبسون صادف مثل هذه الطائرة فى أحد مطارات الأرض لما أولاها أى اهتمام ، ولكن قد يثير دهشته ذلك الجرار المتين فى عجلاتها . لقد صنعت هذه الطائرة كى تطير بسرعة ، وإلى مسافات كبيرة .. وتهبط فى أى مكان يكاد يكون منبسطا .

واستقل السفينة الهوائية بعد چيمى وهيلتون ، وحاول أن يجلس فى المكان الضيق فى راحة قدر المستطاع . وكان معظم القمرة مشغولا بصناديق تعبئة ضخمة مربوطة فى أماكنها بإحكام .. لابد أنها بضائع عاجلة مرسلة إلى (سكيا) ، لم تترك مكانا كافياً للركاب .

وأخذت سرعة المحركات تزداد ، حتى ارتفع هديرها الخافت إلى مستوى السمع . ثم سادت فترة الانتظار المألوفة حتى يفحص الطيار أجهزته ومفاتيح التحكم ، ثم انطلقت النفاثات إلى أقصى حد ، ثم بدأ

المر يعرق تحتهم . وانقضت بضع ثوان قبـــل أن يصك سمعهم فجأة ضجيج القوة الباعثة على الاطمئنان ، عندما انطلقت صواريخ الاندفاع لتحملهم إلى السماء دون جهد . وأخـــذت الطائرة ترتفع متجهة نحو الجنوب ، ثم استدارت إلى اليمين فى انحناءة كبيرة قادتهم فوق المدينة . ثم اعتدلت الطائرة فى مسار شرقى ، واختفت « أورورا سينوس » وراء حافة أفق الكوكب . وامتدت الصحراء الواسعة أمامهم إلى آلاف الكيلومترات ، فيما عدا قليلا من الواحات .

وفتح الطيار مفاتيح الإدارة الآلية ، ثم انتقل إلى داخل السفينة ليتحدث إلى ركابه .

وقال : سنصل إلى « شارونتس » فى حوالى أربع ساعات وأخشى أنكم لن تجدوا طوال الطريق مايستحق المشاهدة ، رغم بعض الألوان الجميلة التى سترونها عندما نحلق فوق « يوفراتس » ، ولا شىء بعد ذلك تقريبا سوى صحراء ممتدة حتى نصل إلى « سيرتس ماجور » .

وجرى عقل جيبسون ببعض الحسابات السريعة ، ثم قال : دعنا نر .. إننا نطير فى اتجاه الشرق ، وقد بدأنا متأخرين .. سيكون الظلام سائداً عند وصولنا هناك .

— لا يزعجنك هذا الأمر .. سنلتقط منار « شارونتس » على بعد مائتى كيلومتر . وغالباً لا يستمر ضوء النهار طوال الطريق إذا قمت برحلة طويلة فى المريخ ، نظراً لصغر حجمه .

وكف جيبسون عن التقاط الصور خلال كوة المشاهدة ، ثم سأله : كم مضى عليك فى المريخ ؟

— أوه ! خمس سنوات .

— طائرا طوال هذه الفترة ؟

— ألا تفضل وجودك فى سفن الفضاء ؟

— لا أظن ذلك ، فهى خالية من الإثارة .. إذ تسبح فى الفراغ أشهراً عديدة .. قال الطيار ذلك وهو يضحك ناظراً إلى هيلتون ، الذى ابتسم فى ود دون أن يظهر ميلا إلى المناقشة .

وسأل جيبسون فى اهتمام : ماذا تعنى بالضبط بقولك «إثارة» ؟

— حسنا ، هناك بعض المناظر التى يمكنك التطلع إليها ، كما أنك لا تبتعد عن مسكنك طويلا ، وهناك دائما فرصة اكتشاف شىء جديد. فلتعلم أنى قمت بنصف دستة من الرحلات فوق القطبين . . . أغلبها فى الصيف ، ولكنى مررت فوق « ميربوريم » فى الشتاء الماضى . وصلت البرودة فى الخارج إلى مائة وخمسين درجة تحت الصفر ! وذلك رقم قياسى فى المريخ حتى الآن .

فقال هيلتون : يمكننى أن أحطم هذا الرقم بكل سهولة . فقد وصلت البرودة فى (تيتان) ليلا إلى مائتين تحت الصفر . . وكانت هذه أول مرة سمعه جيبسون يشير إلى بعثة الكوكب زحل .

وسأله : بهذه المناسبة يا فريد ، هــل لتلك الإشاعة نصيب من الصحة ؟

— أى إشاعة ؟

— أنت تعلم ما أقصد . . وهو أنــكم ستقومون بمحاولة أخرى إلى زحل . .

فهز هيلتون كتفيه قائلا : لم يتقرر ذلك بعد ، فهناك كثير من الصعوبات . ولــكنى أعتقد أن ذلك سيتم ، إذ أن التقاعس عن ذلك يبعث على الرثاء . فلتعلم أنه إذا أمكــننا السفر فى العام القادم فسنستطيع المرور فى طريقنا على المشترى ، وبذلك نشاهده عن كثب لأول مرة . لقد حسب ماك مسارا بالغ الأهمية لنا ، نمر قريباً جــدا من المشترى ـ بينه وبين جميع توابعهـ ونترك مجال جاذبيته تديرنا فى الاتجاه الصحيح نحو زحل . سيحتاج ذلك إلى ملاحة بارعة للوصول إلى المسار المطلوب ولــكن ذلك أمر يمكن إنجازه .

— إذن ماسبب التأخير ؟

— النقود ، كما هى العادة . ستستغرق الرحلة عامين ونصف عام وتــكاف الرحلة حوالى خمسين مليونا . ولا يمكن للمريخ أن يتــكفل بذلك ، إذ معناه مضاعفة العجز المعتاد ! ونحن نحاول فى الوقت الحاضر حث الأرض على تمويل الرحلة .

فقال جيبسون : على كل حال ، سيئول الأمر إلى ذلك فى النهاية. عليك أن تزودنى بالحقائق كلها بعد عودتنا ، وسأكتب مقالا من نار أتعرض فيه لتقتير ساسة الأرض . لاينبغى أن تستهين بقوة الصحافة .

وانتقل الحديث بعد ذلك من كوكب إلى كوكب ، حتى تذكر جيبسون فجأة أنه يضيع فرصة نادرة لمشاهدة المريخ على الطبيعة . ولما حصل على إذن للجلوس فى مقعد الطيار — بعد الوعد بعدم لمس أى شىء — انتقل إلى هناك واستقر إلى جوار أجهزة الإدارة .

كانت الصحراء الملونة على بعد خمسة كيلومترات تحته تنساب مارة نحو الغرب . كانوا يطيرون على ارتفاع منخفض جدا بالقياس إلى المعايير الأرضية ، لأن رقة هواء المريخ حتمت عليهم الاقتراب من السطح إلى الحد الذى يسمح به عامل الأمان . ولم يحس جيبسون من قبل بهذه السرعة الواضحة ، إذ رغم ركوبه آلات أسرع من هذه فى الأرض ، فقد كانت على ارتفاعات لا تظهر منها سطح الأرض ، وقد زاد قرب الأفق من إحساسه بالسرعة ، لأن أية معالم تبدو عند حافة الكوكب لا تلبث أن تمر تحتهم بعد بضع دقائق .

ومن حين لآخر ، كان الطيار يأتى ليتأكد من المسار ، رغم أن ذلك كان من الرسميات البحتة ؛ إذ لم يكن هناك ما يجب عمله قبل أن تشرف الرحلة على نهايتها . وفى منتصف الطريق ، قدمت إليهم بعض القهوة والمرطبات الخفيفة ، وانضم جيبسون إلى رفاقه فى القمرة . وكان

النقاش حامياً بين هيلتون والطيار حول كوكب الزهرة ، وهى نقطة حساسة لمستعمرة المريخ الذين كانوا يعتبرون ذلك الكوكب الغريب مضيعة للوقت .

وكانت الشمس فى ذلك الوقت قد انحدرت كثيرا نحو الغرب ، وحتى تلال المريخ الصغيرة كانت تلقى ظلالا طويلة عبر الصحراء . وهناك كانت درجة الحرارة قد انخفضت إلى مادون درجة التجمد ، ومستمرة فى الهبوط سريعاً . أما النباتات الخشنة القليلة التى بقيت حية فى تلك الصحراء القاحلة ، فقد ضمت أوراقها بقوة لتحتفظ بالدفء والطاقة ضد برودة الليل القاسية .

وتثاءب جيبسون ثم تمطى . لقد كان لسرعة مرور المناظر أثر منوم ، فكان من العسير عليه أن يبقى مستيقظا . فقرر أن يستغرق فى إغفاءة لفترة التسعين دقيقة أو ما يقرب من ذلك حتى تنتهى الرحلة .

قد يكون ما أيقظه من سباته ، بعض التغير فى الضوء الخافت . وظل لحظة لا يصدق أنه لم يكن حالما . ولم يسعه سوى الجلوس والتحديق وقد عقلت لسانه دهشة بالغة . فلم يعد ينظر إلى أراض منبسطة ، تكاد تخلو من التضاريس حتى تلتقى بالسماء الداكنة الزرقة عند الأفق البعيد لقد اختفت الصحراء والأفق ، وحل مكانها سلسلة من الجبال القرمزية تمتد شمالا وجنوبا على مرمى البصر . وكانت آخر أشعة الشمس

الغاربة تسقط على قممها ، فأورثتها بهاءها المحتضر ، أما سفوح التلال فقد سترتها ظلمة الليل التى أخذت تمتد نحو الغرب .

ولثوان طويلة ، طغى جلال المنظر على حقيقة كنهه ، فأخفى كل خطر يتمثل فيه . . ثم أفاق جيبسون من سباته ، وقد أدرك فى لحظة رعب أنهم يطيرون على ارتفاع منخفض جدا يكادون يكتسحون تلك القمم الشاهقة .

ولم يستمر ذعره سوى لحظة . . أعقبه فزع رهيب ، فقد تذكر جيبسون الآن ما غاب عن ذهنه نتيجة للصدمة الأولى . . تلك الحقيقة البسيطة التى كان يجب أن يفكر فيها منذ اللحظة الأولى .

لم يكن فى المريخ جبال .

* * *

كان هادفيلد يملى مذكرة عاجلة على مجلس تطوير ما بين الكواكب حين وصلت الأنباء . لقد انتظرت « بورت سكاباريللى » ، حسب اللائحة ، خمس عشرة دقيقة بعد الموعد المحدد لوصول الطائرة ، وتريثت إدارة « بورت لويل » عشر دقائق أخرى قبل أن تبعث بإشارة استنجاد . فوقفت إحدى الطائرات الفاخرة فى أسطول المريخ الصغير على أهبة الاستعداد للبحث فى طريق الطيران عندما يبزغ الفجر . لقد كان مثل هذا البحث شاقا عسيرا ، نظراً لما يتطلبه الطيران من سرعة

كبيرة وارتفاع منخفض، ولكن توجيه المناظير الفلكية من (فوبوس) يمكن أن يشارك فى ذلك مع احتمال كبير للنجاح .

ووصلت الأنباء إلى الأرض بعد ذلك بساعة ، فى وقت لم يكن هناك ما يشغل الصحافة أو الإذاعة . وما كانت الشهرة التى نالها جيبسون إلا لترضيه كل الرضا ، ففى كل مكان بدأ الناس يقرءون آخر مقالاته فى اهتمام يشوبه الحزن . ولم تعلم روث جولدشتين عن الأمر شيئا حتى وصل أحد المحررين الذين تتعامل معهم وهو يلوح بجريدة المساء . فقامت فورا ببيع حقوق الطبعة الثانية لأحدث مسلسلات جيبسون — للمرة الثانية — بنصف الثمن الذى كان ضحيتها مستعدا لدفعه ، ثم انزوت فى حجرتها الخاصة وانهمر دمعها غزيرا لمدة دقيقة كاملة هذان الحادثان قد يجلبان السرور لجيبسون

وفى عدد من مكاتب الصحف، بدأ طبع النسخ المنتخبة من التجارب (البروفات) حتى لا يضيع الوقت . وفى لندن كان أحد الناشرين قد دفع لجيبسون مبلغاً كبيرا كدفعة أولى ، ولذا بدأ يحس بالتعاسة والشقاء .

* * *

كانت صرخة جيبسون لاتزال ترن فى القمرة ، حين وصل الطيار إلى أجهزة القيادة . ثم ارتمى على الأرض ، وانقلبت الطائرة فى وضع

رأسى تقريبا ، فى محاولة يائسة كى تستدير ناحية الشمال . وحين تمكن جيبسون من النهوض ثانياً ، لمح صخرة ذات لون برتقالى عجيب تنحدر نحوهم من مسافة كيلومترات فقط . وحتى فى هذه اللحظة التى اعتراه فيها الفزع ، أمكنه أن يدرك وجود أمر غريب حول هذا الحاجز المندفع نحوهم بسرعة ، وفجأة انكشفت الحقيقة له أخيرا . لم يكن ذلك مرتفعاً جبلياً ، ولكنه شىء لا يقل عنه خطورة . لقد كانوا مندفعين إلى حائط من الرمال قذفته الرياح من الصحراء إلى طبقات الجو العليا .

وأصابهم الإعصار بعد ذلك بثانية . شىء ما ، لطم الطائرة من جانب لآخر ، وارتفع داخل هيكل الطائرة المهزوز صفير مدو ، كان أشد الأصوات التى سمعها جيبسون طوال حياته إثارة للفزع . وطواهم الليل فى الحال فأصبحوا طائرين فى ظلام صاخب ، لا حول لهم ولا قوة .

وانتهى كل شىء فى خمس دقائق بدت دهراً طويلا . لقد أنقذتهم سرعتهم ، لأن السفينة اخترقت قلب الإعصار مثل القذيفة . وانبثق فجأة شفق أحمر قان ، وانقطعت أصوات طرق الطائرة بمليون من المطارق، وساد القمرة الصغيرة صمت مطبق . وشاهد جيبسون العاصفة خلال كوة المشاهدة الخلفية ، وهى تتحرك إلى الغرب، وتمزق الصحراء فى ثورتها .

وأحس جيبسون بأرجله تتهاوى تحته ، فتداعى فى مقعده شاكراً، وأطلق تنهدة ارتياح عميقة . وتساءل لحظة عما إذا كان الحادث قد دفع

بهم بعيدا عن المسار ، ثم أدرك أن ذلك لا أهمية له نظراً لمساعدات الملاحة التى فى صحبتهم .

حينئذ فقط ـ عندما توقفت العاصفة عن صم أذنيه ـ تلقى جيبسون صدمته الثانية . لقد توقفت آلات الطائرة .

وساد القمرة الصغيرة توتر وسكون . ثم التفت الطيـــار صائحاً « تقنعوا بأقنعتكم ! فقد يتشقق الهيكل عند هبوطنا » . وسحب جيبسون جهاز التنفس بأصابع مرتبكة من تحت المقعد ، ثم أحكم وضعه فوق رأسه . وحين انتهى من ذلك ، بدت الأرض قريبة جدا رغم صعوبة تقدير المسافات فى ضوء الشفق الخافت .

ومر إلى جوارهم تل منخفض ثم توارى فى الظلام . وانحرفت الطائرة بشـــدة لتتفادى تلا آخر ، ثم اهتزت فجأة حين لمست الأرض وارتدت عنها . وبعد هنيهة اصطدمت بها ثانيا، وشد جيبسون أطرافه استعداداً للصدمة التى لامفر منها .

وانقضى دهر قبل أن يجرؤ على الاسترخاء ، وهو مازال غيرمصدق أنهم هبطوا فى سلام ثم عطى هيلتون فى مقعده، وأزال قناعه، ثم التفت إلى الطيار قائلا : كان ذلك هبوطا بارعا أيها القبطان ! والآن ما المسافة التى علينا أن نقطعها سيراً على الأقدام ؟

وانقضت لحظة صمت ، ثم قال الطيار فى صوت متوتر نوعا ما :

أيمكن لأحدكم أن يشعل لى لفافة تبغ ؟ لقد أصابتنى رعدة !

فقال هيلتون وهو يتقدم : ها كها . أنستطيع الآن إضاءة أنوار القمرة ؟

وكان للوهج الدافىء المريح أثر كبير فى رفع روحهم المعنوية ، حين ستر عنهم ليل المريخ المحيط بهم من كل جانب . وبدأ كل منهم يحس ببهجة صبيانية ، وارتفعت ضحكاتهم لأتفه النكات . إن رد الفعل الناتج ، أدى إلى سرورهم لبقائهم أحياء حتى إنهم لم يهتموا بالألف كيلومتر التى تفصلهم عن أقرب قاعدة .

قال جيبسون : يالها من عاصفة . أيحدث ذلك كثيرا فى المريخ ؟ ولماذا لم نتلق أى تحذير؟!

وكان الطيار ، الذى تغلب فى تلك اللحظة على صدمته الأولى ، يفكر بسرعة ، وكان من الواضح أن عقله مشغول بمجلس التحقيق الذى لامفر منه . فحتى فى حالة الطيران الآلى كان عليه أن يتردد كثيراً على أجهزة القيادة ..

وأخيرا قال : لم أر قط مثل ذلك من قبل ، رغم أنى قمت بما لايقل عن خمسين رحلة بين (لوبل) و (سكيا) . إن المشكلة هى جهلنا بالأرصاد الجوية فى المريخ ، حتى فى الوقت الحاضر . ولا يوجد على

الـكوكب سوى « نصف دستة » من محطات الأرصاد .. وهى لا تكفى لإعطاء صورة دقيقة .

— وماذا عن فوبوس ؟ ألم يـكن فى إمكانهم رؤية ما يحدث فيحذرونا ؟

فاختطف الطيار تقويمه الفلـكى وأخذ يقلب صفحاته بسرعة ، ثم قال بعد عملية حسابات موجزة ؟ لم يشرق فوبوس بعد . وأعتقد أن العاصفة هبت فجأة من (هيدز)(١) ، اسم على مسمى ، أليس كذلك ؟ ومن المحتمل أن تـكون قد هدأت الآن . ولا أظن أنها اقتربت من (شارونتس) ولذا لم يكن فى استطاعتهم تحذيرنا كذلك . لقد كانت إحدى تلك الحوادث التى لا يلام عليها إنسان .

ويبدو أن هذه الفـكرة سرته كثيرا ، ولـكن جيبسون وجد من العسير أن ينظر إليها تلك النظرة الفلسفية .

ورد قائلا : وفى نفس الوقت ، نحن مستقرون فى وسط المجهول . كم من الوقت سيمضى قبل أن يعثروا علينا ؟ أم هـل هناك أى فرصة لإصلاح الطائرة .

— لا أمل ألبتة فى ذلك ، فقد أصيبت النفاثات بأضرار . فلتعلم أنها صنعت للعمل فى الهواء ، لا فى الرمال .

---

(١) يطلق هذا الاسم على سقر ، أو إله الجحيم عند الإغريق . (المترجم)

— أيمكننا الاتصال بـ (سكيا) لاسلكيا ؟

— ليس الآن مادمنا على الأرض ، ولكن حين يشرق فوبوس — دعنى أر — بعد حوالى ساعة ، يمكننا مناداة المرصد، وهم يستطيعون تحويل ندائنا . هذه هى طريقة جميع أعمالنا بعيدة المدى هنا . فالطبقة المتأينة أضعف من أن تعكس الإشارات كما هو الشأن فى الكرة الأرضية. وعلى كل حال ، سأذهب لتجربة صلاحية جهاز اللاسلكى .

وانطلق إلى الأمام، ثم أخذ يصلح جهاز الإرسال فى الطائرة، فى حين انهمك هيلتون فى فحص أجهزة التدفئة وضغط الهواء فى القمرة ، وتركا الراكبين الباقيين ينظران بعضهما إلى بعض فى شىء من التفكير .

وانفجر جيبسون صائحا فيما بين الغضب والتسلية : تلك مقلاة أسماك رائعة ! لقد جئت من الأرض إلى المريخ فى أمان — مايزيد على خمسين مليونا من الكيلومترات — وما إن وضعت قدمى داخل طائرة بائسة حتى يحدث هذا ! سأقتصر فى المستقبل على ركوب سفن الفضاء .

فضحك جيمى قائلا: إن ذلك سيزودنا بما نتحدث به إلى الآخرين بعد عودتنا ، أليس كذلك ؟ وربما كان فى إمكاننا أخيراً القيام ببعض الاستكشافات .. ثم حدق النظر خلال النافذة ، وقد حجب بيديه ضوء

القمرة عن عينيه . كان الخلاء المحيط بهم فى ظلام دامس فى ذلك الوقت ؛ فيما عدا الاستضاءة المنبعثة من الطائرة .

— يبدو أننا محاطون بالتلال ، ومن حسن حظنا أننا هبطنا سالمين . يا إلهى .. هاهى ذى صخرة فى هذا الجانب . بضعة أمتار أخرى كانت ستؤدى إلى اصطدامنا بها !

وصاح جيبسون مخاطبا الطيار : ألديك فكرة عن مكاننا ؟ . . ونتيجة لهذه الملاحظة الخالية من الكياسة تلقى نظرة جامدة .

— حوالى ١٢٠ شرقا ، وعشرين شمالا . لا يمكن للعاصفة أن تقذف بنا بعيداً عن مسارنا .

وقال جيبسون وهو ينحنى ليتفحص الخرائط : إذن فنحن فى مكان ما فى (أيثيريا) نعم .. هنا منطقة تلال مشار إليها ، ولا توجد معلومات كثيرة عنها .

— إنها أول مرة يهبط فيها إنسان هنا .. وهذا هو السبب . هذا الجزء من المريخ يكاد يكون غير مستكشف . لقد تم تصويره بأكمله من الجو ، ولكن هذا كل شىء .

وقد سر جيبسون لبهجة جيمى عند سماعه تلك الأنباء ، فمن المؤكد أن وجود الإنسان فى منطقة لم تطأها قدم آدمى من قبل هو أمر مثير .

— لا أود أن أبعث اليأس فى قلوبكم .. قال هيلتون ذلك فى نغمة

توحى بأن هذا هومايندوى عمله، ثم استطرد قائلا : ولـكنى لست متأكدا من إمكانـكم الاتصال لاسلـكيا بـ (فوبوس) حتى بعد شروقه .

وصرح الطيار صائحا : ماذا ! إن الجهاز سليم . . لقد فرغت تواً من فحصه .

— نعم .. ولـكن ألم تلاحظ أين يقع مكاننا ؟ إننا لا نتمكن حتى من رؤية فوبوس . هذه الصخرة فى اتجاه الجنوب ، وتحجب الرؤية تماما، ومعنى ذلك أنهم لن يتمكنوا من التقاط إشارات موجاتنا القصيرة. وأسوأ من ذلك ، أنهم لن يستطيعوا تحديد مـكاننا خلال مناظيرهم الفلـكية .

وساد صمت مفزع .

— والآن ماذا نستطيع عمله ؟.. سأل جيبسون ذلك ، وقد اعتراه خاطر مفزع عن مسيرة ألف كيلو متر عبر الصحراء إلى « شارونتس » ، ولـكنه أبعده عن ذهنه فى الحال . ليس فى وسعكم حمل الأكسجين طوال الرحلة ، وفضلا عن ذلك حمل الطعام والمعـــدات اللازمة ، كما لا يستطيع امرؤ أن يقضى الليل على سطح المريخ دون وقاية ، حتى فى هذا المـكان القريب من خط الاستواء .

وأجاب هيلتون فى هدوء : ما علينا إلا إرسال الإشارات بطريقة أخرى ، ففى الصباح سنتسلق هذه التلال لننظر ما حولنا . وفى نفس

الوقت علينا أن نقر بالا .. ثم تثاءب وتمطى حتى شغل القمرة من سقفها إلى أرضها ، ثم استطرد قائلا : ليس أمامنا فى الوقت الحاضر ما يزعجنا ، فلدينا ما يكفى من الهواء عدة أيام ، ومن طاقة البطاريات ما يدفئنا مدة غير محدودة . قد نتعرض لشىء من الجوع إذا مكثنا هنا ما يزيد على أسبوع ، ولكن لا أعتقد احتمال حدوث ذلك .

وتولى هيلتون زمام الأمور بموافقة إجماعية صامتة . بل قد يكون غير مدرك لهذه الحقيقة ، ولكنه الآن أصبح قائداً للمجموعة الصغيرة. لقد تنازل الطيار عن سلطاته دون أدنى تردد .

وسأله هيلتون : هل ذكرت أن فوبوس سيشرق بعد ساعة ؟

— نعم .

— متى يعبر مستوى الزوال[1]؟ لا أستطيع قط أن أتذكر ما يفعله قمرك الصغير المخبول .

— حسناً ، إنه يشرق من ناحية الغرب ويغرب فى المشرق بعد حوالى أربع ساعات .

— إذن سيكون فى اتجاه الجنوب حوالى منتصف الليل ؟

— هذا صحيح . يا إلهى . . هذا معناه أننا لن نستطيع رؤيته على أى حال . سيحدث له كسوف لمدة ساعة على الأقل .

---

(١) المستوى المار باتجاه الشمال والجنوب (المترجم)

فصاح جيبسون فى غيظ : ياله من قدر ! حين تكون فى أشد الحاجة إليه ، لا يمكنك حتى رؤية هذا الشيء اللعين !

فقال هيلتون فى هدوء : هذا لايهم ، سنعرف تماما أين يكون ؟ ولن يضيرنا حينئذ محاولة استخدام اللاسلكى . هذا كل ما نستطيع عمله الليلة . ألدى أحدكم مجموعة من أوراق اللعب ؟ كلا ؟ إذن ما رأيك يا مارتن فى تسليتنا ببعض قصصك ؟

كانت إشارة طائشة ، واغتنم جيبسون فرصته فى الحال ، فقال : لن يخطر ببالى أن أفعل ذلك ، فأنت الشخص الذى فى جعبته قصص تروى .

وتصلب هيلتون ، وتساءل جيبسون لحظة عما إذا كان قد أساء إليه . كان يعلم أن هيلتون نادرا ماتحدث عن بعثة زحل ، ولكن كانت هذه فرصة طيبة لا تعوض . قد لاتعود الفرصة مرة أخرى على الإطلاق . وكما هى الحال فى كل المغامرات الكبرى ، فإن سردها سيرفع من روحهم المعنوية . وربما أدرك هيلتون ذلك أيضاً ، إذ سرعان ما استرخت أعصابه وابتسم .

— لقد ضيقت على الخناق ببراعة ، أليس كذلك يامارتن ؟ حسناً ، سأتحدث .. ولكن بشرط واحد .

— وما هو ؟

— أرجو عدم الاقتباس المباشر !

— كأنى أرضى بهذا !

— وحين تكتب عن ذلك ، دعنى أشاهد المسودة أولا .

— بطبيعة الحال .

وكان هذا أكثر مما تمناه جيبسون . لم يكن عازما فى الوقت الحاضر على الكتابة عن مغامرات هيلتون ، ولكن سره أن يعلم أن ذلك فى إمكانه إذا شاء . ولم يدر بخاده احتمال ألا تحين تلك الفرصة قط .

وخارج جدران الطائرة ، ساد ليل المريخ الموحش . . ليل مرصع بنجوم دقيقة كطرف الدبوس لا تتلألأ . وقد أضفى نور (ديموس) الشاحب على الخلاء المحيط بهم ضوءاً خافتاً ، كما لو كان ينيره وميض فوسفورى بارد . أما من ناحية الشرق فكان المشترى أشد أجرام السماء لمعانا ، يشرق فى بهاء . ولكن أفكار الرجال الأربعة فى الطائرة المحطمة ، كانت أبعد من ذلك . . وصلت إلى ستمائة مليون كيلو متر بعيداً عن الشمس .

فالحقيقة الغريبة عن زيارة الإنسان لزحل دون المشترى ، رغم قرب هذا الأخير ، ما زالت لغزاً فى نظر بعض الناس . ولكن فى أسفار الفضاء ، لاتعتبر المسافة وحدها ذات أهمية ، وقد تم الوصول إلى زحل بسبب ضربة حظ واحدة مدهشة ، ما زالت تبدو رائعة إلى درجة

لاتصدق . فحول زحل يدور « تيتان » ، أكبر التوابع فى المجموعة الشمسية .. يبلغ حوالى ضعف حجم قمر الأرض . ومنذ عام ١٩٤٤ تبين أن « تيتان » يحتفظ بغلاف جوى . لم يكن جوا يمكن للإنسان استنشاقه : كانت له قيمة أعلى من ذلك بكثير ، فقد كان غلافا من غاز الميثان .. إحدى القوى المحركة المثالية فى الصواريخ الذرية.

لقد نتجت عن ذلك حالة فريدة فى تاريخ طيران الفضاء . فلأول مرة ، يمكن إرسال بعثة إلى عالم غريب مع التأكد فعلا بإمكان التزود بالوقود عند الوصول إليه .

وقد أطلقت سفينة « أركتورس » من مدار المريخ إلى الفضاء ، وبها فريق « طاقم » من ستة أشخاص . ووصلت إلى مجموعة زحل بعد تسعة أشهر فقط ، وبها من الوقود ما يكاد يكفى لهبوطها على « تيتان » فى أمان ثم بدأت المضخات تعمل ، والخزانات الضخمة تمتلىء ثانياً من ملايين الأطنان التى لا تحصى من غاز الميثان الموجود هنـاك لمن يريده . وقامت « الأركتورس » بزيارة كل واحد من أقمار زحل الخمسة عشر[1] المعروفة ، بل إنها درات حول مجموعة حلقات زحل الـكبرى نفسها .. وهى تتزود بالوقود من « تيتان » كلما احتاجت إلى ذلك . وفى خلال بضعة أشهر ، عرف عن زحل أكثر مما بينته أرصاد المناظير الفلـكية طوال كل القرون السابقة .

---

(١) المعروف حتى الآن أن ازحل تسعة أقمار فقط (المترجم)

وكان هناك ثمن غال لهـذه الرحلة ، فقد مات اثنان من الفريق « الطاقم » نتيجة لمرض الإشعاع بعد إصلاحات اضطرارية لأحـــد المحركات الذرية ، ودفنا فى (ديون) .. القمر الرابع . أما قائد البعثة ، الـكابتن أنفرس ، فقد قتله انهيار هوائى متجمد فى تيتان ، ولم يعثر على جثته قط . وأخذ هيلتون على عاتقه مهمة القيادة ، وأعاد « الأركتورس » إلى المريخ سالمة بعد ذلك بعام ، ولم يكن يساعده سوى رجلين .

كان جيبسون على علم تام بهذه الحقائق المجردة . وما زال فى إمكانه أن يتذكر استماعه إلى تلك الرسائل اللاسلـكية التى انسابت عبر الفضاء يتلقاها عالم لينقلها إلى الآخر . ولـكن الأمر يختلف تماماً حين تنصت إلى هيلتون وهو يسرد القصة فى هدوء غريب وعدم مبالاة ، كما لو كان هو أحد النظارة ، وليس أحد المشتركين فى الرحلة .

تحدث عن « تيتان » وإخوته الصغار .. تلك الأقمار الصغيرة التى فى دورانها حول زحل ، جعلت الـكوكب يـكاد يكون نموذجا من المجموعة الشمسية . ثم أوضح كيف أنهم هبطوا أخيراً على أقصى الأقمار الداخلية — ميماس — الذى يبعد عن زحل نصف بعد القمر عن الأرض فقط .

« هبطنا فى واد فسيح بين جبلين، حيث كنا متأكدين من صلابة الأرض . كنا عازمين على تفادى الخطأ الذى وقعنا فيه فى (ريا) ! كان هبوطا رائعاً ، وارتدينا حللنا استعـــداداً للخروج . من المضحك أن

الإنسان يفعل ذلك دائما وهو نافد الصبر ، ومهما يكن عدد المرات التى نزل فيها إلى عالم جديد .

وجاذبية (ميماس) بالطبع لا تذكر . . واحد فى المائة فقط من جاذبية الأرض . وكان هذا كافياً ليحفظنا من القفز إلى أعماق الفضاء . لقد أحببت ذلك ، إذ يعلم المرء أنه سينزل ثانيـــاً فى أمان إذا انتظر وقتاً كافياً .

وكنا فى الصباح المبكر حين هبطنا . ويوم (ميماس) أقصر بقليل من يوم الأرض .. فهو يدور حول زحل فى اثنتين وعشرين ساعة . ولما كان يحتفظ بنفس الوجـــه نحو الكوكب ، فإن اليوم والشهر متساويان فى الطول .. تماماً كما هى الحال فى القمر . هبطنا فى النصف الشمالى غير بعيد عن خط الاستواء ، وكان معظم الكوكب زحل فوق الأفق . كان يبدو كشىء من عالم الجان . . قرن ضخم هلالى الشكل منتصباً فى السماء ، كجبل خيالى منحن ارتفاعه آلاف الأميال .

لقد شاهدتم بالطبع الأفلام التى أخذناها ، وخاصة تلك الملونة السريعة التى تبين دورة كاملة لأوجه زحل . ولكنى لا أعتقد أنها تعطيكم صورة صادقة للحياة هناك ، وذلك الشىء الجبار الموجود دائما فى السماء . فلتعلموا أنه من الضخامة إلى حد أن المرء لا يدركه بنظرة واحدة . فإذا وليت وجهك شطره ثم بسطت ذراعيك إلى آخرها ،

يمكنك، أن تتخيل أطراف أصابعك تلامس نهايتى الحلقات المتقابلتين . ولم يكن فى استطاعتنا رؤية الحلقات نفسها بوضوح ، إذ كنا ننظر إليها من جهة حافتها ، ولـكن يمكنك دائما إدراك وجودها من الظل المتسع الأغبش الذى تلقيه على الـكوكب .

لم يمل أحدنا قط من مراقبته . فهو ، كما تعلمون ، يدور حول محوره سريعاً إلى درجة أن هيئته تتغير باستمرار . فتشكيلات السحب — إذ كانت حقا كذلك — كانت تنتقل من أحد جانبى القرص إلى الجانب الآخر فى ساعات قلائل ، متغيرة باستمرار طوال حركتها . وكانت هناك أروع الألوان .. يغلب عليها الأخضر والبنى والأصفر . ومن حين لآخر يحدث ثوران هائل بطىء يبلغ أحيانا حجم الـكرة الأرضية ، يرتفع من الأعماق ثم ينتشر رويدا على هيئـة بقعة ضخمة تغطى نصف الـكوكب .

إنك لا تستطيع إطلاقا تحويل نظرك عنه طويلا . حتى عندما يكون فى المحاق غير ظاهر بأكمله ، فإنك تدرك وجوده هناك بسبب الفجوة الناتجة بين النجوم . وهاك شيئاً غريباً لم أضمنه تقريرى لأنى لم أكن قط متأكدا منه تماماً . مرة أو مرتين حين كنا فى ظل الـكوكب حيث يجب أن يكون قرصه تام الإظلام ، اعتقدت أنى رأيت وهجاً فوسفوريا خافتاً منبعثا من الجانب المظلم . لم يستمر ذلك طويلا . . .

إذا كان له وجود فى الحقيقة . قد يكون نوعا من التفاعلات الكيموية تحدث هناك فى ذلك المرجل الدوار .

أيدهشكم أنى أتوق إلى الذهاب مرة ثانية إلى زحل ؟ إن ما أود القيام به هذه المرة هو الاقتراب جداً منه .. وأعنى بذلك ، فى حدود ألف كيلومتر . ينبغى أن يكون ذلك مأمونا تماما ولن يحتاج إلى طاقة كبيرة . كل مايجب عليك عمله هو أن تنطلق فى مسار قطع مكافىء ، ثم تترك نفسك تنجذب نحوه كمذنب يدور حول الشمس . وبطبيعة الحال ، لن تقضى سوى بضع دقائق قريبا جداً من زحل ، ولكن يمكنك الحصول على كثير من التسجيلات فى تلك الفترة .

وأود الهبوط مرة ثانية على (ميماس) ، ورؤية ذلك الهلال الضخم المضىء ممتداً حتى منتصف السماء . إن رؤية زحل فى تزايده وتناقصه ، ومشاهدة الزوابع وهى تسابق بعضها بعضا حول خط الاستواء ، لمما يستحق القيام بهذه الرحلة . نعم .. إنها تستوجب القيام بها ، حتى ولو ذهبت هذه المرة إلى غير عودة .

لم يكن فى هذه الملاحظة الختامية أية بطولة زائفة . لم تكن سوى تقرير بسيط للحقائق ، وقد صدق المستمعون هيامتون تصديقا تاماً . وبينما كانوا مأخوذين ، كان كل منهم تواقا لأن يعقد نفس الصفقة .

وقطع جيبسون الصمت الطويل بذهابه إلى نافذة القمرة والتحديق خارجها فى ظلام الليل .

وصاح قائلا : أيمكننا إطفاء الأنوار . . ؟ وساد ظلام دامس حين أجابه الطيار إلى مطلبه . أما الباقون فقد انضموا إليه عند النافذة .

وقال جيبسون . انظروا ، هناك إلى أعلى .. يمكنكم رؤيته فقط إذا اشرأبت أعناقكم .

ولم تعد الصخرة المجاورة لموضعهم ، حائطا مصمتاً من الظلام الكثيف . فعند أعلى قمها ، كان ضوءاً جديداً يتلاعب منسكباً على الذروات المثلومة ، وينفذ منها هابطا إلى الوادى . لقد انطلق (فوبوس) من الغرب مرتفعاً كالشهاب فى اتجاه الجنوب فى سباقه التقهقرى عبر السماء .

وأخذ الضوء يشتد دقيقة بعد أخرى ، وفى التو بدأ الطيار يبعث بإشاراته . وما كاد يبدأ حتى خبا ضوء القمر فجأة ، حتى إن جيبسون أطلق صيحة دهشة . فقد اندفع (فوبوس) إلى ظل المريخ ، ورغم أنه ما زال فى صعوده إلا أن ضياءه سينقطع لحوالى ساعة . ولم تكن هناك طريقة تنبئهم عما إذا كان سيبزغ عند حافة الصخر الهائلة أم لا ، وبذلك يصير فى الموقع المناسب لتلقى إشاراتهم .

ولم يفقدوا الأمل حوالى ساعتين ، وفجأة ظهر الضوء ثانياً عند القمم ولكن من ناحية الشرق . لقد انجلى كسوف فوبوس ، وكان فى تلك اللحظة يهوى نحو الأفق الذى سيبلغه بعد ما يزيد على ساعة بقليل وأقفل الطيار جهاز الإرسال فى ضيق .

وقال : لا فائدة ترجى منه . علينا أن نسلك طريقا آخر .

فصاح جيبسون منفعلا : لقد واتتنى فكرة ! ألا يمكننا حمل جهاز الإرسال إلى أعلى التل ؟

— لقد فكرت فى ذلك ، ولكن الشيطان نفسه هو الذى يمكنه إخراج الجهاز دون استخدام الآلات المناسبة ، فقد أقيم كل شىء — الهوائيات وما إليها — داخل جسم الطائرة .

فقال هيلتون : على أية حال ، ليس لدينا الليلة ما يمكننا عمله ، وأقترح أن ننال جميعا قسطا من النوم قبل حلول الفجر . طابت ليلتكم جميعاً .

كانت نصيحة صائبة ، ولكن يصعب اتباعها . كان ذهن جيبسون يسابق الوقت ويضع خطط الغد . واستغرق أخيراً فى نوم متقطع ،

ولـكن بعد أن انحدر (فوبوس) إلى الشرق وانقطع تلاعب ضوئه على أعالى الصخرة .

وحتى عندئذ ، كان يحلم أنه يحاول تثبيت حزام دوار من الآلات المحركة إلى جرار العجلات ، حتى يمكنهم تسيير الطائرة على الأرض مسافة ألف الـكيلو متر الأخيرة إلى « بورت شيا باريللى » .

حين استيقظ جيبسون ، كان الوقت قد جاوز الفجر بكثير . وكانت الشمس مستترة وراء الصخور ، ولكن أشعتها المنعكسة من القمم القرمزية فوقهم كانت تغمر القمرة بضوء لا دنيوى يبعث على التشاؤم . وبسط جسمه المتصلب ، فقد أمضى ليلة غير مريحة ، إذ لم تكن هذه المقاعد معدة للنوم .

والتفت حوله باحثاً عن رفاقه . . ثم أدرك أن هيلتون والطيار قد انصرفا . وكان جيمى مازال مستغرقا فى نوم عميق ، ولا بد أن الآخرين استيقظا قبله وخرجا للاستكشاف . وأحس جيبسون بضيق مبهم ، لأنهما تركاه خلفهما ، ولكنه أدرك أنهما لوقطعا عليه نعاسه لكان أكثر تضايقا .

كانت هناك رسالة موجزة من هيلتون مثبتة فى مكان واضح من الحائط . وكانت تحتوى تلك العبارة البسيطة « خرجنا فى السادسة والنصف ، وسنغيب حوالى ساعة . سنكون جائعين عند عودتنا . فريد » .

ولم يكن فى إمكانه أن يتجاهل تلك الإشارة . وفضلا عن ذلك ، كان جيبسون نفسة جائعاً . وأخذ ينقب فى حزمة طعام الطوارىء التى

تحملها الطائرة لأمثال تلك الحوادث ، وفى نفس الوقت يتساءل عن الفترة التى تكفيهم فيها . وأيقظت محاولاته لغلى شراب ساخن فى غلاية الضغط الصغيرة چيمى ، الذى بدا عليه شىء من الخجل حين أدرك أنه آخر المستيقظين .

وسأله جيبسون ، وهو يبحث حوله عن الأقداح : هل نمت نوما حسناً ؟

فأجاب چيمى قائلا ، وهو يجرى بيديه خلال شعره : فظيع ! وأشعر كأنى لم أذق طعم النوم منذ أسبوع . أين ذهب الآخرون ؟

وجاءت الإجابة لسؤاله فى الحال على هيئة أصوات أشخاص يدخلون المغلاق الهوائى ، وبعد لحظات ظهر هيلتون يتبعه الطيار . وتخلصا من الأقنعة وأجهزة التدفئة — فما زالت البرودة فى الخارج حول درجة التجمد — وانقضا بشغف على قطع الشيكولاتة واللحم المضغوط التى حجزها جيبسون لهم بعد قسمة عادلة .

وسأل جيبسون فى شغف : حسناً ، ماهو حكمكم على الموقف؟

فأجاب هيلتون بين مضغة وأخرى : يمكننى أن أقرر على التو شيئاً واحدا .. نحن سعداء الحظ لأننا أحياء .

— أعلم ذلك .

— إنك لاتعلم نصف الحقيقة . . فلم تشاهد أين هبطنا . لقد نزلنا

فى محاذاة تلك الصخرة حوالى كيلومتر قبل أن نتوقف . ولو أننا انحرفنا درجتين إلى يمين الطائرة . . لتحطمنا ! وحين لمسنا الأرض انحرفنا قليلا إلى الداخل ، ولكن ليس بالقدر الذى يصيبنا بأضرار .

ونحن فى واد طويل ، يمتد شرقا وغربا . إنه يبـــدو كفلطة جيولوجية أكثر منها كمهد نهر قديم ، رغم أن ذلك كان حدسى فى البداية . أما الصخرةالمواجهة لنا فيبلغ ارتفاعها مائة متر، وتكاد تكون عمودية . . وفى الحقيقة ، تبرز عند القمة قليلا إلى ناحيتنا . قد يمكننا تسلقها إلى مدى بعيد ، ولكننا لم نحاول ذلك . وعلى أية حال ، لاضرورة لذلك .. فلو أردنا من (فوبوس) أن يرانا ، فما علينا إلا أن نسير قليلا نحو الشمال إلى أن تصبح الصخرة متنحية عن خط البصر . وفى الحقيقة ، أعتقد أن هذا هو الحل .. إذا أمكننا دفع هذه الطائرة إلى الخارج .. فى الخلاء . ذلك معناه أن يصير فى استطاعتنا استخدام اللاسلكى ، كما يعطى المناظير الفلكية وفرق البحث الجوية فرصة أحسن للعثور علينا .

وسأل جيبسون فى شك : كم يبلغ وزن هذه الطائرة ؟

— حوالى ثلاثين طنا كاملة الحمولة . وبالطبع ، هناك الكثير مما يمكننا إخراجه منها .

فقال الطيار : كلا ، لا يوجد شىء ! فإن ذلك معناه تخفيض الضغط ونحن لا نقدر على تبذير الهواء .

— يا إلهى ! لقد نسيت هذا . ومع ذلك، فالأرض تكاد تكون ملساء وجرار العجلات فى حالة جيدة .

وصدرت عن جيبسون أصوات تدل على غاية الريبة والشك . فحتى تحت تأثير ثلث جاذبية الأرض ، يكون تحريك الطائرة اقتراحا ليس من السهل تنفيذه .

ووجه اهتمامه إلى القهوة خلال الدقائق القليلة التالية ، محاولا صبها قبل أن تبرد بما فيه الكفاية .

كانت نتيجة رفع الضغط عن الغلاية أن امتلأت الحجرة فوراً بالبخار ، حتى إنه للحظة بدا وكأنهم سيستنشقون مرطباتهم السائلة . كان صنع المشروبات الساخنة فى المريخ مزعجا دائما ؛ لأن الماء تحت الضغط العادى يغلى عند درجة ستين مئوية ، أما الطهاة الذين غابت هذه الحقيقة البدائية عن أذهانهم فقد صادفوا المتاعب فى العادة .

وانتهت وجبة الطعام الكئيبة — ولكنها مغذية — فى صمت ، فى حين أخذت الفئة التائهة تتدبر خططها المفضلة للانقاذ . ولم يكن القلق سائداً بينهم ، إذ كانوا يعلمون أن البحث عنهم يجرى فى تلك اللحظة على نطاق واسع ، وأن المسألة هى مسألة وقت فقط قبل أن يتم العثور عليهم . ولكن يمكن اختصار هذا الوقت إلى ساعات قلائل إذا أمكنهم إرسال نوع ما من الإشارات إلى (فوبوس) .

وبعد الإفطار حاولوا تحريك الطائرة ، ونتيجة لكثير من الدفع والجذب أمكنهم زحزحتها خمسة أمتار كاملة . ثم انغرست الجرارات الزلاقة فى الأرض الرخوة ، وبالنسبة لمجهوداتهم المشتركة يمكن اعتبار الطائرة منغرسة بأكملها . فانفضوا لاهثين ، ورجعوا إلى القمرة لمناقشة الخطوة التالية .

وسأل جيبسون : ألدينا شىء ما أبيض اللون يمكننا بسطه فى مساحة كبيرة ؟

ولم نثمر هذه الفكرة الرائعة حين أسفر التنقيب الشامل فى القمرة عن ستة مناديل وقليل من الخرق القذرة . وأجمعوا على أنه لا يمكن مشاهدتها من (فوبوس) ، حتى فى خير ظروف للرؤية .

وقال هيلتون : لا يوجد أمامنا سوى طريق واحد ، علينا أن ننتزع مصابيح الهبوط ثم نمدها فى أسلاك حتى ينكشف ما وراء الصخرة ، ثم نوجهها إلى (فوبوس) . لم أكن أود القيام بذلك لو أمكن أن نتجنبه ، إذ أنه سيشوه الجناح ، ومما يرثى له أن نمزق طائرة من النوع الجيد .

ودلت ملامح وجـــه الطيار العابسة ، على أنه يشاركه فى هذا الإحساس .

وفجأة خطرت فكرة فى ذهن جيمى ، فقال : لم لا نصنع جهاز

إشارات شمسية ؟ إذا وجهنا بريق مرآة إلى (فوبوس) فإنه يمكنهم رؤيته .

فأجاب جيبسون فى ريبة . عبر ستة آلاف كيلومتر ؟

— ولم لا ؟ لديهم هناك مناظير فلكية تزيد قوة تكبيرها عن ألف . ألا يمكنك رؤية وميض مرآة فى الشمس من بعد ستة كيلومترات فقط ؟

فأجاب جيبسون قائلا : إنى متأكد من وجود خطأ ما فى هذا الحساب ، رغم أنى لا أعرف كنهه ، فإن الأمور لا تجرى بهذه البساطة ولكنى أوافق على الفكرة بوجه عام . والآن من لديه مرآة ؟

وبعد ربع ساعة من البحث ، اضطروا إلى نبذ خطة جيمى . فبكل بساطة ، لم يكن فى الطائرة مرآة .

وقال هيلتون فى تفكير : يمكننا أن نقطع جزءاً من الجناح ثم نصقله ، فذلك يفى بالغرض تقريباً .

— إن سبيكة المغنسيوم لا تقبل كثيراً من الصقل . . قال الطيار ذلك ، وهو مازال مصمما على حماية طائرته حتى النهاية .

وفجأة اندفع جيبسون واقفاً ، ثم صاح فى المجتمعين قائلا : هلا ركلنى أحدكم ثلاث مرات وهو يتعقبنى حول القمرة ؟

فضحك هيلتون وأجاب قائلا : بكل سرور ، ولكن أوضح لنا السبب ..

ودون أن يتنازل بالرد ، ذهب جيبسون إلى مؤخرة الطائرة وأخذ ينقب فى أمتعته ، وظهره للنظارة المتلهفين . ولم يستغرق سوى برهة فى العثور على بغيته ، ثم استدار بسرعة وقال فى لهجة ظافرة : هذا هو الجواب .

وانبعث فجأة وميض ضوء لا يحتمل فملأ القمرة ، غامراً كل ركن بنور ساطع عنيف، وملقيا ظلالا مشوشة على الجدار . كان أشبه بصاعقة انقضت على الطائرة ، ولعدة دقائق أصبح كل منهم كالأعشى ، ظلت ترتسم على شبكية أعينهم صورة ثابتة للقمرة كما بدت فى لحظة الوهج القاسى .

وقال جيبسون فى ندم : إنى آسف ، فلم أستخدمه قط فى أقصى قوته فى مكان مغلق من قبل .. فالمقصود به الأعمال الليلية فى الخلاء .

فقال هيلتون وهو يفرك عينيه : أف ! لقد اعتقدت أنك ستفجر قنبلة ذرية . أيجب أن ترعب كل شخص حتى الموت حين تلتقط صورته ؟

— للاستعمال داخل المبانى يكون هكذا فقط .. قال جيبسون ذلك وهو يوضح مايعنى . ورمش كل منهم مرة ثانية ، ولكن فى هذه المرة

بدا الوهج ملحوظا بصعوبة . ثم استطرد جيبسون قائلا : إنه جهاز خاص صنعته قبل مغادرة الأرض . أردت أن أكون متأكداً من إمكان التصوير الملون ليلا إذا رغبت فى ذلك . وحتى الآن لم تسنح لى فرصة حقيقية لاستعماله .

فقال هيلتون : دعنا نلق نظرة على هذا الشيء .

فناوله جيبسون الكشاف وشرح كيفية استخدامه .

— إنه مصنوع حول مكثف ذى سعة فائقة . يمكنه بشحنة واحدة إطلاق مايقرب من مائة ومضة ، وهو الآن كامل الشحنة تقريبا .

— مائة ومضة ذات طاقة عالية ؟

— نعم ، وهو يطلق مثنين من النوع العادى .

— إذن يحتوى هذا المكثف على طاقة كهربية تكفى لصنع قنبلة متوسطة . أعنى ألا يتسرب منه شيء .

وكان هيلتون يفحص أنبوبة التفريغ الغازية الصغيرة ، فى حجم (بلية) اللعب ، المركبة فى مركز المرآة الصغيرة العاكسة .

وسأله : أيمكننا تركيز هذا الشيء للحصول على شعاع حسن ؟

— هناك خدعة وراء هذا العاكس . . هذه هى الفكرة . إن الشعاع سميك نوعا ما ، ولكنه يفى بالغرض .

وبدا السرور الزائد على وجه هيلتون الذى قال : ينبغى أن يروا هذا الشيء على (فوبوس) حتى فى وضح النهار ، إذا كانوا يراقبون هذه المنطقة بمنظار قوى . ومع ذلك يجب ألا نبدد الومضات .

وسأل جيبسون : إن (فوبوس) الآن قد ارتفع إلى موضع مناسب. أليس كذلك ؟ سأخرج كى أسدد ومضة فى التو .

ونهض على قدميه ثم بدأ يصلح من وضع جهاز التنفس .

وحذره هيلتون قائلا : لاتستخدم أكثر من عشر ومضات ، إذ نريد أن ندخرها لليل . وعليك أن تقف فى أى ظل يصادفك .

وسأل چيمى : أيمكننى الخروج أنا أيضاً ؟

فأجابه هيلتون: حسناً ، ولكن لازما بعضكما بعضاً ، ولا تتجولا بعيداً بغية الاستكشاف وسأبقى هنا لأرى ما يمكن صنعه فى شأن مصابيح الهبوط .

ونتيجة لوجود خطة محددة للعمل بين أيديهم ، ارتفعت روحهم المعنوية بشكل ملحوظ .

وحث جيبسون الخطى فى الوادى كغزال صغير ، وهو يحتضن آلة تصويره وجهازه الكشاف الثمين . ومن الحقائق الغريبة أن الإنسان فى المريخ سرعان ما ينظم عمل عضلاته لتناسب الجاذبية المنخفضة ، ولذلك لا تزيد خطواته عادة عنها فى الكرة الأرضية . ولكن الطاقة الكامنة

تظهر عندما تقتضيها الضرورة أو الروح المعنوية العالية .

وسرعان ما خرجا من ظلال الصخرة إلى حيث يمكنهما رؤية السماء دون عائق .

وكان فوبوس فى تلك اللحظة عالياً نحو الغرب ، كقمر صغير فى التربيع سرعان ما يتضاءل ليصير هلالا رفيعاً فى أثناء تسابقه إلى جهة الجنوب . ورمقه جيبسون فى تفكير وهو يتساءل عما إذا كان هناك أحد يراقب هذه المنطقة من المريخ فى تلك اللحظة . وبدا له الأمر محتملا ، إذ أن المكان التقريبي للتصادم معروف . وأحس بدافع سخيف يدعوه للتواثب وتلويح ذراعيه .. بل يدعوه لأن يصيح : « نحن هنـــا ، ألا يمكنكم مشاهدتنا ؟ ! » .

كيف تبدو هذه المنطقة فى المناظير التى تكتسح الآن (إيثريا) ، كما كان يتمنى ؟ سيظهر فيها حتما منطقة النباتات المرقشة بالاخضرار ، والتى يدب خلالها . أما الصخرة الهائلة فستبدو واضحة كشريط أحمر يلقى على الوادى ظلالا ممتدة حين تنحدر الشمس من عليائها . أما الآن فيكاد لا يكون هناك أى ظل ، لأن الوقت لم يجاوز الظهر سوى بساعات قلائل . وقرر جيبسون أن خير مايفعله هو أن يندس — قدر استطاعته — فى أكثر مناطق النباتات ظلمة .

وبعد حوالى كيلو متر من السفينة المحطمة ، أخذت الأرض تنحدر

ببطء ، وهنا فى قاع الوادى يوجد حزام متسع بنى اللون يبـدو أنه مغطى بالأعشاب الطويلة . واتجه جيبسون رأساً نحو هذا المـكان يتبعه چيمى عن كثب .

ووجدا نفسيهما وسط نباتات رقيقة ، كالجلد من نوع لم تقع عليه أبصارهما من قبل . وكانت الأوراق تنمو رأسية من الأرض على هيئة شرائط طويلة رفيعة ، ويغطيها قشور لا حصر لهـا بدت كما لو كانت تحتوى على بذور . وكانت الجوانب الملساء كلها متجهة نحو الشمس . وأثار اهتمام جيبسون ما لاحظه من أن الجوانب المستضيئة من الأوراق سوداء اللون ، وكانت النواحى التى تغطيها الظلال بيضاء تميل إلى اللون الرمادى . كانت حيلة بسيطة ، ولـكنها فعـالة ، للإقلال من فقدان الحرارة .

ولم يضع جيبسون وقتاً فى دراسات نباتية ، بل شق طريقه وسط الغابات الصغيرة . ولم تـكن النباتات كثيفة إلى حد كبير ، فـكان المرور بينها غير عسير . ولما سار قدراً كافياً ، رفع جهازه الـكشاف وصوبه نحو (فوبوس) .

وكان التابع فى تلك اللحظة هلالا رفيعاً غير بعيد عن الشمس ، وأحس جيبسون بحماقة كبيرة لتصويب الـكشاف إلى أشد لمعان لسماء الصيف . ولـكن اختيار الوقت كان موفقاً تماماً ، لأن جانب (فوبوس)

المتجه نحوهم كان مظلما ، وبذلك يمكن للمناظير أن ترصد فى ظروف حسنة .

وأطلق جهازه عشر مرات على خمس مجموعات مزدوجة تفصل بينها فترات مناسبة . وبدت هذه أكثر الطرق اقتصاداً ، وفى نفس الوقت يبدو واضحا أن الإشارات غير طبيعية .

وقال جيبسون : هذا يكفينا اليوم ، وسنحتفظ ببقية ذخيرتنا إلى ما بعد الظلام . والآن دعنا نلق نظرة على هـذه النباتات . أتعلم بأى شىء تذكرنى ؟

فأجاب جيمى على التو : أعشاب مائية زائدة النمو .

— أصبت من أول مرة . إنى لأتساءل عما فى هذه القشور؟ أمعك سكين ؟ . . شكراً .

وبدأ جيبسون ينحت فى أقرب ورقة حتى ثقب إحـــدى البالونات الصغيرة السوداء . وكان واضحا أنها تحتوى على غاز تحت ضغط لا يستهان به ، إذ انبعث فحيح خافت عندما اخترقتها السكين .

فقال جيبسون : ما أعجبها من مادة ! دعنا نأخذ معنا بعضاً منها !

وفى شىء من الصعوبة ، اقتطع إحدى السيقان الطويلة السوداء قرب جذورها . وبدأ سائل بنى قاتم يتسرب من الطرف المقطوع ، ويخرج معه فقاعة غازية دقيقة . وبدأ جيبسون رحلة العودة إلى الطائرة حاملا ذلك التذكار على كتفه .

ولم يكن يعلم أنه يحمل معه مستقبل أحد العوالم .

ولم يتقدما سوى بضع خطوات حتى اعترضتهما رقعة أشد كثافة ، فكان عليهما أن يلتفا حولها . ولم يكن هناك أى خطر من أن يضلا الطريق ، وخاصة فى هذه المنطقة الصغيرة ، إذ كانت الشمس هادياً لهما ، فلم يحاولا اقتفاء آثار أقدامهما عند المجىء بالضبط . وكان جيبسون فى المقدمة ، ولم يكن السير أمرا يسيرا . وكان يراود نفسه كى يبتلع كبرياءه ويبادل چيمى مكانه ، حين وافته النجدة بوصوله إلى درب ضيق متعرج يؤدى تقريباً إلى الاتجاه الصحيح .

وقد يبدو لأى مشاهد ، أن ما يحدث هو دليل واضح ، موجب للاهتمام ، عن بطء الذهن فى بعض الأحيان . فقد سار جيبسون وچيمى ست خطوات كاملة قبل أن يفطنا إلى حقيقة بسيطة ـ ولكنها تضعضع الحواس ـ وهى أن الدروب ، عادة ، لاتصنع نفسها بنفسها .

* * *

— لقد حان الوقت لعودة رجلينا القائمين بالاستكشاف ، أليس كذلك ؟.. قال الطيار ذلك وهو يساعد هيلتون فى نزع المصابيح الكشافة من تحت جناح الطائرة . لقد تبين أن القيام بهذا العمل هو مهمة مباشرة إلى حد ما ، وعنى هيلتون أن يجد داخل الطائرة من الأسلاك ما يكفى لمد المصابيح بعيداً عن الصخرة بعدا كبيرا يجعلها ظاهرة لـ (فوبوس)

عند شروقه ثانياً . لن تكون فى قوة سطوع كشاف جيبسون ، ولكن أضواءها غير المتقطعة تزيد من فرصة ملاحظتها .

وسأل هيلتون : كم مضى عليهما منذ ذهابهما ؟

— حوالى أربعين دقيقة . أتمنى أن يكون لديهما الإدراك الكافى كيلا يضلا الطريق .

— إن جيبسون أحرص من أن يهيم على وجهه . ومع ذلك ، لا يمكن أن أثق بالفتى چيمى نفسه ، فقد يود البدء فى البحث عن أهل المريخ !

— أوه ، هاهما قادمان ، ويبدو أنهما على شيء من العجلة .

وبرز شبحان صغيران من مسافة متوسطة ، وكانا يقفزان عبر الوادى وكان إسراعهما واضحاً حتى إن مراقبيهما أسقطا ما معهما من أدوات ، وأخذا يرقبان اقترابهما فى فضول متزايد . وكانت الحقيقة الواقعة عن عودة جيبسون وچيمى دون إبطاء ، تمثل فى حد ذاتها انتصارا للحذر وضبط النفس . فقد وقفا لحظة طويلة فى دهشة تشوبها الريبة وهما يحدقان النظر فى الممر الممتد بين النباتات الرقيقة ذات اللون البنى . ففى الكرة الأرضية ، يعتبر ذلك شيئاً مألوفا تماماً ، فما هو إلا درب صنعته الماشية عبر التلال ، أو الحيوانات المفترسة خلال الأحراش . ولم يلحظاه لأول وهلة بسبب شكله المألوف ، وحتى حين أجبر عقلاهما على التسليم

بحقيقة وجوده ، ظلا يحاولان تعليله من نواح أخرى .

وكان جيبسون أول من تـكلم فى صوت خافت جداً . . تقريباً كما لو كان يخشى أن يسترق أحدهما السمع .

— إنه ممر حقيقى يا چيمى ، ولـكن بحق السموات . . ما الذى يمكن أن يفعل ذلك ؟ لم يأت أحد إلى هنا قبل الآن .

— لا بد وأن يكون نوعا من الحيوانات .

— نوعا متوسط الضخامة .

— قد يكون فى حجم الحصان .

— أو النمر .

وسببت الملاحظة الأخيرة صمتاً يشوبه القلق . قال چيمى: حسناً ، إذا حدثت معركة ، سيقوم كشافك ببث الرعب فى نفس أى شىء .

فأجاب جيبسون قائلا: فقط فى حالة ما إذا كانت له أعين ، ولـكن هب أن له حاسة أخرى ؟

وكان چيمى يحاول التفـكير فى أسباب معقولة للاستمرار فى الجدال .

— إنى واثق من إمـكاننا الجرى السريع ، والقفز من أى شىء آخر فى المريخ .

وكان جيبسون يود أن يصدق أن قراره ينبعث عن فطنة لا عن جبن ، حين قال فى حزم : لن نغامر بأية مخاطرات ، سنعود أدراجنا لإنباء الآخرين . وحينئذ سنفكر فى البحث والتنقيب .

وكان چيمى عاقلا فلم يتذمر ، ولكنه ظل يتطلع خلفه فى شوق بعد أن استدارا عائدين إلى الطائرة . فمهما تكن مساوئه ، لم يكن من بينها افتقاره إلى الجرأة .

واستغرق الأمر بعض الوقت لإقناع الآخرين بأنهما لا يحاولان القيام بدعاية رخيصة . وفضلا عن ذلك كان الجميع يعلمون السبب فى عدم وجود حياة حيوانية فى المريخ . كانت مسألة تجديد خلايا الأجسام : فالحيوانات تستهلك وقودا أكثر من النباتات، ولذا لا يمكنها أن تعيش فى هذا الغلاف الجوى الخفيف الذى يكاد يكون خالياً من الطاقة . لقد سارع علماء الحيوان إلى إقرار هذه الحقيقة فور تحديد هذه الظروف على سطح المريخ بدقة ، واعتبرت مسألة الحياة الحيوانية فى الكوكب مفروغا منها طوال العشر السنوات الماضية . . فيما عدا الخيال الذى لا يبرأ منه .

وقال هيلتون : حتى لو رأيتما ما تعتقدان ، فلا بد من وجود تفسير طبيعى .

فرد جيبسون قائلا : تعال وشاهد بنفسك ، أؤكد لك أنه درب وطئته الأقدام .

فقال هيلتون : أوه ، إنى آت .

وأضاف الطيار قائلا : وأنا أيضاً .

— مهلا لحظة ! لا يمكننا أن نذهب جميعاً ، إذ يجب أن يتخلف أحدنا على الأقل .

وأحس جيبسون لبرهة بالرغبة فى التطوع ، ثم أدرك أنه لن يغتفر ذلك لنفسه قط . قال فى حزم : أنا الذى عثرت على الممر .

فأشار هيلتون قائلا : يبدو كما لو كنت على وشك مشاهدة تمرد . هل مع أحدكم قطعة من النقود ؟ سيتخلف من ثلاثتكم من يحرز جانباً من العملة مختلفا عن الآخرين .

وقال الطيار ، بعد أن أحرز الصورة الوحيدة بينهم : على أية حال ، إنها مطاردة غير مجدية ، وسأنتظر عودتكم خلال ساعة . أما إذا غبتم أكثر من ذلك، فأود منكم إحضارأميرة مريخية غير زائفة .. كما يقول « إدجار رايس باروز » .

ورغم ريبة هيلتون ، فإنه أخذ الأمر مأخذ جد . فقال : سنكون ثلاثة ، ولذا لا خوف علينا حتى ولو صادفنا أى شىء غير ودى. ولكن فى حالة عدم عودة أحدنا ، عليك أن تلزم مكانك ولا تذهب للبحث عنا . أفهمت ؟

— حسناً جداً . سألزم مكانى .

وانطلق ثلاثتهم عبر الوادى فى اتجاه الغـابة الصغيرة يتقدمهم جيبسون . وبعد وصولهم إلى السيقان الطويلة الرفيعة لـ « أعشاب البحر» لم يصادفوا صعوبة فى العثور على الممر ثانياً . وحملق فيه هيلتون فى صمت دقيقة كاملة ، فى حين رمقه جيبسون وچيمى بنظرات معناها «ألم أقل لك ذلك ؟ ! » ثم أشار قائلا : ناولنى كشافك يا مارتن ، فسأسير فى المقدمة .

كان من الحماقة أن يجادله ؛ فقد كان هيلتون أطول منه ، وأقوى ، وأكثر يقظة . فسلمه جيبسون سلاحه دون أن ينبس ببنت شفة .

لا يوجد إحساس أشد غرابة مما تشعر به وأنت سائر فى درب ضيق بين حائطين مرتفعين من الأوراق النباتية ، تتوقع فى أى لحظة أن تتقابل وجها لوجه مع مخلوق مجهول تماما ، وربما يبادرك بالعـدوان . وحاول جيبسون أن يطمئن نفسه بتذكيرها أن الحيوانات التى لم تواجه الإنسان من قبل ، قلما تـكون ضارية .. رغم وجود ما يكفى من استثناءات لهذه القاعدة ، ليجعل الحياة مثيرة .

وما إن بلغوا منتصف الطريق خلال الغابة حتى تفرع الدرب إلى طريقين . وانحرف هيلتون إلى اليمين ، ولـكن سرعان ما وجده درباً لا منفذ له . كان ينتهى بمنطقة جلاء ، عرضها حوالى عشرين مترا ، حيث قطعت كل النباتات — أو أكلت — إلى ماقرب سطح الأرض ،

فلم يكن ظاهراً سوى جذوعه . وكانت هذه الجذوع قد بدأت تنبت ثانياً وكان من الواضح أن هذه الرقعة قد هجرتها منـذ فترة من الوقت تلك المخلوقات التى كانت هنا .. أيا كان نوعها .

وهمس جيبسون قائلا : آكلات العشب .

فأردف هيلتون قائلا : وعلى قدر من الذكاء . أترى كيف تركت الجذور لتنمو ثانياً ؟ دعنا نعد لنسلك الطريق الأخرى .

وبعد خمس دقائق صادفوا المنطقة الخالية الثانية . كانت أكبر كثيراً من الأولى .. ولم تكن خالية .

واشتدت قبضة هيلتون على الكشاف ، وأعـد جيبسون آلة تصويره بسهولة فى حركة الخبير المتمرن ، ثم بدأ يلتقط أشهر الصور التى أخذت فى المريخ . واسترخت أعصاب الجميع ، ثم وقفوا ينتظرون أن يلحظ أهل المريخ وجودهم .

فى تلك اللحظة ، تلاشت قرون من الأوهام والأساطير وأصبحت كل أحلام الإنسان عن جيران قريبة الشبه به فى خبر كان . وانقضت معها — غير مأسوف عليها — وحوش (ويلز) ذات الزوائد الحساسة والفصائل الأخرى من الأهوال الزاحفة . وتلاشت أيضاً خرافة مخلوقات متوقدة الذكاء ، باردة الطبع قاسية ، قد تتطلع إلى الإنسان فى ازدراء

من علياء حكمتها . . وقد تزيحه جانباً دون عمد أو قصد كما قد يطأ هو نفسه إحدى الحشرات الزاحفة .

كان فى الممر عشرة من المخلوقات ، شغلها جميعاً تناول الطعام عن الانتباه إلى الدخلاء . كانت تشبه فى مظهرها حيوانات الكنغر المثلثة الجسم ، وكانت أجسادها شبه الكروية تتزن على ساقين خلفيتين طويلتين نحيلتين . وكانت خالية من الشعر ، يكسو جلودها لمعان غريب كالجلد المصقول . وتنبت فى أعلى أجسادها ذراعان رفيعتان ـ تبدوان تامتى المرونة ـ وتنتهيان بأكف دقيقة كمخالب الطير .. صغيرة واهنة ، حتى ليعتقد المرء أنها غير ذات فائدة عملية . وكانت رؤوسها ملتصقة بالجذع مباشرة دون أن يفصلها ما يحتمل أن يطلق عليه اسم رقبة ، وفيها عينان كبيرتان شاحبتان ذات حدقتين واسعتين ولم تكن هناك أى فتحات للأنف . . فقط فم غريب الشكل على هيئة مثلث ذى ثلاثة مناقير غلاظ كأوراق نباتية غير تامة النمو . ويتدلى من الرأس فى ترهل ، أذنان كبيرتان شبه شفافتين ، تختلجان من وقت لآخر ، وأحيانا تنطوى على هيئة أبواق تبدو كما لو كانت ذات كفاية عالية لالتقاط الأصوات ، حتى فى هذا الغلاف الجوى الرقيق .

وكان أضخم هذه الوحوش فى طول هيلتون ، أما باقيها فكانت أصغر من ذلك بكثير ، ولم يكن من محيص سوى أن نطلق على أحد

الصغار — يقل طوله عن متر — تلك الصفة المفرطة فى الاستعمال وهى .. « رقيق » . كان يقفز فى انفعال محاولا الوصول إلى الأوراق الغضة ، ومن حين لآخر يطلق صيحات رقيقة خافتة لا يمكن مقاومة ما تثيره من شفقة .

وأخيراً سأل جيبسون فى همس : ما مدى ذكائها فى رأيك ؟

— تصعب الإجابة على ذلك . لاحظ حرصها ألا تتلف ما تأكله من نباتات . وبالطبع قد يرجع ذلك إلى الغريزة البحتة . . . كما تدرك النحل كيف تبنى خلاياها .

— إنها تتحرك فى بطء شديد ، أليس كذلك ؟ أعجب ما إذا كانت من ذوات الدم الحار .

— لا أرى باعثاً ليكون عندها دم على الإطلاق . لابد أن يكون تجدد خلاياها غريباً جداً حتى يمكنها أن تعيش فى هذا الجو .

— حان الوقت كى تلحظ وجودنا .

— إن أضخمها يعلم بوجودنا هنا . لقد ضبطته يراقبنا من جانب عينيه . ألا تلاحظ كيف يثابر على توجيه أذنيه نحونا .

— دعنا نخرج إلى الخلاء .

وأنعم هيلتون النظر فى هذا الاقتراح ، ثم أجاب قائلا : لا أرى كيف يمكنها أن تصيبنا بسوء ، حتى ولو أرادت ذلك . إن هذه الأيدى

الصغيرة تبدو واهنة إلى حد ما.. ولكنى أعتقد أن هذه المناقير الثلاثية يمكن أن تحدث بعض الأذى . سنتقدم ، فى بطء شديد ، مدى ست خطوات . فإذا أقبلت نحونا سأطلق عليها ومضة من الكشاف بينما تولى أنت مدبرا . إنى واثق أننا نستطيع سبقها بسهولة ، فمن المؤكد أن مظهر بنائها لا يساعدها على السرعة .

وتقدموا فى الممر وهم يتحركون فى بطء آملين أن يبدو هذا كثقة فى النفس لا كاستراق للخطى . ولم يعد هناك الآن أدنى شك فى رؤية أهل المريخ لهم ، فقد أخذت تحدق فيهم دستة من الأعين الواسعة الهادئة ، ثم تحولت عنهم بينما واصل أصحابها العمل الأهم وهو . . . تناول الطعام .

وقال جيبسون فى شىء من القنوط : لا يبدو عليها حتى الفضول. هل نحن على هذه الدرجة من عدم الأهمية ؟

— وى . . لقد اكتشف صغيرها وجودنا . ترى ماذا يدور بخلده ؟

وكان المريخى الصغير قد توقف عن الأكل وأخذ يحدق فى الدخلاء وملامحه تعبر عن أى شىء ، ابتداء من أقصى درجات عدم التصديق إلى توقع المؤمل فى الحصول على وجبة أخرى . وصدرت عنه صرختان حادتان وجاوبه أحد الكبار بخوار فى عدم اكتراث . ثم بدأ يقفز نحو النظارة المتشوقين .

وتوقف على بعد خطوتين ، دون أن يبدو عليه أى أثر للخوف أو الحذر .

وقال هيلتون فى وقار : كيف حالك ؟ دعنى أقدم لك أنفسنا . إلى يمينى چيمى سبنسر ، وإلى يسارى مارتن جيبسون . ولكن أخشى أننى ألتقط اسمك بوضوح .

فصرخ المريخى الصغير قائلا : سكويك .

— حسناً يا سكويك ، أية خدمة يمكننا أن نؤديها لك ؟

وبسط المخلوق الصغير يداً مستكشفة ، وأخذ يجذب ملابس هيلتون ثم قفز ناحية جيبسون الذى كان مشغولا فى تصوير مناسبة تبادل التحيات . ومرة ثانية مد مخالبه متقصيا ، فى حين أبعد جيبسون آلة التصوير حتى لا ينالها ضرر . ومد له يده فانطبقت عليها الأصابع الصغيرة بقوة تثير الدهشة .

وقال جيبسون ، بعد أن تخلص منه بصعوبة : مخلوق صغير ودود ، أليس كذلك على الأقل ؟ ليس متكبرا كأقاربه .

وحتى الآن لم يعر الكبار أى انتباه لتطورات الموقف . كانوا لا يزالون يمضغون فى وداعة فى الجانب الآخر من الممر .

— أتمنى لو كان معنا ما نعطيه له ، ولكنه لا أظنه يقدر على أكل أى نوع من أطعمتنا . أعرنى سكينك يا چيمى . سأقطع بعضاً

من عشب البحر ، كى أثبت له أننا أصـــدقاء .

وقبلت هذه الهدية فى امتنان ، ثم أكلت على الفور ، وامتدت الأيدى الصغيرة طالبة المزيد .

فقال هيلتون : يبدو أنك صرت محبوبا يامارتن .

فتنهد جيبسون وقال : أخشى أنه حب منفعة . ما هذا ! دع آلة تصويرى وشأنها . لا يمكنك أن تأكل ذلك .

وقال هيلتون فجأة : ويحى ! هنا شىء شاذ . ما رأيك فى لون هذا المخلوق الصغير ؟

— لماذا ، إن لونه بنى ناحية الأمام و . . أوه ، رمادى قـــذر من الخلف .

— حسناً ، اذهب إلى جانبه الآخر وقدم له قضمة طعام أخرى .

فأطاع جيبسون ، ودار سويك على عجزيه حتى يتمكن من الإمساك بالمضغة الجديدة . وحين فعل ذلك ، حدث شىء خارق للعادة .

ذوى اللون البنى الذى يغطى مقدمة الجسم فى بطء ، وتحول فى أقل من دقيقة إلى رمادى أغبر . وفى نفس الوقت ، حدث العــكس تماما فى ظهر المخلوق حتى تم التبادل الـكامل .

فهتف جيبسون : ياللعجب ! إنه أشبه بالحرباء . ماذا تعتقد الغرض من ذلك ؟ التلون الوقائى ؟

— كلا ، إنه أعمق من ذلك . انظر إلى الأخريات هناك ، سترى أن لونها دائما بنى — أو قريب من السواد — فى الجانب المتجه إلى الشمس . إنه ، بكل بساطة ، تدبير للحصول على أقصى ما يمكن من حرارة ، ثم تجنب إشعاعها مرة ثانية . إن النباتات تفعل نفس الشىء .. أتساءل عمن ابتدع ذلك ؟ إنه غير ذى فائدة لحيوان سريع التحرك ، ولكن بعضاً من هذه المخلوقات الكبيرة لم تغير وضعها خلال الخمس الدقائق الأخيرة .

وسارع جيبسون إلى العمل على تصوير هذه الظاهرة الغريبة . . ولم يكن ذلك فى حاجة إلى مهارة ، إذ أنه كلما تحرك ، استدار سكويك دائما نحوه فى أمل ، وجلس ينتظر فى صبر . وحين فرغ من مهمته ، أشار هيلتون قائلا : يؤسفنى أن أوقف هذا المشهد المؤثر ، ولكننا وعدنا بالعودة خلال ساعة .

— ليس من الضرورى أن نذهب جميعاً . كن فتى طيباً يا جيمى ، وعد أدراجك لتذكر أننا فى أمان .

ولكن جيمى كان يحدق النظر فى السماء .. كان أول من فطن إلى وجود طائرة تحلق فوق الوادى على ارتفاع كبير طوال الدقائق الخمس الأخيرة .

وأزعج هتافهم الجماعى أهل المريخ الذين كان يرعون فى سكون ،

فنظروا حولهم فى استياء . وقد فزع سكويك إلى درجة أنه وثب إلى الوراء فى قفزة هائلة ، لكن سرعان ما تغلب على خوفه وعاد أدراجه ثانياً .

— سأراك فيما بعد ! . . صاح جيبسون فوق كتفه وهم يهرعون خارج المرعى . أما الأهالى فلم يعيروهم أدنى انتباه .

وبلغوا منتصف الطريق إلى خارج الغابة الصغيرة ، حين أحس جيبسون فجأة أن هناك من يتعقبه ، فتوقف ونظر خلفه . كان سكويك يجر جسمه متثاقلا ، وإن ظل يقفز خلفه بثبات .

وصاح جيبسون ، وهو يرفرف بذراعيه كخيال (المقاتة) شارد الفكر : هش ! عد إلى أمك ! لا يوجد معى ما أعطيك إياه .

وكان ذلك عديم الجدوى ، وساعدت لحظة توقفه سكويك على أن يلحق به . وكان الآخرون قد غابوا عن بصره غافلين عن تخلف جيبسون وبذلك فاتهم مشهد مثير جداً حين حاول جيبسون دون أن يخدش شعور سكويك ، أن يتخلص من صديقه الجديد .

وبعد خمس دقائق ، كف عن الطريق المباشر ولجأ إلى الخداع . ومن حسن حظه أنه لم يكن قد أعاد إلى چيمى سكينه ، وأفلح بعد كثير من اللهث والتربيت فى جمع كومة صغيرة من (أعشاب البحر) وضعها أمام سكويك . وكان يأمل أن ذلك سيبقيه مشغولا بعض الوقت .

وما كاد يفرغ من ذلك حتى عاد هيلتون وچيمى مسرعين لمعرفة ما حدث له .

وأجابهم قائلا : حسناً . . هأنذا آت ، فقد كان على أن أتخلص من سكويك بطريقة ما . وذلك سيمنعه من تعقبنا .

* * *

وكان القلق قد بدأ يستولى على الطيار فى الطائرة المحطمة ، إذ كادت الساعة أن تنقضى دون أن يظهر أى أثر لرفاقه . وحين تسلق سطح هيكل الطائرة أمكنه الرؤية حتى منتصف الوادى ، ومنطقة النباتات المظلمة التى اختفوا داخلها . وكان يتفحص ذلك ، حين جاءت طائرة الإنقاذ محلقة من الشرق وبدأت تدور حول الوادى .

وحين وثق أنها اكتشفت مكانه ، وجه اهتمامه إلى الأرض ثانياً . وفى تلك اللحظة رأى مجموعة من الأشباح خارجة إلى الخلاء المنبسط .. وبعد برهة أخذ يفرك عينيه غير مصدق ما يراه .

لقد ذهب ثلاثة أشخاص إلى الغابة ، ولكن أربعة يخرجون منها الآن . وكان رابعهم يبدو شخصاً غريب المنظر حقا إلى حد كبير .

أصبحت زيارة (تريفيوم شارونتس) و (بورت شياپاريللى) غير مرغوب فيه قطعاً ، بعد ذلك الحادث الذى اشتهر فيما بعد بأنه أعظم حادث اصطدام ناجح فى تاريخ استكشاف المريخ . وفى الحقيقة ، ود جيبسون لو يؤجل الرحلة بأكملها ويعود فوراً إلى (بورت لويل) مع غنيمته . لقد كف سريعاً عن جميع محاولاته للتخلص من سكويك ، ولما كان كل من فى المستعمرة على أحر من الجمر لرؤية مريخى حى حقيق ، فقد تقرر أن يصطحبوا معهم المخلوق الصغير عند عودتهم .

ولكن ما كانت (بورت لويل) لتسمح لهم بالعودة ، وفعلا ، كان أمامهم عشرة أيام قبل مشاهدة العاصمة مرة ثانية . فقد كانت تدور تحت القباب الهائلة ، إحدى المعارك الحاسمة للسيطرة على الكوكب كانت معركة لم يسمع بها جيبسون إلا عن طريق التقارير اللاسلكية .. معركة صامتة ولكنها مهلكة ، حمداً لله أنها فاتته .

لقد انتشر الوباء الذى تمناه الدكتور سكوت . وحين بلغ ذروته ، أصبح عشر سكان المدينة مصابين بحمى المريخ . ولكن المصل المستورد من الأرض سيطر على الموقف ، وانتهت المعركة بالنصر فيما عدا ثلاث إصابات مميتة . كانت هذه آخر مرة تهدد فيها الحمى المستعمرة .

كان اصطحاب سكويك إلى (بورت شياپاريللى) ينطوى على متاعب جمة ، إذ معناه نقل كميات كبيرة من حاجياته الغذائية . وساد الشك بادىء الأمر فى إمكانه الحياة فى جو من القباب المحتوى على الأكسجين ، ولـكن سرعان ماظهر أن ذلك لم يؤثر فيه إطلاقا ، رغم أنه أنقص من شهيته إلى حد ملحوظ . ولم يعرف تفسير هـذا الحادث السعيد إلا بعد وقت طويل . أما السبب فى تعلق سكويك بجيبسون فلم يعرف على الإطلاق . وقد اقترح أحدهم فى قسوة ، أن سبب ذلك هو قرب التشابه بينهما .

وقبل مواصلة الرحلة ، قام جيبسون وزملاءه ، ومعهم قائد طائرة الإنقاذ وفرقة الإصلاح التى وصلت فيما بعد ، بعدة زيارات لعائلة أهل المريخ الصغيرة . ولم يـكتشفوا أى مجموعة أخرى سواها ، وتساءل جيبسون عما إذا كانت هذه هى آخر النماذج الباقية فى الـكوكب . وكما تبين فيما بعد ، لم يكن على صواب فى تساؤله .

كانت طائرة الإنقاذ تقوم بالبحث عنهم على طول خط طيرانهم ، حين تلقت رسالة لاسلـكية من فوبوس عن وجود ومضات ساطعة فى (إيثريا) . « أما كيف أطلقت هذه الومضات ، فقد كانت سرا حير الجميع إلى حد كبير حتى تقدم جيبسون بالتفسير فى فخر هو جدير به » . وحين اكتشفوا أن تغيير الوحدات النفاثة فى طائرتهم ستستغرق بضع ساعات فقط ، قرروا الانتظار حتى يتم الإصلاح ، واستغلال الوقت فى

دراسة أهل المريخ فى مأواهم الطبيعى . وفى نفس الوقت بدأ جيبسون يخمن سر بقائهم أحياء .

من المحتمل أنهم كانوا يتنفسون الأكسجين فى قديم الزمان ، وما زالت تفاعلاتهم الحيوية تعتمد على هذا العنصر . وليس فى إمكانهم الحصول عليه من التربة ، حيث يوجد منه ملايين الملايين من الأطنان ، ولكن يمكن للنباتات التى يأكلونها أن تزودهم به . وسرعان ما اكتشف جيبسون أن الفقاعات العديدة فى السيقان الشبيهة بأعشاب البحر تحتوى على الأكسجين تحت ضغط كبير . وتمكن أهل المريخ ، عن طريق إبطاء الاحتراق الكيموى ، من إيجاد توازن — أقرب إلى التعايش — مع النباتات التى تزودهم — بمعنى الكلمة — بالطعام والهواء . كان توازنا لا يؤمن جانبه ، يعتقد المرء أنه قد ينهار فى أى وقت تحت تأثير كارثة طبيعية . ولكن الظروف على سطح المريخ وصلت إلى حالة استقرار منذ أمد بعيد ، ويحتمل أن يبقى التوازن أحقابا تالية . . مالم يعكر الإنسان صفوه .

واستغرقت الإصلاحات أكثر قليلا مما كان متوقعاً ، ولم يصلوا إلى « بورت شياپاريللى » إلا بعد ثلاثة أيام من مغادرتهم « بورت لويل » وكانت المدينة الثانية فى المريخ تضم أقل من ألف شخص ، يعيشون داخل قبتين أقيمتا على نجد طويل ضيق . وكان هذا هو مكان أول هبوط على المريخ ، ولذا يعتبر موقع المدينة حدثاً تاريخياً حقا . ومرت بعد ذلك

بضع سنوات قبل أن يتم معرفة مواد الـكوكب معرفة أفضل ، وحينئذ تقرر نقل مركز المستعمرة إلى (لويل) وعدم التوسع فى (شياپاريللى) أكثر من ذلك .

كانت المدينة الصغيرة — من نواح كثيرة — صورة طبق الأصل من منافستها الأكبر منها حجما والأحدث منها عهدا ؛ وكان تخصصها ينحصر فى هندسة الـكهرباء ، والبحوث الجيولوجية .. أو بمعنى المساحة الجوية ، واستكشاف المناطق المجاورة . أما الحقيقة الواقعة عن عثور جيبسون ورفاقه مصادفة على أعظم كشف تم حتى ذلك الوقت فى المريخ ، وعلى أقل من نصف ساعة بالطائرة من المدينة ، فقد أشاعت الهم والأسى فى النفوس .

ولا بد أن أثر الزيارة قد عطل كل نشاط طبيعى فى (بورت شياپاريللى) ، إذ حينما ذهب جيبسون كان كل عمل يتوقف بينما يتجمع الجمهور حول سكويك . وكانت إحدى هواياتهم المفضلة ، هى استدراجه إلى مكان منتظم الاستضاءة ، ثم مراقبة لونه وهو يتحول إلى الأسود فى جميع أجزاء جسمه ، عندما يحاول أن يستخلص — فى سعادة — أقصى فائدة من هذا الوضع . وفى (شياپاريللى) واتت أحدهم فكرة شنيعة ؛ إذ أخذ يلصق رسومات مبسطة إلى صور سكويك ثم يصور النتيجة قبل نسيانها . وذات يوم ضايق جيبسون عثوره على صورة

لرفيقه المدلل تحمل صورة هزلية غير متقنة ، ولـكن يمكن تمييزها لأحد نجوم التليفزيون المشهورين .

ولم تـكن إقامتهم فى (بورت شياپاريللى) سعيدة بوجه عام . فبعد الأيام الثلاثة الأولى كانوا قد رأوا كل ما يستحق المشاهدة ، ولم يثر اهتمامهم تلك الرحلات القليلة التى قاموا بها فى الخلاء المجاور . وكان جيمى دائم القلق على أيرين ، فقام باتصالات مع (بورت لويل) كلفته غالياً . وكان جيبسون على أحر من الجمر للعودة إلى المدينة الـكبيرة التى كان يطلق عليها ، حتى عهد قريب ، اسم قرية مفرطة فى الحجم. وكان هيلتون ، الذى يبدو أنه يعتصم بصبر لا حـدود له ، هو الوحيد الذى تقبل الحياة بصـــدر رحب واسترخاء ، فى حين ضج من حوله بالشكوى .

وخلال إقامتهم فى المدينة ، حدث شىء واحد مثير . كان جيبسون يتساءل فى كثير من الأحيان ، وفى شىء من الخوف ، عما يحدث إذا أصاب قبة الضغط أية أضرار . وتلقى الإجابة على تساؤله — أو بقدر ما كان يرغب فى معرفته — بعد ظهر يوم هادىء حين كان مجتمعاً برئيس مهندسى المدينة فى مكتبه . وكان سكويك فى صحبتهم ، مرتـكزاً على ساقيه الخلفيتين المرنتين كدمية يتعذر وجودها فى غرف الأطفال .

وبينما كان الاجتماع منعقدا ، لاحظ جيبسون أن ضحيته ظهرت عليه

علامات الاضطراب أكثر من المعتاد . كان من الواضح أن ذهنه مشغول بأمر بعيد، وأنه يبدو عليه توقع حدوث شيء ما . وفجأة ، ودون إنذار ، اهتز المبنى بأكمله اهتزازاً طفيفاً كما لو كان قد أصيب بزلزال . وتتابعت سريعاً صدمتان أخريان على فترات متساوية . ثم انبعث صوت من المذياع المثبت فى الحائط يصيح فى عجلة « انفجار ! تجربة فقط ؟ أمامكم عشر ثوان للوصول إلى المخبأ انفجار ! تجربة فقط ! »

وقفز جيبسون من مقعده ، ثم أدرك على الفور أن ليس هناك ما يمكنه عمله . وانبعثت من بعيد أصوات صفق أبواب .. ثم ساد الصمت . ونهض المهندس واقفاً على قدميه ثم سار إلى النافذة المطلة على الشارع الرئيسى الوحيد فى المدينة .

وقال : يبدو أن الجميع لجأوا إلى المخبأ . وبطبيعة الحال ، يستحيل جعل هذه الاختبارات مفاجأة تامة . يجرى اختبار كل شهر ، ونحن مضطرون إلى إعلان الناس باليوم المحدد حتى لا يظنوا أن الأمر حقيقى .

— وماهو بالضبط المفروض أن يعمله الجميع ؟.. سأله جيبسون ، الذى شرح له الأمر من قبل مرتين على الأقل ، ولكن الموضوع غاب عن باله .

— حالما تسمع الإشارة ـ ثلاث انفجارات أرضية ـ عليك أن

تلجأ إلى مأوى . فإذا كنت داخل مبنى ، عليك أن تلتقط جهاز تنفسك لإنقاذ من لم يتمكن من الوصول إلى مخبأ . فكما ترى ، إذا زال الضغط أصبح كل منزل وحدة مستقلة بذاتها ، فيها ما يكفى من الهواء لعدة ساعات .

— وماذا عن أى شخص موجود فى الخارج ؟

— يستغرق انخفاض الضغط بضع ثوان ، ولما كان لكل مبنى مغلاقه الهوائى الخاص ، أصبح فى الإمكان دائما الوصول إلى المخبأ فى الوقت المناسب . وحتى لو فقدت وعيك فى الخارج، فقد لا يصيبك أذى إذا تم إنقاذك خلال دقيقتين.. مالم يكن قلبك ضعيفا . ولا يسمح بالمجىء إلى المريخ لمن كان معتل القلب .

— حسنا ، أعنى ألا تطبقوا هذه النظرية بطريقة عملية قط !

— وكذلك نحن ! ولكن على المرء فى المريخ أن يكون مستعداً لأى شىء . آه ، ها هى ذى إشارة الأمان .

وكانت الحياة قد دبت فى المذياع ثانيا « انتهت التجربة . نرجو من كل شخص فشل فى الوصول إلى مخبأ فى الوقت المحدد أن يخابر مبنى الإدارة بالطريق المعتاد . انتهت الرسالة » .

وسأل جيبسون : هـــل سيفعلون ذلك ؟ أظن أنهم سيلزمون الصمت .

فأجاب المهندس ضاحكا : ذلك يتوقف على الظروف . يحتمل أن يلزموا الصمت إذا كان الخطأ خطأهم . ولكنها خير طريقة لاكتشاف نقط الضعف فى وسائل دفاعنا . كأن يأتى شخص ما ويقول « استمع إلى .. لقد كنت قائما بتنظيف أحد مواقد الخامات حين دوى الانفجار وقد استغرقت دقيقتين فى الخروج من هذا الشىء اللعين . ما المفروض أن أفعله فى حالة انفجار حقيقى ؟ » وحينئذ علينا أن نبحث عن حل إذا استطعنا .

ونظر جيبسون فى حسد إلى سكوياك ، الذى بدا كالنائم ، رغم أن ارتجاف أذنيه الضخمتين الشفافتين من حين لآخر دل على أنه يوجه بعض الاهتمام للحديث الدائر .

— كم يكون جميلا لو أمكننا أن نصير مثله فلا نهتم بضغط الهواء. حينئذ نستطيع حتما أن نفعل شيئا فى المريخ .

وأجاب المهندس فى تفكر : إنى لأعجب ! ماذا فعلوا هم سوى بقائهم أحياء ؟ إن تكيف الإنسان حسب الظروف المحيطة به يكون مهلكا ، أما مايجب عمله فهو أن تغير البيئة كى تناسبك .

وكانت هذه الكلمات تكاد تكون صدى لملاحظة أدلى بها هادفيلد فى أول اجتماع لهما . وصار جيبسون يتذكرها غالباً فى السنوات التالية .

* * *

كانت عودتهم إلى (بورت لويل) أشبه بموكب النصر . كانت العاصمة فى حالة ابتهاج للتغلب على الوباء ، وكانت الآن تترقب رؤية جيبسون وغنيمته فى شوق . وأعد العلماء استقبالا رائعاً لسكويك ، بينما انشغل علماء الحيوان خاصة لتعليل بيانهم القـديم عن عدم وجود حياة حيوانية فى المريخ .

ولم يسلم جيبسون رفيقه المدلل إلى الأخصائيين إلا بعد تأكيداتهم المقدسة بأنهم لم يفـكروا قط فى أى لحظة فى تشريحه . وبعد ذلك هرع لمقابلة الرئيس ، ورأسه ملىء بالأفـكار .

حياه هادفيلد فى حرارة . وقد سر جيبسون أن يلاحظ وجود تغير واضح فى موقف الرئيس منه . إذ كان موقفه فى بادى الأمر حسناً ، ليس عدائياً ، بل متحفظا على الأقل إلى حد ما . لم يحاول إخفاء الحقيقة بشأن اعتبار وجود جيبسون فى المريخ مزعجا بعض الشىء .. عبئا آخر يضيفه إلى ما يحمله من قبل على كاهله . لقد تغير هذا الموقف تدريجيا ، حتى صار من الواضح الآن أن الرئيس لم يعد يعتبره نـكبة كبرى .

قال هادفيلد وهو يبتسم : لقـــــد أضفت بعض الرعايا المهمين إلى إمبراطوريتى الصغيرة . والآن ألقيت نظرة على رفيقك المـدلل الفاتن . لقد عض رئيس الضباط الأطباء منذ برهة .

فقال جيبسون فى اهتمام : أعنى أن يحسنوا معاملته .

— من تقصد ؟.. رئيس الضباط الأطباء .

— كلا . . سكويك بالطبع . إن ما أتساءل عنه هو ما إذا كانت هناك أى أنواع أخرى من الحياة الحيوانية التى لم نكتشفها بعد . . ربما أكثر ذكاء .

— وبمعنى آخر ، هل هؤلاء هم مابقى من سكان المريخ الأصليين ؟

— بلى .

— ستمر سنوات قبل أن نقطع الشك باليقين ، ولكنى أميل إلى الاعتقاد بعدم وجود غيرهم . فالظروف التى تساعدهم على الحياة غير منتشرة فى أماكن كثيرة من الكوكب .

— تلك إحدى النواحى التى رغبت فى التحدث إليك عنها .. قال جيبسون ذلك ، ثم مد يده فى جيبه وأخرج ساقا من (عشب البحر) البنى ، وثقب إحداها فخرج منها ذلك الفحيح الخافت المصاحب لانطلاق الغاز .

— إذا زرع هذا النوع بطريقة سليمة ، فإنه قد يحل مشكلة الأكسجين فى المدن ، ويغنينا عن كل معداتنا الحالية المعقدة . ومع توفير الرمال الكافية لتغذيتها ، قد تعطيكم كل ما تحتاجون إليه من أكسجين .

فقال هادفيلد محاولا ألا يتقيد برأى : استمر .

فاستطرد جيبسون فى حماسة : بالطبع ، عليكم بزراعة بعض السلالات المنتقاة للحصول على الأنواع التى تعطى أكبر كمية من الأكسجين .

فأجاب هادفيلد قائلا : هذا طبيعى .

نظر جيبسون إلى مستمعه فى ريبة فجائية ، فقد أحس فى موقفه شيئاً من الغرابة . كانت هنـــاك ابتسامة شاحبة تتلاعب على شفتى هادفيلد .

واعترض جيبسون قائلا فى مرارة : لا أظن أنك تأخـذ قولى مأخذ الجد !

فانتصب هادفيلد بغتة ، ورد قائلا : بالعكس ! إننى أعير ما تقول أهمية أكثر مما تظن .. وأخذ يعبث بثقالة الورق ، ثم بدأ كأنما وصل إلى قرار . وبغتة انحنى على مذياع مكتبه وضغط أحد المفاتيح ثم قال : جهز لى (برغوث صحراء) وسائقا لمقابلتى عند مغلاق رقم واحد غربا خلال ثلاثين دقيقة .

ثم استدار إلى جيبسون وسأله : أيمكنك أن تكون متأهباً فى ذلك الموعد ؟

— ماذا . . نعم ، أظن ذلك . ما على سوى إحضار جهاز تنفسى من الفندق .

— حسناً .. سأراك خلال نصف ساعة .

وصل جيبسون مبكرا عشر دقائق، وعقله غارق فى دوامة . وتمكن قسم المواصلات من إعداد مركبة فى الوقت المحدد ، كما حافظ الرئيس على الموعد كعادته دائما، وأصدر إلى السائق تعليماته التى لم يتمكن جيبسون من التقاطها ، فاندفع (البرغوث) خارجا من القبة إلى الطريق المحيط بالمدينة .

قال هادفيلد حينما كانت المناظر الخضراء اليانعة تمر بجوارهم : إنى أقوم بعمل طائش إلى حدما ياجيبسون . أتقطع على نفسك عهد ألا تذكر أى شىء عنه حتى أصرح لك بذلك ؟

فأجفل جيبسون وأجاب : بالتأكيد .

— إنى أضع ثقتى فيك لاعتقادى أنك فى جانبنا ، ولم تزعجنا كثيرا كما توقعت .

فأجاب جيبسون فى لهجة جافة : أشكرك .

— وكذلك بسبب ما بينته لنا الآن عن كوكبنا . أظن أننا مدينون لك برد الصنيع .

وانحرف (البرغوث) متجها نحو الجنوب ، متبعا الطريق الذى يقود إلى أعلى التلال . وفجأة أدرك جيبسون إلى أين هم ذاهبون .

* * *

سأل چيمى فى شغف : هل انزعجت عندما جاءك نبأ تصادمنا ؟

وردت أيرين : طبعاً ، انزعجت إلى حد كبير ، ولم يغمض لى جفن من القلق عليك .

— والآن ما دام الأمر قد انتهى ، ألا تعتقــــدين أنه « رب ضارة نافعة ؟ » .

— أظن ذلك ، ولـكنها تظل تذكرنى بطريقة ما أنك سترحل فى خلال شهر . أوه يا چيمى ، ماذا نفعل حينئذ ؟

واستولى على العاشقين يأس قاتل . وتحولت قناعة چيمى الحالية إلى غم وكدر . ولم يكن هناك مفر من هذه الحقيقة الثابتة ، وهى أن الأريس ستغادر (ديموس) فى أقل من أربعة أسابيع ، وقد تنقضى سنوات قبل أن يتمكن من العودة إلى المريخ . كانت صورة مؤلمة لا يمكن التعبير عنها بكلمات .

وقال چيمى : ربما لا يمكننى البقاء فى المريخ حتى ولو سمحوا لى بذلك . فأنا لا أستطيع كسب عيشى مالم أحصل على مؤهلات ، وما زال أمامى عامان من العمل بعد التخرج ، بالإضافة إلى القيام برحلة إلى كوكب الزهرة ! لا يوجد سوى حل واحد !

والتمعت عينا أيرين ثم عادت إلى التجهم وقالت : أوه ، لقد تناولنا هذا الموضوع من قبل ، وأنا واثقة أن أبى لن يوافق .

— حسناً !، لن يضيرنا القيام بمحاولة . سأدفع مارتن إلى جس نبضه .

— المستر جيبسون ؟ أتعتقد أنه يرضى ؟

— إنى متأكد من ذلك ، إذا طلبته منه . إن له قدرة كبيرة على الإقناع .

— لست أدرى لأى سبب يهتم بذلك .

فأجاب چيمى ، فى لهجة الواثق بنفسه : أوه ! إنه يشعر بالميل نحوى ، وأنا واثق من تأييده لنا . ليس من العدل أن تمكثى هنا فى المريخ ولا تشاهدى أى شىء فى الكرة الأرضية على الإطلاق .. باريس — نيويورك — لندن .. إنك تضيعين عمرك هباء إذا لم تقومى بزيارتها . أتعلمين ما يدور بخلدى ؟

— ماذا ؟

— إن أباك أنانى لأنه احتجزك هنا .

فعبست أيرين قليلا . كانت مغرمة بوالدها ، وكان ذلك حافزاً لها على الدفاع عنه بحرارة لأول وهلة . ولكن إخلاصها صار موزعا الآن بين شخصين ، رغم أنه لا يوجد شك فيمن ستكون له الغلبة على مدى الأيام .

واستدار چيمى ، وقد أدرك أنه قد يكون تمادى إلى حد بعيد :

طبعاً أنا واثق أنه يقصد العمل لمصلحتك ، ولكن هناك الكثير مما يجب أن يثير قلقه ، يحتمل أنه نسى ما فى الكرة الأرضية ولا يدرك ما فاتك فيها ! لا يجب أن تغادرى هذا المكان قبل أن يسبق السيف العذل .

وبدا على أيرين أنها ما زالت مترددة . ثم خفت إلى نجدتها روح المرح عندها ، والتي كانت تفوق چيمى .

— إنى واثقة أنه لو أننا فى الأرض ، وكان عليك أن تعود إلى المريخ ، لأمكنك أن تثبت بنفس السهولة أن من واجبى أن ألازمك إلى هناك .

وبدا على چيمى شيء من الألم ، ثم أدرك أن أيرين لم تكن فى الحقيقة تهزأ منه .

فأجاب قائلا : حسناً ، لقد استقر رأيى فى هذا الشأن . سأتحدث إلى مارتن حالما أراه ، وأطلب منه جس نبض والدك . وإذن دعينا ننسى كل شيء عن هذا الموضوع ، اتفقنا ؟

ونسوا كل شيء عنه ، بعد فترة وجيزة .

* * *

كان المدرج الصغير فى التلال المشرفة على (بورت لويل) تماما كما وعته ذاكرة جيبسون فيما عدا لون نباتاته الغضة الخضراء الذى صار

دا كنا بعض الشيء ، كما لو كان قد تلقى أول تحذير بقدم الحريف الذى ما زال بعيدا . وتقدم (برغوث الصحراء) إلى أكبر القباب الأربع الصغيرة ، ثم سار إلى المغلاق الهوائى .

وعلق جيبسون قائلا فى جفاء : عندما كنت هنا من قبل ، أنبئت أن الدخول غير مباح مالم يقوموا بتطهيرها .

— مغالاة طفيفة لإثباط همة الزائرين غير المرغوب فيهم . قال هادفيلد ذلك دون خجل . وفتح الباب الخارجى بإشارة منه ، وفى التو نزعا جهازى التنفس . ثم استطرد هادفيلد قائلا : لقد اعتدنا على اتخاذ هذه الاحتياطات ، ولكن لم يعد لها الآن ضرورة .

وانزلق الباب الداخلى جانباً ، فدخلا إلى القبة . وكان فى انتظارهما رجل يرتدى معطفا أبيض اللون مما يرتديه العلماء أثناء العمل .. المعطف الأبيض الناصع الذى يرتديه أكبر العلماء العاملين مقاما .

قال هادفيلد : هالو بينز . جيبسون . . الأستاذ بينز . أعتقد أن كليكما سمع عن الآخر .

وتصافحا . كان جيبسون يعلم أن بينز هو أحد كبار الخبراء الدوليين فى تكوين النباتات . لقد قرأ منذ عام أو اثنين أنه ذهب إلى المريخ لدراسة نباتاته .

— إذن فأنت الشخص الذى اكتشف (الفيرا الأكسجينى) . .

قال بينز ذلك فى بطء . كان رجلا ضخما عبوساً يبدو شارد العقل ، مما يتعارض بشدة مع هيكله الضخم وملامحه الدالة على قوة العزيمة .

وسأله جيبسون : أهـذا هو الاسم الذى تطلقونه عليها ؟ حسناً ، لقد حسبت أنى اكتشفته ، ولـكنى بدأت أشك فى ذلك .

فطمأنه هادفيلد بقوله : من المؤكد أنك اكتشفت ما يضارعه فى الأهمية . ولـكن بينز لا يهتم بالحيوانات ، فلا خير فى التحـدث إليه عن أصدقائك أهل المريخ .

كانوا سائرين بين جـدران منخفضة مؤقتة ، لاحظ جيبسون أنها تقسم القبة إلى عدد كبير من الحجرات والممرات . وبدا المـكان بأكمله كما لو كان قد شيد فى عجلة شديدة ، فصادفوا فى طريقهم أجهزة علمية جميلة ترتـكز على صناديق تعبئة خشنة ، وسادت حمى الارتجال كل موضع فى المـكان . ومن الغرابة بمكان ــ مع ذلك ــ أن عدداً قليلا من الأشخاص كانوا قائمين بالعمل . ودار بخلد جيبسون أنه مهما يـكن نوع العمل القائم هنا ، فقد فرغوا الآن من إنجازه ، ولم يبق سوى عـدد رمزى من الموظفين .

وقادهم بينز إلى مغلاق هوائى يتصل بإحـدى القباب الأخرى ، وبينما كانوا فى انتظار فتح الباب الأخير أشار قائلا فى هـدوء : « هذا قد يؤذى أعينـكم قليلا » . وبهذا التحذير رفع جيبسون يده كستار يحمى عينيه .

أحس فى بادىء الأمر بضوء وحرارة . شعر كما لو كان قد انتقل فى خطوة واحدة من القطب إلى المنطقة الاستوائية . وكانت المصابيح القوية فوق رؤوسهم تغمر القاعة النصف كروية بالضوء . وكان فى الجو شىء ثقيل يكتم الأنفاس لم يكن مصدره الحرارة فقط . وتساءل عن أى نوع من الهواء يقوم باستنشاقه .

ولم تكن هذه القبة مقسمة بالحواجز ، بل عبارة عن مساحة واسعة مستديرة مخططة إلى قطع منتظمة ، تنبت فيها كل نباتات المريخ التى شاهدها جيبسون فضلا عن كثير غيرها . وكان ربع المساحة تقريباً مغطى بسيقان طويلة بنية اللون تعرف عليها جيبسون فى التو .

— إذن فقد كنتم على علم بها طوال الوقت ؟.. قال ذلك دون أن تعتريه دهشة ولا خيبة أمل على الأخص ، (لقد كان هادفيلد محقا : فأهل المريخ كانوا أهم من ذلك بكثير) .

وأجاب هادفيلد : بلى ، لقد اكتشفناها منذ نحو عامين وهى ليست نادرة على طول المنطقة الاستوائية . إنها تنمو فقط حيث يتوافر ضوء الشمس ، أما محصولك المتواضع فهو أبعد إلى الشمال مما عثرنا عليه حتى الآن .

وأضاف بينز مفسرا : إن استخلاص الأكسجين من الرمال يحتاج إلى طاقة هائلة ، ونحن نسهل هذه العملية هنا بتلك الأضواء ، كما نحاول

إجراء بعض التجارب الخاصة . تعـال وانظر إلى النتيجة .

وسار جيبسون متجها نحو رقعة الأرض وهو يحرص على ملازمة الممر الضيق . ومع ذلك لم تـكن هذه النباتات هى نفس ما اكتشفه ، وإن كان جلياً أنها تنحدر من نفس الأصل . أما الاختلاف المثير للدهشة البالغة فهو الاختفاء الـكامل لفقاعات الغاز التى حـــل مكانها آلاف الخلايا الدقيقة .

وقال هادفيلد : تلك هى النقطة الجوهرية ، فقد أنتجنا سلالة تطلق الأكسجين فى الهواء مباشرة لأنها ليست فى حاجة إلى اختزانها بعد ذلك . فما دامت تحصل على الـكثير من الضوء والحرارة ، يمكنها استخلاص كل حاجتها من الرمل ثم تتخلص من الفائض . فـكل الأكسجين الذى تستنشقه الآن يأتى من هذه النباتات .. ولا يوجد فى هذه القبة أى مصدر آخر .

فقال جيبسون فى تأن : فهمت . إذن فقد سبق أن راودتـكم فـكرتى .. وذهبتم إلى أبعد من ذلك بكثير . ولـكنى مازلت لا أدرك سبب الحاجة إلى كل هذا التـكتم .

— أى تـكتم ؟ . . قال هادفيلد ذلك فى مظهر البرىء الذى جرح شعوره .

فأجاب جيبسون محتجا : أحقا ! لقد طلبت منى منذ قليل ألا أذكر شيئا عن هذ المـكان .

— أوه ، ذلك لأن بيانا رسميا سيصدر خلال بضعة أيام ، ولم نكن نرغب فى إشاعة آمال كاذبة . ولكن لم تكن هناك أى سرية بحق .

وأخذ جيبسون يتأمل هذه العبارة طوال طريق عودتهم إلى بورت لويل . لقد أنبأه هادفيلد بالكثير ؛ ولكن هل أخبره بكل شيء؟ أين يدخل (فوبوس) فى الصورة إذا كان له دور على الإطلاق ؟ وتساءل جيبسون عما إذا كانت شكوكه عن القمر الداخلى لا تستند إلى أى أساس ، فمن الواضح أنه قد لا يكون له أى صلة بهذا المشروع الخاص . كان يشعر بحافز لأن ينتزع السر من هادفيلد بسؤاله دون مواربة ، ولكنه فضل ألا يفعل ذلك . فقد لا يؤدى هذا الا إلى أن يجعل من نفسه هزأة .

وكانت قباب (بورت لويل) آخذة فى الظهور فوق الأفق الشديد الانحدار ، حين طرق جيبسون الموضوع الذى شغله طوال الأسبوعين الماضيين .

فأشار قائلا لهادفيلد : ستعود الأريس إلى الأرض خلال ثلاثة أسابيع ، أليس كذلك . . . فلم يزد هذا على إيماءة من رأسه ، إذ من الجلى أن سؤال جيبسون كان لباقة محضة ، لأنه يعلم الجواب تماما كما يعلمه كل شخص آخر .

وأضاف جيبسون فى تأن : كنت أفكر فى رغبتى فى البقاء على المريخ فترة أطول . ربما حتى العام القادم .

— أوه . . قال هادفيلد ذلك دون أن يكشف عن تهنئة أو استهجان ، وأحس جيبسون باستياء ، لأن أنباءه المثيرة لم يكن لها أى وقع . واستطرد الرئيس قائلا : وماذا عن عملك ؟

— يمكن القيام بكل ذاك هنا ، بنفس السهولة كما فى الأرض .

فقال هادفيلد : أظنك تعلم أنك إذا مكثت هنا ، فعليك أن تحترف مهنة مفيدة .. وعلت شفتيه ابتسامة ملتوية ، ثم استطرد قائلا : لم يكن ذلك كياسة منى ، أليس كذلك ؟ ما أقصده هو أنه يجب عليك المساهمة بشىء يساعد على تقـــدم المستعمرة . ألديك أية أفكار خاصة فى هذا الشأن ؟

وشدد هـذا القول من عزيمته شيئا ما ، فهو على الأقل يعنى أن هادفيلد لم يبادر برفض الاقتراح . ولكنه تضمن نقطة غفل عنها جيبسون عندما بادر بالتسرع فى حماسة .

وأجاب فى شىء من الاستكانة : لم أكن أفكر فى البقاء هنا إلى ما شاء الله ، ولكنى أود قضاء بعض الوقت فى دراسة أهل المريخ ، كما أحب أن أبحث عن المزيد منهم . وفضلا عن ذلك ، لا أرغب فى مغادرة المريخ عندما بدأت الأمور تصبح مثيرة .

فأسرع هادفيلد يسأله : ماذا تقصد ؟

— لماذا . . . نباتات الأكسجين هذه ، وبدء استعمال القبة رقم

سبعة . أود أن أرى نتيجة ذلك كله فى الأشهر القليلة القادمة .

ونظر هادفيلد إلى راكبه فى تفكير . لم يكن مندهشا كما توقع جيبسون ، فقد شهد هذا الأمر نفسه يحدث لآخرين من قبل . بل إنه تساءل عما إذا كان ذلك سيحدث لجيبسون ، ولم يكن غير راض مطلقا عن تغير مجرى الحوادث .

وكان التعليل فى الحقيقة من أبسط الأمور . كان جيبسون حينئذ أسعد من أى وقت مضى فى الكرة الأرضية ، فقد قام بعمل يستحق الذكر ، وأحس أنه بدأ يصبح جزءاً من المجتمع المريخى . لقد كاد ينتهى من تحديد رغباته ، ولم تزده الحقيقة الكائنة عن محاولة المريخ القضاء على حياته ، سوى التمسك بالبقاء . فإذا عاد إلى الأرض ، لن يكون ذاهباً إلى وطنه .. بل سيكون مسافراً إلى المنفى .

وقال هادفيلد : فلتعلم أن التحمس لا يكفى .

— أفهم ذلك جيدا .

— إن عالمنا الصغير مؤسس على أمرين .. الكفاية والعمل الشاق . وبدونهما يجدر بنا أن نعود أدراجنا إلى الأرض .

— إنى لا أخشى العمل ، كما أنى واثق من إمكانى تعلم بعض الأعمال الإدارية الموجودة لديكم .. وكثير من الأعمال الروتينية الفنية .

وفكر هادفيلد فى أن ذلك يحتمل أن يكون صحيحا . فالقدرة على

القيام بهذه الأعمال تحتاج إلى ذكاء ، وجيبسون يتمتع بالكثير منه . ولكن العوامل الشخصية أيضاً كانت أهم من الذكاء . فمن الخير إذن ألا يبعث الآمال فى نفس جيبسون حتى يقوم بالمزيد من الاستعلامات وبحث الأمر مع هويتاكر .

وقال هادفيلد : سأخبرك بما ينبغى عمله . تقدم بطلب مؤقت للبقاء ، وسأبعث به إلى الأرض . سيأتينا الرد خلال أسبوع تقريباً . وبالطبع ، إذا رفضوا طلبك فلن يكون لنا فى الأمر حيلة .

كان جيبسون يشك فى ذلك ، إذ كان يعلم مقدار اتباع هادفيلد للوائح الأرضية إذا تعارضت مع خططه . ولكنه لم يزد على قوله : وإذا وافقت الأرض ، أعتقد أن أمر البت فيه حينئذ يرجع إليك .

— نعم . حينئذ سأبدأ التفكير فى القرار الذى سأتخذه .

وفكر جيبسون فى أن الأمر كان مرضياً حتى هذا الحد . وما دام الآن قد خطا هذه الخطوة الحاسمة ، فقد أحس بارتياح كبير ، كما لو كانت الأمور كلها قد خرجت الآن عن إرادته . وما عليه إلا أن يسير مع التيار ، منتظرا تطور الحوادث .

وفتح باب المغلاق الهوائى أمامهم ، ثم اندفع (البرغوث) فى ضجيج داخل المدينة . وحتى لو كان مخطئا فى قراره ، فلن يضيره ذلك . يمكنه دائما أن يعود إلى الأرض فى السفينة القادمة .. أو التالية لها .

لكن ، لم يكن ثمة شك فى أن المريخ غير من أحواله . كان يعلم تعليقات

بعض أصدقائه عندما يقرءون الأنباء : « هل بلغكم نبأ مارتن ؟ يبدو أن المريخ قد جعل منه رجلا ! من كان يظن أن ذلك سيحدث ؟» .

وتململ جيبسون فى ضيق . لم يكن ينوى أن يصبح مضغة فى الأفواه ما استطاع إلى ذلك سبيلا . وحتى فى أشد لحظاته حمقا ، لم يستخدم على الإطلاق تلك الأمثلة الفكتورية المأفونة عن رجال كسالى مختالين، أصبحوا أعضاء نافعين فى المجتمع . ولكن كان يتملكه خوف رهيب من أن شيئا غير مألوف كهذا ، بدأ يحدث له .

— كن صريحا ياچيمى . ماذا يدور فى خلدك ؟ يبدو أنك فقدت كثيرا من شهيتك هذا الصباح .

وأخذ چيمى يعبث فى جزء بعجة البيض الصناعية فى طبقه ، والتى كان قد قطعها إلى شرائح دقيقة .

— كنت أفكر فى أيرين ، وكيف أنها ـ مما يزنى له ـ لم تتح لها الفرصة قط لزيارة الأرض .

— أأنت واثق أنها ترغب فى ذلك ؟ لم أسمع قط أى شخص هنا يذكر كلمة طيبة عن الكوكب .

— أوه ! إنها تود ذلك حقا ، فقد سألتها .

— دعك من اللف والدوران . ماهى الخطة التى اتفقتما عليها ؟ أتنويان الفرار معاً فى الأريس ؟

وعلت شفتى چيمى ابتسامة شاحبة ، ثم أجاب : هذه فكرة ، ولكنها تحتاج إلى جرأة ! ومع ذلك بصراحة ، ألا تعتقد أن أيرين يجب أن تعود إلى الأرض لتكمل تعليمها ؟ إنها لو مكثت هنا ، ستشب لتصبح إحدى .. إحدى ..

— إحدى فتيات الريف الساذجات البسيطات . . فتاة مستعمرة غشيمة . أليس هذا ما كنت تفكر فيه ؟

— حسناً ، شيء قريب من ذلك ، ولكن أتمنى أن تكون رحيما في وصفك .

— آسف ! لم أكن أقصد ذلك . وفى الحقيقة ، أتفق معك بعض الشيء ، إذ خطرت هذه النقطة فى بالى . وأعتقد أن من واجب شخص ما أن ينبه هادفيلد إليها .

فبدأ چيمى يقول فى انفعال : هذا هو بالضبط ما ..

— .. ما تريد أنت وأيرين أن أقوم به ؟

فرفع چيمى يديه فى يأس مصطنع وأجاب : لا فائدة من محاولة خداعك . نعم .

— لو أنك ذكرت ذلك منذ البداية لوفرنا كثيراً من الوقت . ولكن أخبرنى بصراحة يا چيمى ، هل أنت جاد فى عواطفك نحو أيرين ؟

وتطلع إليه چيمى بنظرة متزنة ثابتة ، كانت وحدها تغنى عن الإجابة .

— غاية الجدية ، وكان ينبغى أن تدرك ذلك . أريد أن أتزوجها حالما تصل إلى السن المناسبة ، وفى إمكانى أن أحصل على كسب .

وخيم صمت عميق ، ثم أجاب جيبسون قائلا : يمكنك أن تفعل أسوأ من ذلك بكثير ، فهى فتاة لطيفة جدا . وفى اعتقادى أن من الخير لها أن تقضى فى الأرض عاما أو ماشابه ذلك . ومع ذلك، أفضل ألا أفاتح هادفيلد فى الوقت الحاضر — فهو جد مشغول و . . حسنا ، لقد سبق أن طلبت منه أمرا .

فرفع چيمى بصره فى اهتمام وقال : أوه !

وتنحنح جيبسون ثم أردف قائلا : سيعرف الأمر يوما ما، ولكن لا تخبر أحدا به فى الوقت الحاضر . لقد قدمت طلباً ملتمساً البقاء فى المريخ .

فصاح چيمى : يا إلهى ! إن ذلك .. حسن ! عمل جرىء !

وكتم جيبسون ابتسامة ثم سأله : أتعتقد أن ذلك صواب ؟

— لماذا ؟ نعم . أود أن أفعل ذلك بنفسى .

فسأله جيبسون فى جفاء : حتى ولو لم تكن أيرين ذاهبة إلى الأرض ؟

— ليس هذا إنصافا منك ! ولكن كم تتوقع أن تمكث هنا ؟

— بصراحة ، لا أعلم ، فذلك يتوقف على عدة عوامل . فمن ناحية يجب أن أجيد عملا !

— أى نوع من الأعمال ؟

— شيء مناسب .. ومنتج . هل من آراء ؟

وجلس چيمى لحظة فى سكون وقد تقطب جبينه فى تفكير عميق . وتساءل جيبسون عما يدور فى خلده . أكان حزينا لأنهما قد يفترقان قريبا ؟ فى خلال الأسابيع القليلة الماضية تلاشى التوتر والبغضاء التى أبعدت ثم قربت بينهما وقتاً من الأوقات . لقد أصبحا فى حالة اتزان عاطفى ، وهو شيء سار ، إلا أنه لم يكن مرضيا كما كان يأمل جيبسون . قد تكون هذه غلطته ، فربما خشى أن يكشف عن إحساساته العميقة فأخفاها وراء ستار من المزاح ، بل والتهكم العرضى . فإذا كان الأمر كذلك ، فقد خشى أن نجاحه لم يصل إلى الدرجة المرجوة . لقد أمل ذات مرة أن ينال ثقة چيمى ويصبح موضع سره ، والآن ـ كما يبدو ـ لم يلجأ إليه چيمى إلا عندما احتاج إلى معونته . كلا . . لم يكن ذلك عدلا وإنصافا . من المؤكد أن چيمى يميل إليه ، ربما كما يحب كثير من الأبناء آباءهم . كانت نتيجة إيجابية يمكنه أن يفخر بها . ويمكن أن يرجع إليه الفضل أيضاً فى التحسن الكبير فى طباع چيمى منذ مغادرتهم الأرض . فلم يعد بعد مرتبكا خجولا ، ورغم أنه ما زال متزمتاً ، إلا أنه لم يكن مكتئبا قط . وكان هذا ـ فى اعتقاد جيبسون ـ شيئا يمكنه أن يشعر نحوه بالرضا . ولكنه الآن لم يعد فى إمكانه أن يفعل سوى القليل . لقد بدأ چيمى يتسلل خارجا من حياته .. فلم يعد يهمه فى الوقت الحاضر سوى أيرين .

وقال چيمى : أخشى أنه لايلوح لى أية آراء . بالطبع ، يمكنك أن تتولى عملى هنا ! أوه ، إن ذلك يذكرنى بشىء ترامى إلى سمعى فى يوم سابق .. وانخفض صوته إلى همس كهمس المتآمر ، ثم انحنى على المنضدة واستطرد قائلا : هل سمعت قط عن (مشروع الفجر) ؟

— كلا ، ما هو ؟

— هذا ما أحاول معرفته . إنه أمر بالغ السرية ! وأعتقد أنه شىء بالغ الجسامة .

فقال جيبسون وقد تيقظت حواسه فجأة : أوه ! ربما أكون قد سمعت عنه . أخبرنى عما تعلمه .

— حسنا ، كنت أعمل فى قسم الملفات متأخرا ذات مساء ؛ وكنت جالسا على الأرض بين بعض الدواليب، لتنسيق بعض الأوراق ، حين دخل الرئيس والمحافظ هويتاكر . كانا يتحدثان دون أن يعلما بوجودى هناك . لم أكن أحاول استراق السمع ، ولكنك تقدر الموقف . وفجأة ذكر المحافظ هويتاكر شيئا جعلنى أعتدل جالسا فى عنف . أظن أن نص حديثه كان كما يلى « مهما يحدث ، فستفتح الجحيم أبوابها حالما تسمع الأرض عن مشروع الفجر .. حتى ولو كان ناجحا » . وأطلق الرئيس ضحكة غريبة قصيرة ، ثم ذكر شيئا عن النجاح الذى يبرر كل شىء . وهذا كل ما أمكننى سماعه ، فما لبث أن خرجا بعد ذلك . ما رأيك فيه ؟

(مشروع الفجر !) . . كان هناك سحر يحوط هذا الاسم جعل ضربات قلب جيبسون تتزايد . يكاد يكون من المحقق وجود صلة ما بينه وبين البحث الجارى فى التلال المشرفة على المدينة .. ولكن ذلك لا يبرر ملاحظة هويتاكر . أم هل يبرره ؟

كان جيبسون يعلم القليل عن صراع القوى السياسية بين الأرض والمريخ . لقد قدر من إشارات هادفيلد العابرة وتعليقات الصحف المحلية أن المستعمرة تمر فى الوقت الحاضر بفترة حرجة . فقد ارتفعت أصوات قوية فى الأرض تعترض على تكاليفها الضخمة التى، كما يبدو، ستستمر فى المستقبل إلى أجل غير مسمى دون أية بوادر عن تخفيض نهائى . وتحدث هادفيلد فى مرارة أكثر من مرة عن المشروعات التى اضطر إلى التخلى عنها للاقتصاد فى النفقات ، وعن مشروعات أخرى لم تحز القبول على الإطلاق .

وقال جيبسون : سأرى ما يمكننى معرفته من . . مصادر معلوماتى المختلفة . هل ذكرت ذلك لأى شخص آخر ؟

— كلا .

— لو كنت مكانك لما فعلت . وفضلا عن ذلك ، فقد يتبين أنه أمر غير ذى أهمية . سأنبئك بما أحصل عليه .

— ألن تنسى السؤال عن موضوع أيرين ؟

— حالما تواتيني الفرصة . ولكنها قد تستغرق بعض الوقت ؛ إذ يجب أن أتحين فرصة يكون فيها هادفيلد فى حالة طيبة !

لم يصب جيبسون نجاحا كمخبر سرى خاص . لقد قام بمحاولتين مباشرتين عقيمتين بعض الشيء قبل أن يقرر عدم جدوى المحاولات المباشرة . كان الساقى چورج أول أهدافه ، إذ كان يبدو على علم بكل ما يجرى فى المريخ ، وكان أحد مصادر جيبسون الثمينة . وفى هذه المرة ـ على أية حال ـ كان عديم الفائدة على الإطلاق .

قال وقد بدت عليه سيماء الحيرة : مشروع الفجر ؟ لم أسمع عنه قط .

فسأله جيبسون وهو يدقق النظر فيه : هل أنت واثق تماما ؟

وبدا على چورج أنه أغرق فى تفكير عميق .

— تمام الثقة .. قال ذلك أخيرا ، وانتهى الأمر . كان چورج ممثلا بارعا حتى إنه يستحيل الحدس ما إذا كان كاذبا أم يتكلم الصدق .

وكان حظ جيبسون مع محرر جريدة (تايمز المريخ) أحسن قليلا . كان يتحاشى وسترمان عادة لأنه كان يحاول دائما تملقه للحصول منه على مقالات ، فى حين كان جيبسون دائب التخلف عن التزاماته الأرضية . ولذلك تطلعت إليه هيئة التحرير المكونة من شخصين فى

شيء من الدهشة حين دخل المكتب الصغير للجريدة الوحيدة في المريخ .

وبعد أن قدم جيبسون بعض النسخ الكربونية كتقدمة للوئام ، قام بنصب الشرك قائلا بطريقة عرضية : إني أحاول جمع كل ما أستطيع من معلومات عن مشروع الفجر . أعلم أنه مازال سراً ، ولكني أرغب في إعداد كل شيء حتى يحين موعد نشره .

وخيم صمت عميق لعدة ثوان ، ثم أشار وسترمان قائلا : أظن من الأفضل لك أن ترى الرئيس بخصوص هذا الموضوع .

فأجاب جيبسون في براءة : لم أكن أرغب في مضايقته ، فهو مشغول جداً.

— حسناً ، لا يمكنني إخبارك بشيء .

— أتعني أنك لا تعلم شيئاً عنه ؟

— إذا شئت أن تعتبر الأمر كذلك . فلا يوجد في المريخ سوى بضع عشرات من الأشخاص الذين يمكنهم فقط أن يذكروا لك ماهيته .

كانت تلك ، على الأقل ، معلومات ثمينة .

وسأله جيبسون : هل تصادف أنك واحد منهم !

فهز وسترمان كتفيه وقال : إنى أحتفظ بعينى مفتوحتين، بالإضافة إلى شىء من التخمين .

وكان هذا هو كل ما أمكن لجيبسون أن ينتزعه منه . لقد اعتراه شك قوى بأن معلومات وسترمان عن هذا الموضوع لا تزيد على مايعرفه سوى النزر اليسير ، وأنه يحاول جاهدا إخفاء جهله . ومع ذلك ، فقد أكدت المقابلة حقيقتين رئيسيتين . فمشروع الفجر حقيقة لها وجود ، وكان يحوطه سياج من الكتمان الشديد . ولم يكن أمام جيبسون إلا أن يحذو حذو وسترمان ، بابقاء عينيه مفتوحتين ، والحدس ما أمكنه ذلك .

وقرر أن يدع التحقيق جانبا فى الوقت الحاضر ، وأن يذهب إلى معمل الطبيعة الحيوية حيث ينزل سكويك كضيف شرف . وكان المريخى الصغير جالسا على أطرافه الخلفية غير مبال بشىء ، وقد وقف العلماء يتحدثون فى أحد الأركان لمحاولة تحديد خطوتهم التالية . وما إن رأى جيبسون حتى ندت عنه صرخة ابتهاج وأخذ يقفز عبر الغرفة قالبا أحد المقاعد فى طريقه ، ولكنه لحسن الحظ لم يتعثر فى أى جهاز ثمين . ونظرت مجموعة علماء الأحياء إلى هذه المظاهرة فى ضيق ، إذ المفروض أنها لا تتفق مع آرائهم عن علم النفس المريخى .

وبعد أن خلص جيبسون نفسه من قبضة سكويك ، سأل رئيس الفرقة : حسنا ، ألم تقرروا بعد مدى ذكائه !

فأجاب العالم وهو يهرش رأسه : إنه حيوان صغير غريب ، أشعر في بعض الأحيان أنه يهزأ منا . والناحية الشاذة هي أنه مختلف عن بقية أفراد قبيلته . فكما تعلم لدينا وحدة تقوم بدراستهم على الطبيعة .

— ما وجه الاختلاف ؟

— على قدر ماعرفنا ، ليس للآخرين أي عواطف ، وينقصها حب الاستطلاع . إذا وقفت إلى جوارهم وقتاً كافياً ، فإنهم سيستمرون في أكل ما حولك . وما دمت لا تعترض طريقهم بصفة قاطعة فإنهم لن يعيروك أي اهتمام .

— وماذا يحدث لو اعترضت طريقهم ؟

— سيحاولون تنحيتك عن طريقهم كما لو كنت أحد العوائق ، فإذا لم يتمكنوا من ذلك انتقلوا إلى مكان آخر . مهما تحاول ، فلا يمكنك أن تثير ضيقهم .

— أمعنى ذلك أنهم دمثو الأخلاق ، أم هم أغبياء سذج ؟ !

— أميل إلى الاعتقاد بأنهم لا هذا ولا ذاك . لقد مضى عليهم حين من الدهر لم يكن لهم فيه أعداء بالطبيعة . ولذلك لا يمكنهم أن يتصوروا وجود من يحاول الإضرار بهم . لا بد أن العادة قد صقلتهم الآن إلى حد كبير ، فالحياة بالنسبة إليهم قاسية إلى حد أنهم لا يملكون الانغماس في الملذات الغالية ، مثل الفضول والعواطف الأخرى .

فسأله جيبسون وهو يشير إلى سكويك ، الذى كان فى تلك اللحظة يتفحص جيوبه : إذن كيف تفسر سلوك هذا الرفيق الصغير ؟ إنه ليس جائعاً فى الحقيقة ، فقد عرضت عليه الآن بعض الطعام ، فلا بد أنه إذن الفضول المحض .

يحتمل أن يكون أحد الأطوار التى يمرون بها فى صغرهم . تذكر فى هذا الصدد كيف تختلف القطيطة عن القطة التامة النمو ، أو الطفل البشرى عمن بلغ سن الرشد .

— إذن سيصبح سكويك كالآخرين عندما يشتد ساعده ؟

— يحتمل . ولكن ليس الأمر مؤكدا . فلسنا ندرى مدى قدرته على تعلم العادات الجديدة . فهو على سبيل المثال ، ماهر فى التخلص من الورطات . . إذا أمكنك أن تغريه على القيام بالمحاولة .

فقال جيبسون : مسكين سكويك ! أشعر أحيانا بالذنب لإبعادك عن موطنك . ومع ذلك ، فقد كانت هـــذه رغبتك . دعنا نخرج للتريض .

فقفز سكويك فى الحال نحو الباب .

وصاح جيبسون : أرأيت هذا ؟ إنه يفهم ما أقول .

— حسناً ، وكذلك يفهم الكلب حين يسمع أمرا . قد تكون مسألة تعود لا غير ، فأنت تخرج معه فى مثل هذا الوقت من كل يوم ،

فاعتاد ذلك . أيمكنك إعادته فى خلال نصف ساعة ؟ إننا نقوم بإعداد رسام المخ للحصول على رسم كهربائى لمخه .

كانت نزهات بعد الظهر وسيلة للتوفيق بين سكويك وبين مصيره ، وفى نفس الوقت إرضاء لضمير جيبسون . فقد كان يحس أحيانا كخاطف أطفال تخلى عن ضحيته بعد أن سرقه مباشرة . ولكن كان ذلك كله فى سبيل العلم ، كما أن علماء الأحياء أقسموا ألا يلحقوا الأذى بسكويك عن أى طريق .

لقد أصبح سكان (بورت لويل) معتادين رؤية هذا الثنائى المتباين ، فى جولتهما اليومية ، ولم تعد الجموع تتسكع لمشاهدتهما حين مرورهما . فإذا ما كان الوقت قد تجاوز المواعيد المدرسية ، التف حول سكويك عادة بطانة من المعجبين الصغار يريدون اللعب معه ، ولكن الوقت حينئذ كان مبكراً قبل الظهر ، وطائفة الصبيان مازالت فى سجنها الممل. ولم يكن هناك أحد على مرأى من جيبسون ورفيقه حين انحدرا إلى برودواى ، ولكن سرعان ما ظهر وجه مألوف على بعد . كان هادفيلد قائما بجولته اليومية للتفتيش كالعادة فى صحبة قطتيه المدللتين .

كانت أول مرة تتقابل فيها (توباز) و (توركواز) مع سكويك ، فكان لذلك أثر كبير فى تعكير صفو هدوئهما الأرستقراطى ، رغم أنهما حاولا إخفاء الحقيقة قدر المستطاع . فأخذا يجذبان مقوديهما ويحاولان

الاحتماء وراء هادفيلد دون أن يبدو عليهما الانزعاج ، فى حين لم يعرهما سكويك أى اهتمام على الإطلاق .

وقال هادفيلد ضاحكا : ياله من معرض للحيوانات ! لا أظن توباز وتوركواز تحبذان وجود منافس ، لقد استحوذتا على المكان وحدهما فترة طويلة حتى اعتقدتا أنهما تمتلكانه .

وسأله جيبسون فى اهتمام : هل من أنباء من الأرض بعد ؟

— أوه ! بشأن طلبك ؟ لله درك ، لقد أرسلته منذ يومين فقط ! وأنت تعلم جيدا سرعة سير الأمور هناك فى أسفل . سيمضى أسبوع على الأقل قبل أن يصلنا الرد .

اكتشف جيبسون ، أن الأرض دائما إلى (أسفل) . أما الكواكب الخارجية فإلى (أعلى) . وقد كونت لديه هذه الاصطلاحات صورة ذهنية غريبة ، عن منحدر هائل يصل فى حضيضه إلى الشمس بينما تقع الكواكب عليه عند ارتفاعات مختلفة .

واستطرد جيبسون يقول : لست أدرى فى الحقيقة ما شأن الأرض بذلك . وفضلا عن ذلك ، لا توجد مشكلة حجز مكان للسفر . فأنا موجود هنا فعلا . . وفى الحقيقة ، سيؤدى عدم عودتى إلى توفير المتاعب .

فرد هادفيلد قائلا : لا إخالك تتصور أن رجال السياسة فى الأرض

يقيمون وزنا لمثل هذه المناقشات المنطقية ! أوه ! كلا يا عزيزى ! يجب أن يمر كل شىء فى الطريق الرسمى .

كان جيبسون واثقا أن هادفيلد لا يتحدث عادة عن رؤسائه بهذا الأسلوب الساخر ، وأحس جيبسون بتلك الغبطة العجيبة التى تصاحب الرضا من المشاركة فى تهور لايخرج عن الحد . وكانت هذه دلالة أخرى على أن الرئيس الإدارى يثق به ويعتبره فى جانبه . أيجرؤ على الإشارة إلى الموضوعين الآخرين اللذين يشغلان باله . . مشروع الفجر وأيرين ؟ فبالنسبة لموضوع أيرين قطع على نفسه عهداً ، وعليه أن يفى به عاجلا أو آجلا . ولكن يجب فى الحقيقة أن يتحدث أولا إلى أيرين نفسها . . نعم . كان هذا عذرا وجيها لتأجيل الموضوع .

* * *

لقد أرجأ الموضوع فترة طويلة حتى خرج الأمر من بين يديه . فإن أيرين نفسها قامت بالمحاولة مدفوعة ولا شك عن طريق چيمى الذى قدم لجيبسون تقريراً كاملا فى اليوم التالى . وكان من اليسير التنبؤ بالنتيجة من ملامح وجه چيمى .

لا بد أن اقتراح أيرين كان صدمة عنيفة لهادفيلد ، الذى كان يعتقد ولا شك أنه قدم لابنته كل ما تحتاج إليه ، ولذلك كان يشارك بقية الآباء فى هوسهم . ومع ذلك فقد تلقى الأمر فى هدوء ، فلم تحدث

مناقشات عنيفة . كان هادفيلد رجلا أذكى من أن يتخذ هيئة الأب الذى أصيب بجرح عميق . وكل مافعله هو ذكر أسباب جلية اضطرارية عن احتمال عــــدم إمكان سفر أيرين إلى الأرض حتى تبلغ الحادية والعشرين ، وهو الموعد الذى قرر أن يقوم فيه بالعودة فى إجازة طويلة يمكنهما خلالها رؤية العالم معاً . ولم يبق على ذلك سوى ثلاث سنوات .

قال چيمى وهو ينتحب : ثلاث سنوات ! إنها تبدو تماما كثلاثة دهور ! !

وأحس جيبسون بعطف عميق ، ولـكنه حاول أن ينظر إلى الجانب المشرق من الأمور .

— فى الحقيقة ، ليست فترة طويلة إلى هذا الحد . وحينئذ ستكون قد حصلت على مؤهلاتك الـكاملة ، وستكتسب من الأموال أكثر كثيراً من معظم الشبان فى سنك . وستدهشك السرعة التى يمر بها الوقت .

لم يكن لتلك المواساة أى أثر فى تخفيف وطأة الحزن عن چيمى . ورغب جيبسون فى إضافة ملحوظة عن حسن الحظ لحساب أعمار الناس فى المريخ طبقا للتوقيت الأرضى ، وليست طبقا للعام المريخى البالغ طوله ٦٨٧ يوما . ومع ذلك راود نفسه ثم قال بدلا من ذلك : على أية حال ، مارأى هادفيلد فى الأمر كله ؟ هل تناقش فى أمرك مع أيرين ؟

— لا أظنه يعلم شيئا عنه .

— أراهنك أنه يعلم ، أود أن أخبرك أن خير طريقة فى رأيى هى محادثته بصراحة .

فقال چيمى : لقـــد فـكرت فى ذلك ، مرة أو مرتين ، ولـكن أحسبنى خائفا .

فرد عليه جيبسون قائلا : عليك أن تتخلص من ذلك يوما ما ، إذا قدر له أن يكون صهرك ! وفضلا عن هذا ، أى ضرر ينتج عن ذلك؟

— قد يمنع أيرين من مقابلتى خلال ما بقى لى من وقت .

— ليس هادفيلد بهذا النوع من الرجال ، ولو كان كذلك لاتخذ هذه الخطوة منذ وقت طويل .

أنعم چيمى النظر فى ذلك ولم يتمكن من تفنيده . وكان جيبسون مقدرا شعوره إلى حد ما ، إذ تذكر توتر أعصابه فى أول مقابلة له مع هادفيلد . وفى هذا الصدد ، كان عذره أقل بكثير من عذر چيمى ، لأن التجارب علمته من وقت طويل أن قلة من العظماء تظل محتفظة بعظمتها إذا رآها المرء عن كثب . أما بالنسبة لچيمى ، فقد كان هادفيلد لا يزال سيد المريخ المنعزل الذى يصعب الدنو منه .

وأخيرا سأله چيمى : لو أنى ذهبت فعلا لرؤيته ، ماذا تظن من واجبى أن أقول ؟

– ما وجه الخطأ فى الصدق الصريح دون تنميق ؟ من المعروف أنه يأتى بالعجائب فى هذه المناسبات .

ورمقه چيمى بنظرة فيها شىء من الألم ، فلم يكن متحققا قط مما إذا كان جيبسون يمزح معه أو يهزأ به ؟ كان الخطأ خطأ جيبسون، وكان هذا هو العقبة الرئيسية فى سبيل التفاهم التام بينهما .

وقال جيبسون : استمع إلى . تعال معى الليلة إلى منزل الرئيس وتحادث معه فى الموضوع . وفضلا عن ذلك ، انظر إلى الموضوع من وجهة نظره . إن ما قد يخطر فى باله ، هو أن الأمر قد لا يتعدى مغازلة عادية دون أن يأخذها أحد الطرفين مأخذ الجد . ولكن إذا ذهبت إليه وأنبأته برغبتك فى الخطبة لاختلف الأمر حينئذ .

وأحس براحة كبرى ، حين أذعن چيمى دون مناقشة . وفضلا عن ذلك ، إذا كان الفتى يرغب فى شىء ، فعليه أن يبت فيه بنفسه دون توجيه من أحد . لقد كان جيبسون عاقلا إلى الحد الذى أدرك معه أنه ، فى رغبته لأن يكون عونا لچيمى ، يجب عليه ألا يخاطر بتدمير اعتماد الفتى على نفسه .

كانت إحدى فضائل هادفيلد ، أن المرء يعرف دائما أين يجده فى أى وقت ، رغم أن الويل لمن يزعجه بالمسائل الرسمية الروتينية خلال الساعات القليلة التى يعتبر نفسه فيها فى راحة . ولم تكن هذه المسألة روتينية

ولا رسمية ، كما أنها لم تكن أيضاً مفاجأة تامة ـ كما خمن جيبسون ـ لأن هادفيلد لم يدهش إطلاقا حين رآى من كان بصحبة جيبسون . ولم تكن أيرين موجودة ، إذ رأت أن عين العقل تقتضى منها التوارى عن المسرح . وسرعان ماحذا جيبسون حذوها .

وكان منتظرا فى قاعة المكتبة يتصفح كتب هادفيلد ، ويتساءل عن العدد الذى أمكن للرئيس أن يجد وقت فراغ لقراءته فعلا ، حين دخل چيمى قائلا : يرغب المستر هادفيلد فى رؤيتك .

— ما مدى تقدمك ؟

— لست أدرى بعد ، ولكن الأمر لم يكن سيئا كما توقعت .

— لن يكون سيئاً أبدا ، فلاتنزعج . سأقدم عنك خير توصية دون أن أجانب الصواب .

وحين دخل جيبسون إلى المكتب ، وجد هادفيلد غائصا فى أحد المقاعد يحملق فى الطنفسة كما لم يكن رآها قط من قبل . وأشار إلى زائره بالجلوس فى المقعد الثانى ، ثم سأله : كم مضى على معرفتك بسبنسر ؟

— منذ غادرنا الأرض فقط . لم أقابله قبل ركوب الأريس .

— وهل تعتقد أن هذا الوقت كاف لتكوين فكرة واضحة عن شخصيته ؟

فرد جيبسون قائلا : وهل يكفى لذلك مدى الحياة ؟

فابتسم هادفيلد ورفع عينيه لأول مرة قائلا دون سخط : لا تحاول المراوغة . ما رأيك فيه بصراحة ؟ هل تكون مثلا على استعداد لقبوله كزوج لابنتك !

فأجاب جيبسون دون تردد : نعم ، أكون مسرورا لذلك .

ومن حسن حظ چيمى أنه لم يستمع إلى حديثهم خلال الدقائق العشرة التالية ، رغم أنه من نواحى أخرى يحتمل أن يكون ذلك شيئاً يرثى له ، لأن استماع الحديث كان كفيلا بأن يكشف له عن إحساسات جيبسون . كان هادفيلد فى هذا الاستجواب الحذر الدقيق ، يحاول أن يلم بكل ما يمكنه عن چيمى ، ولكنه فى نفس الوقت كان يختبر جيبسون . وكان من واجب جيبسون أن يتوقع هذا ، أما الحقيقة الواقعة بأنه غفل عن ذلك حين وجه اهتمامه لخدمة مصالح چيمى ، فلم تكن شهادة طيبة له . وحين تحول استجواب هادفيلد إلى ناحية هجوم أخرى ، لم يكن مستعد لها على الإطلاق .

فقد سأله هادفيلد بغتة : أنبئنى ياجيبسون ، لماذا تتحمل كل هذه المتاعب فى سبيل الفتى سبنسر ! لقد ذكرت أنك قابلته منذ خمسة أشهر فقط .

— هذا صحيح . ولكن حين خرجنا معاً لبضعة أسابيع اكتشفت أننى أعرف والديه حق المعرفة .. فقد كنا جميعا فى كلية واحدة .

لقد انزلق لسانه قبل أن يتمكن من كبح جماحه . وارتفع حاجبا هادفيلد قليلا ، ولا شك أنه كان يتساءل عن السبب فى عدم حصول جيبسون على شهادته قط . ولـكنه كان من الـكياسة بحيث لم يتابع الحديث فى هذا الموضوع ؛ فلم يسأل سوى بضعة أسئلة عابرة عن والدى چيمى ووقت معرفته بهما .

على الأقل ، كانت تبدو أسئلة عابرة . . من النوع المتوقع أن يلقيه هادفيلد ، وأجابه جيبسون بكل براءة . ونسى أنه يتعامل مع أحد العقول الجبارة فى المجموعة الشمسية ، أشبه بعقله على الأقل فى تحليل الدوافع والبواعث لتصرف البشر . وحين انتبه إلى ما حدث ، كان السيف قد سبق العذل .

قال هادفيلد فى نعومة خادعة : إننى آسف ، ولـكن قصتك بأكملها تحتاج إلى اقناع . لا أعنى أن ما ذكرته لى ليس بصدق . فمن المحتمل جدا أن تولى سبنسر كل هذا الاهتمام ، لأنك كنت تعرف والديه جيدا منذ عشرين سنة . ولـكنك تماديت فى الإيضاح والتعليل ، ولا بد أن الموضوع كله يمس جوارحك من زاوية مختلفة تماما . . ثم انحنى فجأة إلى الأمام وأشار بإصبعـــــه إلى جيبسون مستطردا : إننى لست غبياً ياجيبسون ، فالتغلغل فى عقول الرجال هو مهنتى . لا حاجة بك إلى الإجابة عن سؤالى التالى إذا شئت ، ولـكنى أعتقد أنك الآن مدين لى بالإجابة چيمى سبنسر هو ابنك . أليس كذلك ؟

سقطت القنبلة ، وقضى الأمر . وكان الإحساس الوحيد الذى شعر به جيبسون خلال فترة الصمت التى تلت ذلك ، هو إحساس بالراحة الشاملة .

وأخيرا أجاب قائلا : نعم ، إنه ابنى . كيف خمنت ذلك ؟

وابتسم هادفيلد ، وقد بدا عليه شيء من الإعجاب بنفسه ، كما لو كان قد حسم مشكلة كانت تزعجه لفترة طويلة .

— من الغريب أن الغشاوة على أعين الرجال تحجب عنهم تأثيرات تصرفاتهم ، فيفترضون بكل بساطة أن قوى الملاحظة معدومة عند الآخرين. هناك تشابه طفيف ـ وإن كان واضحا ـ بينك وبين سبنسر ، وحين قابلتكما معاً لأول مرة تساءلت عما إذا كانت بينكما صلة قربى ، ودهشت كثيرا حين سمعت بعدم وجود هذه الصلة .

فقال جيبسون متعجبا : من الغريب جدا ، أننا كنا معاً فى الأريس لثلاثة أشهر ، ولم يلحظ أحد هناك هذا الشبه .

— أهو غريب إلى هـذا الحد ؟ إن زملاء سبنسر كانوا يعتقدون أنهم يعرفون ماضيه ، ولم يخطر ببالهم قط أن يقرنوه بك . يحتمل أن ذلك أعمى عيونهم عن التشابه الذى لاحظته فى الحال لأنى لم أتقيد بأية أفكار سابقة . وكان من الممكن أن أعتبره محض مصادفة لو لم تخبرنى بقصتك ، التى زودتنى بالأدلة المفقودة . أخبرنى ، هل يعلم سبنسر بذلك ؟

— إنى واثق بأنه لا يشك حتى فى ذلك .

— ولماذا أنت متأكد إلى هذا الحد ؟ ولم لم تخبره ؟

كان الاستجواب قاسيا ، ولكن جيبسون لم يستنكره . فلا أحد سوى هادفيلد له الحق فى إلقاء هذه الأسئلة ، وكان جيبسون فى حاجة إلى شخص ما ليبثه أسراره . . تماما كما احتاج چيمى إليه فى الأريس حين بدأ كشف الستار عن الماضى . من كان يظن أنه بدأ بنفسه كل ذلك ! من المؤكد أنه لم يحلم قط إلى أين يقوده .

قال جيبسون ، وهو يتململ فى مقعده : أظن أنه يجدر بى الرجوع إلى البداية . حين تركت الكلية كنت مصابا بانهيار تام ، ولبثت فى المستشفى ما يزيد على عام . وبعد أن غادرته كنت قد فقدت كل اتصال بأصدقاء كامبردج ، ورغم أن القليلين حاولوا استمرار الصلة بى ، إلا أنى كنت أرغب فى تجنب كل اتصال بأصدقاء كامبردج ، ورغم أن القليلين حاولوا ثانيا فيما بعد ، إلا أنه انقضت عدة سنوات قبل أن أعلم بما حدث لكاثلين . . أم چيمى ، ولكنها فى ذلك الوقت كانت قد قضت نحبها .

وتوقف عن الحديث ، وهو ما زال يتذكر عبر كل هذه السنوات شعوره بالعجب والحيرة لأنه لم ينفعل كثيرا لتلك الأنباء .

واستطرد قائلا : سمعت أن هناك ابنا ، فلم أفكر كثيرا فى الأمر .

لقد كنا دائما .. حسنا ! على حذر ، أو هكذا كان اعتقادنا .. فلم أزد على اعتباره ابنا لجيرالد . فـكما ترى، لم أكن أعلم موعد زواجهما . أو تاريخ ميلاد چيمى . وكل ما رغبت فيه هو نسيان الأمر بأكمله ، ولذلك طردته من خاطرى . بل لا أستطيع أن أتذكر الآن هل جال بخاطرى أن الطفل قد يكون ابنى . قد يصعب عليك تصديق ذلك ، ولـكنها الحقيقة المجردة .

ثم قابلت چيمى ، فارتدت إلى مخيلتى جميع الذكريات . وفى بادىء الأمر شعرت بالأسف له ، ثم بدأت أميل إليه ، ولـكنى لم أخمن الحقيقة قط . بل حاولت الربط بينه وبين جيرالد فى الشبه ، رغم أنى أتذكره الآن بكل صعوبة .

مسكين جيرالد ! بالطبع كان يعلم الحقيقة جيداً ، ولـكنه كان يحب كاثلين وكان يسعده الزواج بها مهما كان الأمر . من المحتمل أن حالته كان يرثى لها أيضاً مثلها تماما ، ولـكن ذلك الأمر أصبح الآن رجما بالغيب .

وأصر هادفيلد على الاستمرار قائلا : ومتى اكتشفت الحقيقة ؟

— منذ بضعة أسابيع فقط ، حين طلب منى چيمى الشهادة على بعض الوثائق الرسمية التى كان عليه أن يملأها .. فى الحقيقة ، كان طلبا قدمه لبدء العمل هنا . وذلك حين اكتشفت لأول مرة تاريخ ميلاده .

فقال هادفيلد فى تفكير : لقد فهمت . ولكن ، حتى هذا لا يعتبر إثباتاً دامغا ، أليس كذلك ؟

ولم يملك هادفيلد إلا أن يبتسم حين أجابه جيبسون فى استياء واضح : أنا واثق تماما من عدم وجود شخص آخر . وحتى لو تبقت لدى أية شكوك ، فإنك بددتها بنفسك .

وارتد هادفيلد إلى سؤاله الأصلى : وماذا عن سبنسر ؟ لقد أخبرتنى أنك واثق تماما من عدم معرفته لأى شىء . لماذا لا يحتمل أنه قام بمقارنة بعض التواريخ ؟ يوم زواج والديه مثلا ؟ من المؤكد أن ماذكرته له قد أثار الريبة فى نفسه .

فقال جيبسون وهو يتخير ألفاظه فى دقة وحرص القط الذى يسير فى طريق مبتل : لا أعتقد هذا . فهو ينظر إلى أمه كمثل أعلى ، ورغم أنه قد يخمن اننى لم أذكر له كل شىء ، إلا أنى لا أعتقد أنه توصل إلى الاستنتاج الصحيح . إنه ليس من النوع الذى يطوى صدره على السر إذا علم به . وفضلا عن ذلك ، ما زال يفتقد إلى الإثباتات ، حتى ولو عرف تاريخ زواج والديه .. وهو ما لا يعلمه معظم الناس . كلا ، إنى واثق أن جيمى لا يعلم ، وأخشى أن معرفته بهذا الأمر سيكون صدمة له .

ولاذ هادفيلد بالصمت ، ولم يتمكن جيبسون حتى من تخمين ما يدور بخلده ،

لم تكن قصة تبعث على الفخر ، ولكنه أظهر على الأقل فضيلة الصراحة .

وهز هادفيلد كتفيه كمن درس الطبيعة البشرية مدى الحياة ، ثم قال : إنه يحبك ، وسيتغلب على الصدمة تماما .

واسترخى جيبسون وأطلق تنهدة ارتياح ، فقد أدرك أن أسوأ مافى الأمر قد انقضى .

* * *

قال چيمى : يا إلهى . لقد استغرقتم وقتا طويلا حتى حسبت أنكم لن تنتهوا أبدا . ماذا حدث ؟

فأخذه جيبسون من ذراعه وقال : لا تجزع ، فكل شيء على ما يرام الآن . سينتهى كل شيء بالخير .

كان يتمنى ويعتقد أنه يذكر الحقيقة . لقد كان هادفيلد معقولا إلى حد يزيد بكثير عن بعض الآباء ، حتى فى هذا العصر .

إذ انبرى يقول : لست مهتما على الأخص بمن كان والد سبنسر ، فلسنا فى العصر الفيكتورى . إن ما يهمنى هو ذات الشخص ، ومن صالحه أننى أعجبت به . وبهذه المناسبة تحادثت فى شأنه مع القبطان نوردن ، وإذن فلست أعتمد على اجتماع الليلة فقط . نعم ، لقد تنبأت بحدوث كل ذلك منذ وقت طويل ! بل إن ما حدث كان أمرا لا مفر منه ، لأن فى المريخ عددا ضيئلا جدا من الشباب فى سن سبنسر .

وكان قد بسط يديه إلى الأمام — وهى عادة لاحظها جيبسون من قبل — ثم أخذ يحدق فى أصابعه بإمعان كما لو كان يراها لأول مرة فى حياته .

ثم أردف فى صوت رقيق : يمكن إعلان الخطبة غدا . والآن ، ماذا عن دورك أنت فى هذا الموضوع .. ورمى جيبسون بنظرة حادة ، فبادله هذا التحديق دون أن يرمش له جفن .

وأجاب جيبسون قائلا : أود أن أعمل مافيه الخير لجيمى ، حالما يمكنني تقرير كنه ذلك .

فسأله هادفيلد : أما زلت ترغب فى البقاء فى المريخ ؟

وأجاب جيبسون قائلا : لقد فكرت فى هذه الناحية أيضا . ولكنى لو عدت إلى الأرض ، فأى خير يكون فى ذلك ؟ لن يمكث جيمى هناك قط أكثر من بضعة شهور متوالية ، وفى الحقيقة سأراه كثيرا من الآن فصاعدا إذا بقيت فى المريخ !

فقال هادفيلد مبتسما : نعم ، أظن ذلك عين الحق . أما كيف ستهنأ أيرين بزوج يقضى نصف عمره فى الفضاء ، فهذا ما سنعرفه فيما بعد . . ومع ذلك ، فقد تمكنت زوجات البحارة منذ وقت طويل جداً من احتمال ذلك .

وتوقف فجأة ، ثم استطرد قائلا : أتعلم ما أظن أنه واجب عليك أن تفعله ؟

فأجاب جيبسون فى تأثر : يسعدنى جدا أن أسمع آراءك .

— لا تفعل شيئا حتى تنتهى الخطبة ويستقر كل شىء . لست أدرى وجه الخير فى الكشف عن شخصيتك الآن ، بل من المعقول أن يؤدى ذلك إلى الأضرار . ومع ذلك ، يجب أن تخبر جيمى فيما بعد عمن أنت . . أو من هو ، حسبما تحب أن تنظر إلى المسألة . ولكنى لا أعتقد أن اللحظة المناسبة ستحل قبل وقت طويل .

كانت هذه أول مرة يشير هادفيلد إلى سبنسر باسمه الأول . ويحتمل ألا يكون مدركا ذلك ، ولكن كان ذلك بالنسبة لجيبسون دليلا واضحا جليا على أنه بدأ يفكر فى جيمى باعتباره زوج ابنته . وبعثت فيه هذه المعرفة إحساسا فجائياً بصلة النسب والميل إلى هادفيلد . كانا متفقان على تكريس جهودهما لنفس الهدف مع إنكار للذات .. سعادة اثنين من الأبناء ، شاهدا فيهما تجدد شبابهما.

وحين استعاد جيبسون فيما بعد ما حدث ، رأى أن تلك اللحظة كانت بداية صداقته بهادفيلد ، أول رجل على الإطلاق أمكنه أن يحظى بإعجابه واحترامه دون حد . كانت صداقة قدر لها أن تلعب فى مستقبل المريخ دورا أهم مما كانا يتصوران .

بدأ اليوم كما يبدأ أى يوم آخر فى (بورت لويل) . تناول چيمى وجيبسون طعام الإفطار معاً فى هدوء .. فى غاية الهدوء ، إذ كان كلاهما غارقا فى أموره الشخصية . كان چيمى لا يزال فى حالة خير ما توصف به أنها حالة طرب وسرور ، رغم نوبات الكآبة التى تعتريه أحيانا حين يفكر فى ابتعاده عن أيرين ، بينما كان جيبسون يتساءل عما إذا كانت الأرض قد اتخذت بعد أى قرار فى طلبه . كان يثق أحيانا أنه اقترف خطأ جسيما ، بل كان يتمنى أن تكون الأوراق قد فقدت . ولكنه أدرك أنه مضطر إلى السير حتى نهاية الشوط ، وقرر أن يثير الأمر فى الإدارة .

وفى اللحظة التى ولج فيها المكتب، أمكنه أن يدرك حدوث شىء غير سار . قابلته المسز سميث ، سكرتيرة هادفيلد ، كعادتها دائما حين يأتى لمقابلة الرئيس . وعادة كانت تدخله على الفور ، بينما تنبئه أحيانا أن هادفيلد مشغول جدا ، أو يحادث الأرض ، فهل يمكنه العودة فيما بعد ؟ أما فى هذه المرة فلم تزد على قولها « آسفة ، فالمستر هادفيلد غير موجود ولن يعود قبل الغد ».

فسألها جيبسون : لن يعود ؟ هل ذهب إلى (سكيبا) ؟

فأجابت المسز سميث ، فى شيء من التردد ولـكنه تردد من الناحية الدفاعية : أوه ! كلا . أخشى ألا يمكننى التكلم . ولـكنه سيعود خلال أربع وعشرين ساعة .

وقرر جيبسون أن يحل هـذا اللغز فيما بعد . وافترض أن المسز سميث تعلم كل شيء عن موضوعه فيمكنها إذن أن تجيب عن سؤاله ، فقال: أتعلمين ما إذا كان الرد على طلبي قد وصل بعد ؟

وزاد الاكتئاب على وجه المسز سميث ، ثم قالت : أعتقد أنه وصل ، ولـكنه جاء على هيئة إشارة شخصية إلى المستر هادفيلد ولا يمكننى التحدث عنه . وأظن أنه سيـــود مقابلتك بخصوصه فور وصوله .

أثار ذلك سخطه إلى حد بعيد . لقد كان عـدم وصول الرد أمراً سيئاً للغاية ، ولـكن أسوأ من ذلك أن يصل ولا يسمح لك برؤيته . وأحس جيبسون بنفاد صبره ، فصاح قائلا : من المؤكد أنه لا يوجد أى باعث يمنعك من إخبارى عنه ! وخاصة إذا كنت سأعرف غدا على أية حال .

— إننى فى الحقيقة شديدة الأسف يامستر جيبسون . ولـكنى أعلم أن المستر هادفيلد سيتضايق كثيرا إذا ذكرت الآن أى شيء .

— أوه ، حسنا جدا .. قال جيبسون ذلك ، ثم اندفع خارجا وهو ينفخ من الغيظ .

وقرر جيبسون أن يفرج عن انفعالاته بمواجهة المحافظ هويتا كر .. المفروض وجوده دائما فى المدينة . وقد كان موجودا ، ولم يبـد عليه السرور لرؤية جيبسون الذى استقر فى ثبات فى مقعد الزوار بطريقة يتبين منها أنه جاد فيما ينوى عمله .

وبدأ يقول : استمع إلى ، إننى رجل صبور ، وأعتقد أنك تسلم بأنى غالبا لا أطلب اللامعقول .

ولما لم يبد على الآخر سيماء التقدم بالرد المناسب ، استطرد جيبسون قائلا فى عجلة : إن أمرا فى غاية الغرابة يحدث هنـا ، وأنا راغب فى التغلغل إلى أعماقه .

وتنهد هويتا كر . لقد كان يتوقع ذلك عاجلا أم آجلا . ومما يرثى له أن جيبسون لم يتمكن من الانتظار حتى الغد . فحينئذ يصبح الأمر غير ذى أهمية ..

وسأله : مالذى حدا بك إلى هذا الاستنتاج؟.

— أوه ، كثير من الأمور . . لم تـكن كلها عفو الساعة . لقد حاولت لتوى مقابلة هادفيلد ، وأخبرتنى المسز سميث أنه غير موجود فى المدينة ، ثم أطبقت شفتيها حين حاولت أن أسألهـــا بضعة أسئلة بريئة .

فضحك هويتا كر فى ابتهاج وقال : لا أستطيع أن أتخيلها تفعل ذلك!

— إذا حاولت أن تسلك نفس السبيل فسأبدأ فى قذف الأثاث فى الحجرة . على الأقل إذا لم يكن فى استطاعتك إنبائى عما يحدث ، فبحق السماء أخبرنى لماذا لا يمكنك إطلاعي عليه . إنه مشروع الفجر ، أليس كذلك ؟

فانتصب هويتاكر فى جلسته فزعا ، ثم سأله : كيف عرفت ذلك ؟

— لا عليك ، ففى وسعى أيضا أن أكون عنيداً .

فقال هويتاكر فى حزن : لست أحاول أن أكون عنيداً . لا تحسب أننا نحب السرية حباً فى التكتم ، فهو أمر مزعج لعين . ولكن هيا وابدأ بذكر ماتعرف .

— حسنا جدا ، إن كان فى ذلك مايلين عريكتك . إن مشروع الفجر يتصل بطريقة ما بمبنى سلالات النباتات فى أعلى التلال حيث تقومون بزراعة .. ماذا تطلقون عليه ؟.. الفيرا الأكسجينى . ولما كان إبقاء ذلك فى طى الكتمان لا يستند إلى سبب وجيه ، فلا سبيل سوى الافتراض بأنه جزء من خطة أكبر من ذلك بكثير . وتساورنى الريبة فى وجود صلة بينها وبين (فوبوس) ، رغم أنه لا يمكننى تخيل نوع هذه الصلة . ثم تمكنتم من إبقائه فى طى الكتمان حتى إن العدد القليل من الأشخاص فى المريخ الذين يعرفون عنه أى شىء يرفضون الحديث . ولكنكم لا تحاولون إخفاءه عن المريخ بقدر ما تحاولون إخفاءه عن الأرض . والآن ماذا يمكنك أن تدلى به !

ولم يظهر على هويتا كر أى أثر للارتباك ، ورد قائلا :

يجب أن أثنى على . . فطنتك . وقد يهمك أيضا أن تعرف أننى اقترحت على الرئيس منذ أسبوعين أننا يجب أن نضع فيك كل ثقتنا . ولكنه لم يتمكن من البت فى ذلك ، ومنذ ذلك الحين بدأت الأحداث تجرى بأسرع مما كان يتوقع أى شخص .

وأخذ يرسم خطوطا فى مفكرة الكتابة وهو شارد الفكر ، ثم استقر عزمه على قرار ما ، فاستطرد قائلا :

لا أستطيع أن أكشف لك عما يحدث الآن ، ولكن إليك قصة قصيرة قد تسليك . وأى تشابه فى الأشخاص أو الأماكن هو من قبيل المصادفة البحتة .

فضحك جيبسون وقال : فهمت . استمر .

— فلنفرض أن العالم (ا) أقام مستعمرة فى العالم (ب) خلال النزوة الأولى للسفر بين الكواكب . وبعد بضعة أعوام ، يكتشف أن ذلك يكلفه من النفقات أكثر مما كان يتوقع ، وأن المنفعة العائدة من هذه التكاليف غير ملموسة . حينئذ يظهر حزبان فى الكوكب الأم . أحدهما ـ وهو مجموعة المحافظين ـ ينادى بإنهاء المشروع . . أى تخفيض الخسائر والانسحاب . وتؤيده المجموعة الأخرى ـ التقدميين ـ استمرار التجربة ، لاعتقادها أن الإنسان مضطر على مر الأيام إلى اكتشاف

الكون المادي والسيطرة عليه ، وإلا كسدت أحواله فى كوكبه . ولكن مثل هذا الجدل لا يجدى مع دافعى الضرائب ، ولذا بدأت الكلمة العليا تصبح للمحافظين .

وأدى كل ذلك بطبيعة الحال إلى شعور المستعمرين بعدم الاستقرار ، إذ تزداد رغبتهم فى التحرر يوما بعد يوم ولا يرتضون النظر إليهم كأقارب فقراء يعيشون على الصدقة . ومع ذلك ، لا يجدون أى مخرج لهم .. حتى يتم فى أحد الأيام اكتشاف علمى ثورى . (كان الواجب أن أفسر منذ البداية أن الكوكب (ب) يجذب إليه أنبغ العقول من الكوكب (ا) ، وذلك سبب آخر بضايق هذا الأخير) . ويفتح هذا الاكتشاف أمام مستقبل (ب) آفاقا تكاد تكون غير محدودة ، ولكن يحتاج تطبيقه إلى بعض المخاطر ، بالإضافة إلى تحويل جزء كبير من موارد (ب) المحدودة . ومع ذلك ، يعرض المشروع .. فيكون نصيبه الرفض القاطع من (ا) . وينشب صراع طويل الأمد خلف الكواليس ، ولكن الكوكب الأم شديد المراس .

ويصبح المستعمرون أمام أحد احتمالين : فإما يمكن إعلان الموضوع على الملأ ومناشدة الجمهور فى العالم (!) ، ومن الواضح أنهم سيغلبون على أمرهم ، لأن أصوات الرجال هناك يمكن أن تطغى على أصواتهم . أما الاختبار الثانى فهو النهوض بالمشروع دون إخطار الأرض أقصد الكوكب (ا) — وذلك ماعزموا فى النهاية على تنفيذه .

وبالطبع كانت هناك عوامل أخرى كثيرة ، سياسية وشخصية ، بالإضافة إلى عوامل علمية . وقد تصادف أن كان رئيس المستعمرين رجلا ذا عزم خارق للعادة ، لا يخشى أى شيء أو أى شخص فى أى من الكوكبين وكان يسانده فريق من صفوة العلماء . وعلى ذلك ، بدأ العمل فى المشروع ، ولكن لا أحد يعرف بعد ما إذا كان مقدرا له النجاح . ويؤسفنى أنى لا أستطيع إنباءك بنهاية القصة ، فأنت تعلم كيف تنقطع هذه المسلسلات عند أهم المواضع إثارة .

فقال جيبسون : أظنك أخبرتنى بكل شيء تقريبا . أقصد كل شيء فيما عدا نقطة واحدة ثانوية . ما زلت لا أدرى ماهو مشروع الفجر . . ثم نهض واقفاً لينصرف وقال : سأعود غدا كى أستمع إلى الحلقة الأخيرة من مسلسلاتك المبتورة .

فأجاب هويتاكر وهو يلقى نظرة عابرة على الساعة : لن يكون هناك أى داع لذلك ، فسيجيئك النبأ اليقين قبل ذلك بفترة طويلة .

وحين غادر جيبسون مبنى الإدارة ، اعترض چيمى طريقه وقال لاهثاً : المفروض أننى الآن قائم بالعمل ، ولكننى كنت مضطرا للحاق بك . إن شيئا هاماً يجرى حدوثه .

فأجاب جيبسون فى شيء من نفاد الصبر : أعلم ذلك ، إن مشروع الفجر وصل إلى ذروته ، وهادفيلد قد غادر المدينة .

فبهت چيمى وأجاب قائلا :

— أوه ، لم أكن أظن أنك سمعت بذلك . ولكن هاك مالم تعرفه على أية حال . إن أيرين فى حالة اضطراب شديد . أخبرتنى أن والدها ودعها ليلة أمس كما لو كان .. حسنا ، كما لو كان لن يراها بعد ذلك .

فصفر جيبسون بشفتيه : إن ذلك يلقى على الأمور ضوءاً جديداً . فليس مشروع الفجر شيئاً هائلا فقط ، بل قد يكون خطرا. وكان ذلك أحد الاحتمالات التى لم تخطر بباله .

وأخيراً قال : مهما يكن ما يحدث ، فإننا سنعلم كل شىء عنه غدا . فقد أخبرنى هويتاكر بذلك على التو . ولكن أظن أنه يمكننى التخمين بمكان هادفيلد فى هذه اللحظة .

— أين ؟

— إنه هناك فى (فوبوس) . ذلك مفتاح السر فى مشروع الفجر ، وهناك ستجد الرئيس فى الوقت الحاضر .

كان جيبسون مستعداً للمراهنة بكل ما يملك على دقة هذا التخمين. ومن حسن حظه ، لم يكن هناك من يقبل الرهان ، لأنه كان على خطأ جسيم . كان هادفيلد فى ذلك الوقت بعيداً عن فوبوس قدر بعده عن المريخ ، إذ كان فى تلك اللحظة جالسا فى قلق داخل سفينة فضاء صغيرة مزدحمة بالعلماء وأجهزتهم التى فككوها على عجل . وكان يلعب الشطرنج

بطريقة سيئة للغاية ، مع أحد فطاحل علماء الفيزياء فى المجموعة الشمسية .
وكان منافسه يلعب بنفس السوء ، وسرعان ما اتضح لمن يراقبهما أن
غرضهما من ذلك لا يزيد على قطع الوقت. لقد كانوا ينتظرون ـ شأنهم
فى ذلك شأن كل شخص فى المريخ ـ ولكنهم الوحيدون الذين يعلمون
كنه ما يترقبون .

وانقضى النهار الطويل فى بطء شديد .. أطول نهار صادفه جيبسون
فى حياته . كان يوم الإشاعات والأفكار الطائشة : ففى ذهن كل شخص
فى (بورت لويل) نظرية ما ، كان يرغب فى إذاعتها . وحيث إن العالمين
ببواطن الأمور لزموا الصمت، والجاهلين بها أطلقوا ألسنتهم ، فقد ساد
المدينة حالة من الاضطراب التام حين جن الليل . وتساءل جيبسون عما
إذا كان الأمر يستحق السهر إلى ساعة متأخرة ؟ ثم قرر حوالى منتصف
الليل أن يأوى إلى فراشه . وكان مستغرقا فى النوم حين وصل مشروع
الفجر إلى ذروته ، فى خفاء ، وفى سكون .. يحجبه عنه جرم الكوكب .
لم يشاهد حدوثه سوى هؤلاء الرجال الذين يراقبونه من سفينة الفضاء ،
فتبدل حالهم فجأة من رزانة العلماء إلى صياح وضحك طلبة المدارس ،
حين استداروا بالسفينة مندفعين إلى موطنهم .

استيقظ جيبسون فى ساعة مبكرة من الصباح على صوت طرقات
عنيفة على الباب . كان چيمى يصيح به أن ينهض ويأتى إلى الخارج .

فارتدى ملابسه على عجل ، ولـكنه حين وصل إلى الباب كان جيمى قد سبقه خارجا إلى الشارع ، فلحق به عند باب المبنى . وكان الناس قد بدءوا يظهرون من كل ناحيـــــة ، يفركون أعينا يغلب عليها النوم ، ويتساءلون عما حدث . وارتفع طنين أصوات وصيحات بعيدة ، فبدت (بورت لويل) كخلية نحل سادها الاضطراب فجأة .

ومضت دقيقة كاملة قبل أن يدرك جيبسون السبب الذى أيقظ المدينة . كان الفجر على وشك البزوغ ، فقد كانت ناحية المشرق مضيئة بالأشعة الأولى لشروق الشمس . ناحية المشرق ؟ ياإلهى إن هذا الفجر كان يبزغ من ناحية الغرب .

لن تجد أحداً أقل إيمانا بالخرافات من جيبسون ، ومع ذلك طغت على ذهنه موجة من الرعب للحظة قصيرة . لم تستمر سوى برهة ، ثم عاد إليه صوابه . وأخذ الضوء الساقط على الأفق يزداد سطوعا ، وفى هذه اللحظة كانت أول الأشعة تلمس التلال المطلة على المدينة . فـكانت تتحرك فى سرعة .. أسرع بكثير جداً من أن يكون مصدرها الشمس . وفجأة اندفع شهاب ذهبى مشتعل خارجا من الصحراء ، وأخذ يرتفع نحو سمت الرأس فى مسار يكاد يكون رأسياً .

وكشفت سرعته الفائقة عن حقيقته . كان ذلك (فوبوس) . . أو ما كان يسمى فوبوس إلى بضع ساعات خلت . أما الآن فقد أصبح

قرصا ناريًا أصفر اللون ، وأمكن لجيبسون أن يشعر بحرارة احتراقه تؤثر فى وجهه . وساد المدينة حوله صمت مطبق ، وهى تراقب المعجزة وتنتبه فى بطء إلى ماقد يعنى ذلك بالنسبة للمريخ .

إذن فهذا مشروع الفجر . إنه اسم على مسمى . لقد بدأ كل جزء من اللغز يتخذ موضعه الصحيح ، ولكن الصورة النهائية لم تكتمل بعد . إن تحويل فوبوس إلى شمس ثانية كان معجزة حققتها — كما يبدو — الهندسة النووية ، ومع ذلك لم ير جيبسون كيف سيحل ذلك مشاكل المستعمرة . وكان لا يزال مشغولا بهذا الأمر حين دبت الحياة فى مكبرات الصوت التى يندر استخدامها فى بورتلويل، وانبعث صوت هويتاكر رقيقا فى الطرقات .

كان يقول : هاللو ، جميعا . أظنكم مستيقظين فى هذه اللحظة وشاهدتم ماحدث . إن الرئيس الإدارى عائد فى طريقه من الفضاء ويود مخاطبتكم . ها هوذا .

وصدرت تكة ، ثم قال أحدهم همسا : إنك متصل (ببورت لويل) ياسيدى . وبعد هنيهة انبعث صوت هادفيلد من مكبرات الصوت. كان مرهقا ولكن ظافرا ، كرجل حارب معركة هائلة وشق طريقه نحو النصر .

قال : هاللو ، يا سكان المريخ . هادفيلد يتحدث إليكم . إننى

ما زلت فى الفضاء فى الطريق إليكم ، وسأصل فى خلال ساعة تقريباً .

أتمنى أن تكون شمسكم الجديدة قد أعجبتكم . سيستغرق احتراقها الكامل حوالى ألف عام ، طبقا لحساباتنا . لقد فجرنا فوبوس وهو تحت أفق مدينتكم بمسافة كبيرة ، حتى نتحاشى ما قد يحدث لو أن ذروة الإشعاع المبدئى كانت مرتفعة كثيراً . وقد استقر التفاعل فى الوقت الحاضر عند المستوى الذى توقعناه تماما ، رغم أنه قد يزداد بنسبة ضيئلة خلال الأسبوع القادم . إن جوهره هو تفاعل ميزونى توافقى ، ذو فاعلية هائلة ولكنه ليس عنيفا إلى درجة كبيرة ، ولا مجال هناك لحدوث انفجار ذرى شامل فى وجود المادة التى يتكون منها فوبوس .

سيمدكم كوكبكم المنير بحوالى عشر حرارة الشمس ، مما سيرفع درجة حرارة معظم المريخ إلى حوالى قيمتها فى الأرض . ولكن هذا ليس السبب الذى من أجله فجرنا فوبوس . . أو على الأقل ، ليس السبب الرئيسى .

فالمريخ بحاجة إلى الأكسجين ، أشد من حاجته إلى الحرارة . . أما الأكسجين فمطلوب ليعطيه غلافا جويا صالحا مثل جو الأرض ، فيرقد كله تحت أقدامكم محبوساً فى الرمال . ومنذ عامين اكتشفنا نباتا يمكنه تحطيم الرمال وإطلاق الأكسجين . هو نبات استوائى .. يمكنه

النمو عند خط الاستواء فقط ، وهو فى الحقيقة قليل الانتشار حتى فى تلك المنطقة . وإذا أمكنه الحصول على ضوء كاف ، استطاع أن ينتشر فى أنحاء المريخ – مع بعض المساعدات من جانبنا – وبعد خمسين عاما يصبح لدينا هنا هواء يمكن للانسان أن يستنشقه . هذا هو الهدف الذى نرمى إليه ، وحين نصل إليه يمكننا التجوال فى المريخ حيثما نشاء وننسى كل شىء عن مدننا المحتمية بالقباب وأقنعة تنفسنا . إنه حلم ، سيعيش الكثيرون منكم لرؤيته يتحقق ، وهو يعنى أننا قدمنا إلى البشرية عالما جديداً .

وحتى فى الوقت الحاضر ، توجد بعض المكاسب التى سنحصل عليها فورا . سيصبح الجو أكثر دفئا ، على الأقل حين يجتمع فوبوس والشمس معاً ، ويصير الشتاء أكثر اعتدالا . وحتى رغم أن فوبوس لا يظهر فى الأماكن شمالى خط عرض سبعين درجة ، فإن رياح الحمل ستدفىء المناطق القطبية أيضاً ، وسيمنع ذلك من حجز الطل الثمين فى « الطواقى » الثلجية نصف العام .

وسيكون هناك بعض المساوىء ، فالآن ستصبح الفصول والليالى معقدة ، ولكنها ليست شيئاً مذكورا إلى جانب الفوائد . وحين تشاهدون كل يوم ذلك المنار الذى أشعلناه وهو يرتفع فى السماء ، ستتذكرون الدنيا الجديدة التى بعثناها إلى الوجود . تذكروا أننا نصنع التاريخ ، لأن هذه أول مرة حاول فيها الإنسان أن يغير وجه أحد

الكواكب . فإذا نجحنا هنا ، فسيحاول الآخرون أن يحذوا حذونا فى مكان آخر . فى العصور القادمة ، ستنشأ مدنيات كاملة فى عوالم لم نسمع عنها قط ، مدينة بوجودها لما فعلناه الليلة .

هذا كل ما أردت ذكره الآن . يحتمل أنكم قد تندمون على التضحية التى بذلناها لبعث الحياة مرة ثانية فى هذا الكوكب، ولكن ضعوا ما يلى نصب أعينكم .. رغم أن المريخ فقد قمراً ، فقد اكتسب شمسا .. ومن ذا الذى يشك فى أيهما أكثر نفعا ؟

والآن ، طابت ليلتكم جميعا .

ولكن أحداً فى (بورت لويل) لم يعد إلى فراشه ، فقد انقضى الليل بالنسبة إلى المدينة وبزغ فجر اليوم الجديد . وكان عسيراً على المرء أن يحول عينيه عن ذلك القرص الذهبي الدقيق وهو يرتفع باستمرار فى السماء ، بينما يتزايد الدفء المنبعث منه دقيقة بعد أخرى .

وسأل جيبسون نفسه ، ماذا ستفيد نباتات المريخ منه ؟ وسار فى الطريق حتى وصل إلى أقرب جزء من القبة حيث أحدق النظر خلال الجدار الشفاف . لقد حدث ما توقعه ، فقد استيقظت كل النباتات وولت وجهها شطر الشمس الجديدة . وتساءل عن تصرفها حين تكون كلتا الشمسين معاً فى السماء .

هبط صاروخ الرئيس بعد حوالى نصف ساعة ، ولكن هادفيلد

وعلماء مشروع الفجر تجنبوا الجماهير بدخولهم إلى المــدينة سيراً على الاقدام خلال القبة رقم سبعة ، وإرسالهم المركبة إلى المدخل الرئيسى لذر الرماد فى العيون .. وقد نجحت هذه الخدعة لدرجة أنهم وصلوا جميعا إلى مقرهم فى أمان قبل أن يدرك أحد حقيقة ماحدث ، أو قبل أن يبدأ أحد فى الاحتفالات التى كانوا لايحبذونها بسبب إرهاقهم الشديد . ومع ذلك ، لم يمنع هذا من تدبير عدد كبير من الحفلات فى كل أنحاء المدينة .. حفلات حاول كل من فيها الادعاء بأنه كان على بينة من مشروع الفجر طوال الوقت .

كان فوبوس يقترب من سمت الرأس ، على بعد أقرب بكثير من بعده عند الشروق — وتبعا لذلك كان أدفأ بكثير ، حين التقى جيبسون وجيمى برفاقهما فى سفينة الفضاء بين الجموع التى أصرت فى لطف — ولكن فى حزم — أن يفتح لهما چورج الحانة . وادعى كل شخص أنه جاء إلى المكان لوثوقه من وجود الآخرين فيه .

ولما كان من المتوقع أن يعلم هيلتون — بصفته كبير المهندسين — الكثير عن النوويات أكثر من أى شخص آخر من المجتمعين ، فقد دفعوا به إلى المقدمة وسألوه أن يفسر لهم ما حدث بالضبط ، فأنكر فى تواضع خبرته فى هذا الشأن .

واعترض قائلا : إن ما قاموا بعمله فى فوبوس يتقدم كل ما تعلمته فى الكلية بسنوات عديدة . وحتى التفاعلات الميزونية لم تكن معروفة حينئذ ، فما بالكم بطريقة السيطرة عليها . وفى الواقع لا أعتقد أن أى شخص فى الأرض يمكنه أن يفعل ذلك ، حتى فى الوقت الحاضر . لا بد أنه شىء عرفه المريخ من تلقاء نفسه .

فقال برادلى : هل تعنى أن المريخ يتفوق على الأرض فى الفيزياء النووية .. أو أى شىء من هذا القبيل .

وكادت هذه الإشارة تؤدى إلى شغب ، واضطر رفاق برادلى إلى إنقاذه من سخط المستعمرين . . ولكنهم فعلوا ذلك على مهل . وحين ساد الهدوء ، كاد هيلتون يعكر صفوه بقوله : أنت تعلم بالطبع أن لفيفا من صفوة علماء الأرض جاءوا إلى هنا خلال السنوات القليلة الماضية ، ولذلك فالأمر لا يدعو إلى العجب كما تظن .

كان هذا البيان على جانب كبير من الصحة ، وتذكر جيبسون الملاحظة التى أبداها هويتاكر فى ذات الصباح . لقد استهوى المريخ كثيرون غيره ، وقد أمكنه الآن أن يدرك السبب . ياله من إقناع مدهش ، ومفاوضات معقدة ، وإغواءات صريحة . . التى لابد وأن يكون هادفيلد قد لجأ إليها فى تلك السنوات القليلة الماضية ! من المحتمل

أن اجتذاب عقول الدرجة الأولى لم يكن من الصعوبة بمكان ؛ إذ يمكنهم تقدير أهمية هذا النزال فهرعوا لمواجهته . أما عقول الدرجة الثانية ، الذين يحتلون مركزا علميا لاغنى عنه أيضاً ، فقد يصعب العثور عليهم . وقد يمكنه ، يوما من الأيام ، معرفة خفايا هذا السر ، وا كتشاف كيفية بدء العمل فى مشروع الفجر وتوجيهه نحو النجاح .

وخيل إلى المرء أن مابقى من الليل مر كلمح البصر . وكان فوبوس منحدراً فى الناحية الشرقية من السماء حين بزغت الشمس لتحية منافسها . كان صراعا راقبته المدينة بأجمعها فى بهجة صامتة . . معركة من جانب واحد ليس لها سوى نتيجة متوقعة . فحين أضاء فوبوس وحده ليلا ، كان من السهل التظاهر بأنه يضارع الشمس فى ضيائها ، ولـكن الخيوط الأولى للفجر الحقيقى محت الصورة الخادعة . فقد أخذ فوبوس يبهت دقيقة بعد أخرى ، حين بدأت الشمس تخرج من أطراف الصحراء ، رغم أنه ما زال فوق الأفق بكثير . والآن يمكن للمرء أن يميز بالمقارنة لونه الشاحب الأصفر . لم يـكن هناك أى خطر من التباس الأمر على النبـــاتات التى تدور فى بطء وراء الضوء ، إذ حينما أشرقت الشمس صار فوبوس كما لو كان غير موجود على الإطلاق .

ولـكن لمعـانه كان كافياً ليقوم بمهمته ، وسيظل سيد ليل

المريخ مدى ألف عام . وبعد ذلك حين تخمـــد نيرانه نتيجة لاستهلاك العناصر المحترقة فى الوقت الحاضر أيا كان نوعها ، هل يعود فوبوس مرة أخرى قمراً عاديا لايضىء إلا عن طريق انعكاس أشعة الشمس ؟

كان جيبسون يعلم أن الأمر غير ذى أهمية . فسيؤدى مهمته حتى خلال قرن واحـــد ، ويصبح المريخ غلاف جوى لن يفقده مرة ثانية مدى أحقاب جيولوجية . وفى النهاية ، حين يذوب فوبوس وينتهى ، قد تجد علوم ذلك اليوم البعيد حلا آخر . . قد يـكون حلا يفوق تصور هذا العصر كما كان يبدو انبثاق عالم جديد منذ قرن مضى .

وحين أخذ اليوم الأول فى العصر الحديث يشب عن طوقه ، أخذ جيبسون يراقب ظله المزدوج الواقع على الأرض لفترة قصيرة . كان كلا الظلين يشيران إلى الغرب ، ولـكن رغم أن أحدهما لم يكد يتحرك من مكانه ، فإن أخفتهما أخذ يمتد حتى أثناء مراقبته له . وازدادت صعوبة تمييزه شيئا فشيئا ، حتى زال فى النهاية عندما غاب فوبوس تحت حافة المريخ .

كان اختفاؤه الفجائى سببا فى تذكر جيبسون بغتة لشىء نسيه خلال هرج الساعات القليلة الماضية . . كما غاب عن بال الـكثيرين فى

(بورت لويل) . لابد أن الأنباء وصلت الآن إلى الأرض ، إذ يحتمل أن يكون المريخ فى هـــذه اللحظة لامعاً إلى درجة تلفت الأنظار فى سموات الأرض .

وبعد فترة قصيرة جداً ، سترغب الأرض فى توجيه بعض أسئلة فى غاية الدقة .

كانت حفلة من تلك الحفلات الصغيرة التى تنال اهتمام شرائط الأنباء التليفزيونية . كان هادفيلد وكل موظفيه محتشدين عند حافة الخلاء ، فى حين ترتفع وراءهم قباب (بورت لويل) . وكان المصور يفكر فى أنها صورة بديعة التنسيق ، رغم أن الإضاءة المزدوجة التى تتغير باستمرار أثارت بعض الصعوبات الطفيفة .

ووصلت إليه الإشارة من حجرة التحكم ، فأخذ يحرك الآلة من اليسار إلى اليمين كى يعرض على المشاهدين جزءاً من المنطقة قبل الدخول فى صلب الموضوع . ولم يكن ذلك بسبب وجود الكثير مما يستحق المشاهدة . فالمنظر الخلوى كان منبسطا تماما ، وسيضيع كل جماله بسبب الإرسال عن طريق موجة لون واحدة . (لا يمكن للمرء استخدام مجال متسع من الألوان فى حالة الإرسال التليفزيونى على طول الطريق إلى الأرض . بل إن الإرسال غير الملون من الصعوبة بمكان) . وما كاد ينتهى من الكشف عن المنظر حتى صدر إليه الأمر بالتحول إلى هادفيلد ، الذى كان يلقى خطابا قصيرا فى تلك اللحظة . وكان ذلك مذاعا على قناة الصوت الأخرى فلم يتمكن من سماعها ، رغم أن غرفة التحكم تقوم بضم ذلك إلى الصورة التى كانت تبعث بها . وعلى أية

حال كان يعلم بالضبط ما يتضمنه حديث الرئيس . . فقد سمعه بأكمله من قبل .

وقام المحافظ هويتاكر بتسليم الجاروف الذى كان يتكىء عليه برشاقة خلال الدقائق الخمس السابقة ، وبدأ هادفيلد يكوم الرمل حتى غطى جذور نبات المريخ الطويل السنجابى الذى كان يسنده فى وقفته هيكل من الخشب . ولم يكن (عشب الهواء) — وهو الاسم الحالى الذى أطلق عليه فى أنحاء الكون — شيئا مثيرا ، فلم تكن تبدو عليه الصلابة الكافية كى ينتصب فى ثبات ، حتى تحت تأثير هذه الجاذبية المنخفضة . من المؤكد أنه لا يبدو كما لو كان فى استطاعته السيطرة على مستقبل أحد الكواكب .

وانتهى هادفيلد من الزراعة التذكارية ، فأى امرىء آخر يمكنه إتمام العمل وملء الحفرة . (كان فريق الزراعة ، يتسكع على بعد قليل فى انتظار رحيل العظماء حتى يمكنهم القيام بعملهم) . وأخذ الجميع يتصافحون ويربتون على ظهور بعضهم ، واختفى هادفيلد وسط الجموع التى التفت حوله . أما الوحيد الذى كان لا يعير كل ذلك أى اهتمام ، فهو رفيق جيبسون المريخى الذى كان يتأرجح على ساقيه الخلفيتين كإحدى تلك الدمى الثقيلة التى تتخذ نفس الوضع دائما مهما كانت الحالة التى تضعها فيها . وانثنى المصور نحوه ثم حرك العدسة لتصويره عن كثب ،

إذ أن تلك أول مرة يشاهد فيها أى شخص على الأرض مريخيا حقيقيا . على الأقل فى برنامج متحرك مثل هذا .

هاللو .. ماذا يدور فى خلده ؟ إن شيئا ما أثار انتباهه ، فقد فضحت سره اختلاجات تلك الآذان الغشائية الضخمة . وبدأ يتحرك فى قفزات قصيرة حذرة . وتابعه المصور ، وفى نفس الوقت زاد فى مجال الرؤية ليرى إلى أين هو ذاهب . ولم يلاحظ هذه الحركة أحد آخر ، فقد كان جيبسون منهمكا فى الحديث مع هويتاكر وبدا عليه أنه نسى رفيقه المدلل تماما .

إذن فتلك هى اللعبة ! سيكون ذلك شيئا جميلا ينال إعجاب أهل الأرض. وهل سيصل هدفه قبل أن يراه أحد ؟ نعم . . لقد نجح ! ففى قفزة نهائية واحدة وصل إلى الحفرة . وبدأ المنقار المثلث الصغير يقضم نبات المريخ الرقيق الذى غرس فى ذلك المكان بكل عناية . لاشك أنه اعتبر ذلك كرما من أصدقائه إذ تكبدوا تلك المتاعب من أجله . . أم هل كان يدرك فى الحقيقة أنه كان شقيا ؟ لقد كان بارعا فى تسلله حتى ليصعب التصديق بأنه فعل ذلك فى سلامة نية . وعلى أية حال ، لم يكن فى نية المصور أن يفسد عليه لهوه ، إذ كان يعرض صورة فى غاية الجمال .

وانتقل لحظة إلى هادفيلد ورفاقه ، الذين كانوا لا يزالون يهنئون بعضهم بعضا على العمل الذى كان سكويك منهمكا فى إتلافه بسرعة .

كان منظراً أجمل من أن يدوم ، فقد اكتشف جيبسون ما كان يحدث ، فندت عنه صرخة هائلة قفز لها كل الموجودين . ثم اندفع نحو سكويك ، الذى نظر حواليه بسرعة ، ثم رأى أن لا سبيل للاختفاء ، فلم يزد على الجلوس ساكناً ، وقد ظهرت عليه سيماء البرىء المجروح . واستسلم فى هدوء إلى محاولة إبعاده ، دون أن يزيد من جرمه بمقاومة سلطة القانون ، حين قبض جيبسون على إحدى أذنية وجذبه بعيداً عن مسرح الجريمة . وحينئذ التفت مجموعة من الخبراء حول (عشب الهواء) وسرعان ما قرروا أن الأضرار ليست جسيمة . . مما بعث الرضا فى نفوس الجميع .

كان حادثاً تافهاً ، لم يكن أحد يتصور أن تمتد نتائجه إلى المستقبل . ومع ذلك ، ألهمت جيبسون ألمع أفكاره وأكثرها نفعا رغم أنه لم يدرك تلك الحقيقة قط .

وكانت حياة مارتن جيبسون قد أصبحت فجأة فى غاية التعقيد . . ومثيرة إلى حد كبير . كان أحد الأوائل الذين قابلوا هادفيلد بعد البدء فى مشروع الفجر . فقد استدعاه الرئيس الإدارى ، ولكنه لم يتمكن من منحه سوى بضع دقائق من وقته . ومع ذلك ، كانت هذه فترة كافية لأن تغير مجرى حياة جيبسون .

وقال هادفيلد : يؤسفنى أن أبقيتك فى الانتظار ، ولكن لم يصلنى

الرد من الأرض إلا قبل أن أبارح المدينة مباشرة . والجواب هو أنك تستطيع البقاء هنا إذا أمكنك الاندماج فى مبنى إدارتنا . . حسب الاصطلاح الرسمى . ولما كان مستقبل (التنظيم الإدارى) عندنا يتوقف إلى حد كبير على مشروع الفجر ، فقد رأيت أنه من الخير تأجيل الأمر إلى ما بعد عودتى .

وانزاح عن كاهل جيبسون عبء الحيرة والالتباس . لقد استقر الأمر الآن ، وحتى لو كان مخطئا — وهو مالم يكن فى اعتقاده — فلا سبيل إلى التراجع . لقد وضع مصيره فى يد المريخ ، وسينضم إلى المستعمرة فى نضالها لإحياء هـذا العالم الذى كان فى تلك اللحظة يتقلب مسترخيا فى نومه .

وسأل جيبسون فى شىء من الاهتمام : ما هو العمل الذى ستكلفنى القيام به ؟

فأجاب هادفيلد وهو يبتسم : لقـــد قررت تنظيم موهبتك الرسمية .

— ماذا تعنى ؟

— أتذكر ما قلته لك فى أول مقابلة لنا ؟ لقـــد طلبت منك مساعدتنا ، ليس عن طريق تزويد الأرض بحقيقة الموقف فحسب ، ولـكن بإعطاء فـكرة عن أهدافنا أيضا وعن — ما يمـكنك أن تسميه على

ما أعتقد — الروح التى عمرنا بها المريخ . وقد أحسنت كثيرا ، رغم أنك لم تكن على علم بالمشروع الذى علقنا عليه أعظم آمالنا . ويؤسفنى أنى اضطررت إلى إخفاء مشروع الفجر عنك ، ولكن معرفتك لهذا السر وعدم إمكانك ذكر أى شىء عنه ، كان خليقا بأن يجعل مهمتك أكثر صعوبة . ألا توافقنى على ذلك ؟

ولم يكن جيبسون قد نظر إلى الموضوع من هذه الزاوية ، ولكن من المؤكد أنها وجهة نظر صائبة .

واستطرد هادفيلد قائلا :

— كنت مشتاقا إلى معرفة أثر إذاعاتك ومقالاتك . وقد لا تعلم أن لدينا طريقة حساسة لمعرفة ذلك .

فسأله جيبسون فى دهشة : كيف ؟

— ألا يمكنك التخمين ؟ كل أسبوع يعلن حوالى عشرة آلاف شخص فى جميع أنحاء الأرض عن رغبتهم فى المجىء إلى هنا ، يجتاز الاختبار الأولى منهم حوالى ثلاثة فى المائة . ومنذ بدأت مقالاتك تظهر فى انتظام ، ارتفع ذلك الرقم إلى خمسة عشر ألفا فى الأسبوع ، وما زال آخذا فى الازدياد .

— أوه .. قال جيبسون ذلك فى تفكير ، ثم أطلق ضحكة فجائية واستطرد قائلا :

— يبدو أننى أتذكر أيضا أنك لم تكن ترغب فى حضورى إلى هنا منذ بادىء الأمر .

فابتسم هادفيلد وقال : كانا معرضون للخطأ ، ولكنى تعلمت الاستفادة من خطئى . وخلاصة الموضوع ، ماأريده منك هو أن تشرف على قطاع صغير سيكون — بكل صراحة — قسم دعايتنا . وبالطبع ، سنبحث له عن اسم أفضل من ذلك ! إن عملك ينصب على رسم صورة مغرية للمريخ . إن الفرص أمامنا الآن أكبر بكثير ، حتى إننا نملك فعلا ما نستطيع أن نعرضه . فاذا أمكننا أن ندفع عددا كبيرا من الأشخاص إلى المطالبة بالمجىء هنا ، سنضطر الأرض إلى تدبير وسائل النقل . وكلما عجلنا بذلك ، أمكننا أن نتعهد للأرض فى وقت قريب بأننا سنقف على أقدامنا . مارأيك فى ذلك ؟

أحس جيبسون بخيبة أمل عابرة . فإذا نظرنا إلى الموضوع من إحدى زواياه ، لما وجدنا فى ذلك تغييرا يذكر . ولكن الرئيس الإدارى كان على صواب ، فهذه هى الطريقة الوحيدة التى يكون فيها ذا نفع كبير للمريخ .

وقال : يمكننى القيام بذلك . أمهلنى أسبوعا لتسوية شئونى الأرضيه وتصفية التزاماتى المعلقة .

وتبادر إلى ذهنه أنه متفائل بعض الشىء حين طلب إمهاله أسبوعا

ولكن فيه ما يكفى لتذليل الأمور . وتساءل عما ستقوله روث . قد تظن أنه فقد صوابه ، ويحتمل أن تكون على حق .

وقال هادفيلد راضى النفس : ستثير أنباء بقائك هنا كثيرا من الاهتمام وستكون سنداً كبيرا لمعسكرنا . ألديك اعتراض على أن نعلن ذلك فى الحال ؟

— لا أظن ذلك .

— عظيم . إن هويتاكر سيتحدث الآن معك حول تفاصيل الترتيبات . وكما تعلم ، بالطبع ، سيكون مرتبك هو مرتب ضابط إدارى من المرتبة الثانية فى مثل سنك .

— من الطبيعى أننى فكرت فى هذا . قال جيبسون ذلك ، ولم ير من الضرورى أن يضيف إليه أن أهمية هذه الناحية هى مسألة نظرية بحتة . فرغم أن مرتبه فى المريخ أقل من عشر دخله الكلى ، إلا أنه كاف تماما لمستوى حياة مريحة فى كوكب لا يوجد فيه سوى النزر اليسير من أنوان الترف . لم يكن متأكدا من كيفية استفادته بماله من ديون فى الأرض ، ولكن يمكن استخدامها دون شك لاستيراد شىء ما خلال عنق زجاجة أزمة الشحن القاسية .

وبعد اجتماع طويل مع هويتاكر ، الذى كاد ينجح فى تثبيط همته بتذمره من قلة الموظفين ووسائل الراحة ، أمضى جيبسون بقية يومه

يكتب عشرات من الرسائل اللاسلكية . وكان أطولها موجها إلى روث ، ويتناول معظمه — لا كله — شئون العمل . كانت روث دائبة التعليق على التنوع الكبير فيما تقوم به من أعمال نظير نصيبها البالغ عشرة فى المائة . وتساءل جيبسون عما ستقوله عن طلبه منها أن تلحظ بعنايتها شخصا اسمه چيمى سبنسر ، وتتعهده برعايتها بصفة عامة حين يكون فى نيويورك . . وهو ما قد يحدث كثيرا ، حيث إنه سيكمل دراساته فى معهد ماساشوستس للتكنولوچيا .

قد يسهل الأمور كثيرا لو أمكنه أن يخبرها بالحقيقة ، فعلى أية حال ، يحتمل أن تخمن كل شىء . ولكن ذلك لن يكون من العدل فى شىء بالنسبة لچيمى ، إذ قر رأى جيبسون أن يكون أول من يعلم . كانت تمر لحظات يزداد فيها توتر أعصابه لعدم إخباره بالأمر ، حتى إنه غالبا ما أحس بالسرور لقرب افتراقهما . ومع ذلك ، كان هادفيلد — كعادته — على حق . لقد انتظر جيلا بأكمله ، ويجب عليه أن ينتظر كذلك فترة قصيرة أخرى . إن كشف النقاب عن نفسه فى الوقت الحاضر قد يسبب الألم والارتباك لچيمى . . بل قد يؤدى إلى فسخ الخطبة بينه وبين أيرين . إن الوقت المناسب لابلاغه هو بعد زواجهما ، وهما ما زالا متحصنين — كما يأمل جيبسون — ضد أى صدمات يدبرها العالم الخارجى .

ومن سخرية القدر ، أنه وقد عثر أخيرا على ابنه ، أصبح الآن

مضطرا للافتراق عنه ثانياً .. يحتمل أن يكون ذلك جانباً من العقاب الذى يستحقه لأنانيته وجبنه — وذلك تعبير مخفف — منذ عشرين عاما . ولكن ، على الماضى أن ينـــدثر ، ويجب أن يفكر الآن فى المستقبل .

ولم يكن هناك أدنى شك ، فى عودة چيمى إلى المريخ بأسرع ما يمكنه . وحتى لو كان قد افتقد الفخر والرضى بالأبوة ، فقد يعوض ذلك فيما بعد رؤيته لأحفاده وهم يقبلون إلى هذا العالم الذى ساعد على إحيائه . ولأول مرة فى حياته ، وجد جيبسون أمامه مستقبلا يمكنه أن يتطلع إليه باهتمام وإثارة . . مستقبلا لن يكون مجرد تكرار للماضى .

* * *

ضربت الأرض ضربتها الحاسمة بعد أربعة أيام . وعلم جيبسون بالأمر لأول مرة حين شاهد عنوان الصفحة الأولى فى جريدة (تايمز المريخ) . وبقى مشدوها لحظة يحدق فى الكلمتين وقد غفل عن مواصلة القراءة .

استدعاء هادفيلد

تلقينا الآن أنباء تفيد بأن مجلس تطوير مابين الكواكب طلب

من الرئيس الإدارى ، العودة إلى الأرض على الأريس التى ستغادر ديموس خلال أربعة أيام . لم يذكر أى سبب .

كان هذا كل ما هنالك ، ولكنه سيقيم المريخ ويقعده . لم تذكر أية أسباب .. ولم يكونوا فى حاجة إليها . فكل شخص يعلم تماما سبب رغبة الأرض فى رؤية وارين هادفيلد .

وسأل جيبسون جيمى وهو يناوله الجريدة عبر مائدة الإفطار : ما رأيك فى هذا ؟

فشهق جيمى قائلا : يا إلهى ! إن المتاعب فى انتظاره الآن ! ماذا تظنه سيفعل ؟

— ماذا يمكنه عمله ؟

— حسناً ، يمكنه أن يرفض الذهاب . من المؤكد أن يسانده كل شخص هنا .

— إن ذلك سيزيد الأمور سوءا . إنه سيذهب قطعا . ليس هادفيلد من النوع الذى يهرب من المعركة .

وبغتة التمعت عينا جيمى وقال : معنى هذا أن أيرين ستذهب أيضاً .

فضحك جيبسون قائلا : مرحى ! لك أن تفكر فى ذلك ! أعتقد

أنك تتمنى أن يفيد كلا كما من الموقف . . ورب ضارة نافعة . ولكن لا تعتمد على ذلك ، فإن هادفيلد قد يترك أيرين وراءه .

وفكر فى أن ذلك بعيد الاحتمال . فحين يعود الرئيس ، سيحتاج إلى كل تعضيد معنوى يمكنه الحصول عليه .

ورغم كثرة الأعباء التى كانت فى انتظار جيبسون ، فقد قام بزيارة قصيرة للادارة حيث وجد الجميع فى حالة من السخط الممتزج بالترقب . السخط بسبب سلوك الأرض الشهم مع الرئيس ، والترقب لأن أحدا لم يعرف بعد كنه الإجراء الذى سيتخذه . وكان هادفيلد قد وصل مبكراً ذلك الصباح ، وحتى الآن لم يقابل أحـــداً سوى هويتاكر وسكرتيرته الخاصة . أما هؤلاء الذين لمحوه فقد قرروا أنه كان مبتهجا إلى حد غريب بالنسبة لرجل على وشك أن يستدعى — حسب الاصطلاح الفنى — بطريقة مخزية .

كان جيبسون يفكر فى هذه الأنبـاء وهو يقوم بدورة فى اتجاه معمل الأحياء . لقد افتقد رؤية صديقه المريخى الصغير مدى يومين ، ولذلك أحس بأنه مذنب إلى حد ما . وأخذ يتساءل ، وهو يسير ببطء فى (ريجنت ستريت) ، عن كنه الدفاع الذى سيتقدم به هادفيلد . لقد أدرك الآن تلك الملاحظة التى طرقت سمع جيمى : أيمكن للنجاح أن يسوغ كل شىء ؟ ما زال الطريق إلى النجاح طويلا للغاية ، فكما ذكر هادفيلد ، سيستغرق وصول مشروع الفجر إلى غايته نصف قرن ، حتى

ولو افترضنا الحصول على أقصى مساعدات من الأرض . لقد كان من الضرورى ضمان هذه المساعدات ، وسيبذل هادفيلد ما فى وسعه كيلا يعادى الكوكب الأم . وخير ما يمكن لجيبسون عمله لمساندته هو حمايته بسيل من القذائف البعيدة المدى التى يطلقها قسم الدعاية .

وكان سكويك مبتهجا لرؤيته كالعادة ، رغم أن جيبسون رد تحيته فى شىء من شرود الفكر . وكما يفعل كل مرة ، قدم إلى سكويك قطعة من (عشب الهواء) من المئونة المحفوظة فى المعمل . ولا أن هذا العمل البسيط قد جعل فكرة ما تنبثق فى عقله الباطن ، إذ توقف فجأة ثم استدار إلى كبير علماء الأحياء .

وقال له : لقد واتتنى فكرة مدهشة . أتذكر ما أخبرتنى به عن الحيل التى أمكنك أن تدرب سكويك عليها !

— أدربه عليها ! إن المشكلة الآن هى وقفه عند حده !

— كما ذكرت أيضاً أنك واثق إلى حد ما من إمكان تفاهم أهل المريخ بعضهم مع بعض ، أليس كذلك !

— حسنا ، لقد ثبت لمجموعتنا التى تقوم بالبحوث فى الخلاء أنهم يستطيعون تبادل الأفكار البسيطة ، وحتى بعض الآراء المبهمة مثل الألوان . وبالطبع ، لا يعنى ذلك شيئا كثيراً ، ففى إمكان النحل أن يفعل نفس الشىء .

— إذن أنبئنى برأيك فى الآتى . لم لا نعلمهم كيف يزرعون (عشب الهواء) لنا ! أنت تدرك المزايا الهائلة التى لديهم .. ففى إمكانهم الذهاب إلى أى مكان يشاءون فى المريخ ، بينما نحن مضطرون إلى الاستعانة بالآلات فى كل شىء . وبطبيعة الحال ، ليس من الضرورى أن يعرفوا مايفعلون . ما علينا إلا أن نزودهم بالأغصان اللينة (العسلوج) إنه ينتشر بهذه الطريقة ، أليس كذلك ؟ ندربهم على ما يجب عمله ، ثم نكافئهم فيما بعد .

— مهلا لحظة ! إنها فكرة جميلة ، ولكن ألم تغفل عن بعض النواحى العملية ؟ أعتقد أنه فى إمكاننا تدريبهم بالطريقة التى تقترحها — فقد عرفنا أكيداً ما فيه الكفاية عن نفسيتهم من هذه الناحية — ولكن هل لى أن أشير إلى وجود عشرة أفراد فقط ، بما فى ذلك سكويك.

فأجاب جيبسون نافد الصبر: لم أغفل عن ذلك ، ولكنى — بكل بساطة — لا أظن أن المجموعة التى عثرت عليها هى الوحيدة على قيد الحياة . فإن ذلك يكون من المصادفات التى لا يمكن تصديقها . لا شك فى ندرتهم إلى حد ما ، ولكن لابد من وجود مئات — إن لم يكن آلاف — منهم فى أنحاء الكوكب . سأقترح القيام بتصوير استطلاعى لكل غابات (أعشاب الهواء) ، ولن نجد صعوبة فى العثور على مراعيهم . وعلى أية حال ، أخذت فى اعتبارى وجهة نظر طويلة الأمد . الآن ، وقد أصبحت ظروف الحياة مواتية لهم إلى حد كبير ، سيبدءون فى التكاثر سريعاً . . . تماما كما بدأ نبات

المريخ يتكاثر . تذكر أننا حتى ولو تركنا (عشب الهواء) وشأنه فإنه سيغطى المنطقة الاستوائية فى أربعمائة عام .. طبقا لإحصائياتكم . فإذا تعاونا مع أهل المريخ على مساعدته على الانتشار ، فقد نختصر الفترة اللازمة لمشروع الفجر !

وهز عالم الأحياء رأسه فى شك. ولكنه بدأ القيام ببعض الحسابات فى إضمامة ورق مسودات . ولما فرغ من ذلك ، زم شفتيه ثم قال: حسنا إننى .. لا يمكننى فى الحقيقة إثبات استحالة ذلك ، فهناك عدد كبير من العوامل المجهولة ، بما فى ذلك أهمها ، وهو معدل التكاثر فى المريخ . وبهذه المناسبة ، أظنك تعلم أنها حيوانات ذات أكياس ؟

— أتعنى أنها شبيهة بحيوان الكنغر ؟

— نعم . فالوليد يعيش فى مخبأ حتى يمكنه أن يخرج إلى العالم البارد القاسى . وفى اعتقادنا أن كثيراً من الإناث تحمل صغارا ، ولذا يحتمل أنها تتناسل سنويا . ولما كان سكويك هو الصغير الوحيد الذى عثرنا عليه ، كان معنى ذلك أن معدل الوفيات مرتفع إلى حد مخيف . . وهو أمر لا يثير الدهشة بالنسبة لهذا الطقس .

فصاح جيبسون قائلا : تلك هى الأحوال المطلوبة بالضبط ! فالآن لن يقف شىء فى طريق تكاثرهم ، بشرط أن نهيىء لهم حاجاتهم من الطعام .

فقال عالم الأحياء في تحد : هل ترغب في إنتاج مريخيين ، أم في زراعة عشب الهواء ؟

فضحك جيبسون قائلا : كليهما .. إنهما متآلفان مثل السمك ورقائق البطاطس ، أو لحم الخنزير والبيض .

— أرجوك ! .. قالها الآخر متوسلا ، في تأثر عميق جعل جيبسون يعتذر على الفور لعدم كياسته . لقد نسي أن أحداً في المريخ لم يذق مثل هذه الأشياء منذ سنوات .

وكلما أنعم جيبسون النظر في فكرته الجديدة ، زاد إعجابه بها ، ورغم كثرة شئونه الشخصية ، وجد متسعا من الوقت لكتابة مذكرته بالموضوع إلى هادفيلد ، وتمنى أن يتمكن الرئيس الإداري من مناقشتها معه قبل عودته إلى الأرض . كان هناك شيء مشجع ، لا في فكرة إحياء عالم فحسب ، بل أيضا في إحياء جنس قد يكون أقدم عهداً من الإنسان .

وتساءل جيبسون عن مدى تأثير تغير الأحوال الجوية خلال مائة عام في أهل المريخ ؟ إذا ازداد الدفء بالنسبة إليهم ، يمكنهم الهجرة بكل سهولة شمالا أو جنوبا .. إلى المناطق تحت القطبية — إذا اقتضى الأمر — حيث لا يظهر فوبوس على الإطلاق . أما من جهة الجو الأكسجيني ، فقد اعتادوا ذلك في الماضي وقد يتأقلمون مرة ثانية .

هناك دلائل هامة على أن سكويك يحصل فى الوقت الحاضر على معظم ما يحتاج إليه من الأكسجين من هواء (بورت لويل) ، ويبدو أنه موفق فى ذلك .

وما زالت الإجابة مجهولة عن السؤال الهام الذى أثاره اكتشاف أهل المريخ . كانوا سلالة أقل مرتبة تختلف عن جنس وصل إلى الحضارة منذ أمد بعيد ، ثم تركتها تفلت من قبضتها حين ساءت الظروف ؟ كانت هذه وجهة نظر شاعرية لا دليل عليها على الإطلاق . لقد أجمع رأى العلماء على الاعتقاد بعدم وجود حضارة متقدمة فى المريخ إطلاقا .. ولكنهم أخطأوا مرة وقد يكونون على خطأ مرة ثانية . وعلى أية حال ، سيكون مدى تقدم أهل المريخ فى مرحلة التطور والارتقاء — الآن وقد ازدهرت الدنيا لهم ثانياً — تجربة مثيرة للغاية .

لأن ذلك كان عالمهم ، وليس عالم الانسان . فمهما يهيء لأغراضه الخاصة ، فمن واجبه دائما أن يحافظ على مصالح أصحابه الشرعيين . لا يمكن أن يتنبأ أحد بالدور الذى قد يلعبونه فى تاريخ الكون . وحين يستلفت الإنسان — كما هو محتم فى يوم من الأيام — أنظار أجناس أرقى منه ، سيكون تصرفه هنا فى المريخ خير حكم عليه .

— يؤسفنى أنك لن تأتى معنا يا مارتن . . قال نوردن ذلك وهم يقتربون من المغلاق الغربى رقم واحد ، ثم استطرد : ولكنى واثق بأنك فعلت الصواب ، ونحن جميعا نقدرك لذلك .

فقال جيبسون فى إخلاص : شكراً . كان يسرنى العودة فى صحبتكم جميعا ، ومع ذلك ، ستسنح كثير من الفرص فيما بعد ! ومهما يحدث ، فلن أبقى على المريخ طوال حياتى .. ثم قهقه مستطردا : أظن أنه لم يخطر ببالك قط أنك ستستبدل الركاب بهذه الطريقة .

— هذا صحيح . سيكون الأمر مربكا فى بعض نواحيه ، إذ سأحس بشعور قبطان الباخرة التى أقلت نابليون إلى جزيرة (إلبا) . كيف تقبل الرئيس هذه المسألة ؟

— لم أتحدث إليه منذ وصول الاستدعاء ، رغم أنى سأراه غدا قبل رحيله إلى ديموس ، ولكن يقول هويتاكر إنه يبدو واثقا تماما بنفسه ، ولم تظهر عليه أدنى أمارات القلق .

— ماذا تظنه سيحدث ؟

— إنه معرض من الناحية الرسمية إلى التوبيخ لإساءة استعمال الاعتمادات المالية والأجهزة والأشخاص .. أوه ، ما يكفى لأن يزج به

فى السجن مدى الحياة . وحيث إن نصف الاداريين وجميع العلماء فى المريخ منغمسون فى الموضوع ، فماذا فى وسع الأرض أن تفعل ؟ إنه حقا موقف مسل للغاية . والرئيس الإدارى بطل شعبى فى عالمين ، ولذا سيعامله مجلس تطوير ما بين الكواكب فى رقة ودعة . وأعتقد أن قرارها سيكون كالآتى : « ما كان يجب أن تفعل ذلك ، ولكن يسرنا أنك فعلته » .

— ثم يسمحون له بالعودة إلى المريخ ؟

— إنهم مضطرون لذلك ، فلا يوجد من يمكنه أن يتحمل أعباء عمله .

— فى يوم ما ، سيحتاج الأمر إلى شخص آخر .

— هذا عين الصواب ، ولكن التخلى عن هادفيلد — وهو ما زال قادراً على العمل لسنوات قادمة — يعتبر ضربا من الجنون . وكان الله فى عون من يرسلونه ليحل محله .

— من المؤكد أنه موقف عجيب . وأعتقد أن أموراً كثيرة تجرى لا نعرف عنها شيئاً . لماذا رفضت الأرض مشروع الفجر عند اقتراحه بادىء الأمر ؟

— إننى أتساءل عن سبب ذلك ، وقد عزمت على الوصول إلى السر وراء ذلك يوما ما . أما رأيى الحالى فهو . . أعتقد أن كثيرا من

سكان الأرض لا يريدون للمريخ أن يصبح أقوى من اللازم ، ولا حتى كامل الاستقلال . وأود أن ألفت نظرك إلى عدم وجود سوء النية ، ولكنهم بكل بساطة لا يحبذون الفكرة نفسها . إذ أنها تجرح كبرياءهم جرحا بالغاً ، فهم يرغبون فى أن تظل الأرض مركز الكون .

فقال نوردن : من المضحك طريقة حديثك عن الأرض كما لو كانت بعض مزيج من الشح والاستبداد ، تقف فى سبيل كل تقدم هنا . ومهما يكن ، فليس ذلك من العدل فى شىء ! إنكم تتذمرون فى الحقيقة من الإداريين فى مجلس تطوير ما بين الكواكب وكل المنظمات التابعة لها .. وهم فى الحقيقة يحاولون عمل كل ما فى وسعهم . لا يغيبن عن بالك أن كل ما تملكونه هنا يرجع إلى ما قدمته الأرض منذ البداية . . وأطلق ضحكة تكاف ملتوية ثم استطرد قائلا : إن ما أخشاه أنكم أيها المستعمرون تنظرون إلى الأمور من ناحية مصالحكم فقط . فى إمكانى إدراك جانبى المشكلة . فحين أكون هنا ، أفهم وجهة نظركم ويمكنني أن أعطف عليها . ولكن بعد ثلاثة شهور سأكون فى الناحية الأخرى ويحتمل جدا أن أعتقد أنكم هنا فى المريخ مجموعة متذمرة ناكرة للجميل !

وضحك جيبسون فى شىء من الضيق : إن فيما ذكره نوردن كثيرا من الصدق . لقد نتج عن الصعوبة والتكاليف الواضحة فى السفر بين

الكواكب ، وعما يستغرقه الانتقال من عالم إلى آخر من وقت ، سوء تفاهم لا مفر منه — بل تعصب — بين الأرض والمريخ . وكان يأمل فى زوال هذه العوائق النفسية حين تزداد سرعة المواصلات ، فيتقارب الكوكبان روحيا كما تقرب بينهما مدة السفر .

وكانا قد وصلا فى تلك اللحظة إلى المغلاق ، وأخذا ينتظران المركبة لتنقل نوردن إلى المطار فى الخارج . أما بقية الفريق « الطاقم » فقد سبق أن ودعوا الأصدقاء وكانوا فى طريقهم إلى ديموس فى ذلك الوقت . وتلقى چيمى وحده تصريحا خاصا بالطيران مع هادفيلد وأيرين فى اليوم التالى . وأدرك جيبسون فى شيء من التفكه أن أحوال چيمى قد تغيرت بلا ريب منذ أن غادرت الأريس الأرض . وتساءل عن قدر استفادة نوردن من رحلة الإياب إلى الوطن .

* * *

وقال جيبسون وهو يمد يده حين فتح باب المغلاق الهوائى : حسناً ياچون ، أتمنى لك رحلة سعيدة . متى سأراك ثانياً ؟

— بعد حوالى ثمانية عشر شهراً ، إذ يجب أن أقوم أولا برحلة إلى الزهرة . وحين أعود إلى هنا ، أتوقع أن أجد تغيراً كبيراً . . عشب هواء ومريخيين فى كل مكان !

فقال جيبسون ضاحكا : لاأعدك بالكثير فى تلك الفترة ، ولكن سنبذل كل ما فى طاقتنا حتى لا نخيب أملك !

وتصافحا ، ثم انطلق نوردن فى حال سبيله . ولم يسع جيبسون سوى الإحساس بالغيرة تنهش صدره وهو يفكر فى كل الأشياء التى سيعود الآخر إليها .. كل الأشياء الجميلة التى لا حصر لها فى الأرض والتى سلم بها جدلا من قبل. أما الآن فقد لا يراها ثانياً قبل عدة سنوات .

كان لايزال أمامه وداعان ، وهما أشقهما على نفسه . ستحتاج مقابلته الأخيرة مع هادفيلد إلى كثير من الكياسة واللباقة . لقد أدرك أن تشبيه نوردن كان فى موضعه، إذ أن الاجتماع أشبه بمقابلة مع ملك مخلوع على وشك الإبحار إلى المنفى .

وفى الحقيقة ، تبين خطأ هذا التشبيه . فلم يزل هادفيلد سيد الموقف ولم يبد عليه أى قلق نحو مستقبله . وحين دخل عليه جيبسون ، كان قد فرغ من فرز أوراقه ، وبدت الغرفة عارية كئيبة بينما تكدست ثلاث سلال للأوراق المهملة بما استغنى عنه من نماذج ومذكرات، إذ سيتولى هويتا كر السلطة فى اليوم التالى باعتباره نائب الرئيس الإدارى .

قال هادفيلد وهو ينقب فى الأركان الداخلية لمكتبه : لقد تصفحت مذكرتك عن أهل المريخ وعشب الهواء . إنها فكرة مثيرة للغاية . ولكن لم أجد من ينبئنى عما إذا كانت ستنجح أم لا . إن الموقف فى

غاية التعقيد ولا يوجد بين أيدينا معلومات كافية . والمشكلة تتبلور فى هذا السؤال . . هل تعود علينا مجهوداتنا بفائدة أكبر إذا علمنا أهل المريخ زراعة عشب الهواء ، أم إذا قمنا بالعمل بأنفسنا ؟ وعلى أية حال ، سنكون مجموعة بحوث صغيرة لدراسة الفكرة ، رغم أننا لا نستطيع أن نتقدم كثيرا حتى نعرف مزيدا عن أهل المريخ ! لقـــد طلبت من الدكتور بيترسن أن يعالج الناحية العلمية ، وأحب منك أن تتصرف فى المشكلات الإدارية كلما ظهرت .. على أن تدع القرارات الهامة لهويتا كر بالطبع . أما بيترسن فهو شخص معقول وإن أعوزه التصور . وفيما بينكما أنتما الاثنين ينبغى أن نحصل على التوازن المعقول .

— يسعدنى جداً أن أبذل كل جهدى . . قال جيبسون ذلك وهو مسرور للغاية لهذا المطمح ، رغم أنه كان يتساءل فى شىء من العصبية عن كيفية تحمله للمسئوليات المتزايدة . ومهما كان ، فإن الحقيقة الكائنة عن إسناد الرئيس ذلك العمل إليه ، شـــدت من عزيمته ، فمعنى ذلك — على أية حال — أن هادفيلد كان واثقا بكفايته فى معالجة الأمور .

وقد تبين لجيبسون — خلال مناقشتهما للتفاصيل الإدارية — أن هادفيلد لم يكن يتوقع أن يغيب عن المريخ أكثر من عام . بل بدا عليه أنه يتطلع إلى رحلة الأرض ، باعتبارها عطلة كان يستحقها منذ أمد طويل . وتمنى جيبسون أن تأتى النتائج محققة لهذا التفاؤل .

وقرب نهاية الاجتماع ، تحول الحديث إلى موضوع لا مناص منه.. أيرين وچيمى . فإن رحلة العودة الطويلة إلى الأرض ستزود هادفيلد بجميع الفرص التى يحتاج إليها لدراسة زوج ابنته المرتقب ، وتمنى جيبسون أن يسلك چيمى أفضل سلوك . ومن الواضح أن هادفيلد كان يتأمل هذه الناحية من الرحلة فى تسلية هادئة . فكما أشار إلى جيبسون أنه إذا أمكن لأيرين وچيمى أن يحتملا بعضهما مدى ثلاثة أشهر فى مكانين متجاورين إلى هذا الحد ، فلا شك أن زواجهما سيكلل بالنجاح. أما إذا لم يكن ذلك فى إمكانهما .. إذن كلما أسرعا فى اكتشافه ، كان هذا أفضل لكليهما .

وحين غادر جيبسون مكتب هادفيلد ، أمل أن يكون قد أوضح بجلاء مشاركته فى وجدانه . كان الرئيس الإدارى يعلم أن المريخ بأكمله يشد أزره ، وسيبذل جيبسون أقصى جهده ليكتسب إلى جانب ذلك تعضيد الأرض له . ونظر خلفه إلى الحروف المتواضعة المنقوشة على الباب . لم تكن هناك حاجة إلى تغييرها، مهما يحدث ؛ إذ تشير الكلمات إلى المركز لا إلى الشخص . سيعمل هويتاكر خلف هذا الباب اثنى عشر شهرا كحاكم ديموقراطى للمريخ ، وكخادم مخلص للأرض فى حدود معقولة . وأيا كان من يجىء أو يذهب ، ستبقى الحروف المنقوشة على الباب . كانت هذه فكرة أخرى من أفكار هادفيلد . . وضع التقليد بأن المركز أهم كثيرا من الشخص . وفكر جيبسون فى أنه لم

يبدأ هذا التقليد بداية طيبة ، إذ أن العمل وراء ستار ، نادرا ما كان إحدى صفات هادفيلد الشخصية .

سافر آخر صاروخ إلى ديموس بعد ثلاث ساعات وهو يحمل هادفيلد وأيرين وچيمى . وكانت أيرين قد جاءت إلى (جراند مارشيان هوتيل) لمساعدة چيمى فى حزم أمتعته وتوديع جيبسون . وكانت قد غمرها الانفعال وطفح وجهها بالبشر والسعادة ، حتى إن مجرد الجلوس لمراقبتها كان يجلب السرور فى النفس . لقد تحققت أحلامها سريعاً ، فكانت فى طريقها إلى الأرض .. وفى صحبة چيمى . وتمنى جيبسون ألا تصاب بخيبة أمل فى أحــــد هذه الأحلام ، وكان لا يعتقد أنها ستصادف ذلك .

وقد أدت كثرة التذكارات التى جمعها چيمى فى المريخ إلى صعوبة حزم أمتعته .. وكان معظمها عينات من النباتات والمعادن التقطها خلال مختلف الرحلات خارج القبة . كان من الضرورى وزن كل هذه الأشياء بعناية ، وحين اكتشف زيادة الوزن المصرح به بمقـدار كيلو جرامين اضطر إلى البت فى الأمر وهو مكلوم الفؤاد . ولـكن انتهى أخيراً حزم آخر حقيبة وأرسلت فى طريقها إلى المطار .

وقال جيبسون : والآن لاتنس الاتصال بالمسز جولدشتين فور وصولك ، فإنها تتوقع اتصالك بها .

فأجاب چيمى قائلا : لن أنسى . إنه لجميل منك أن تتـكبد كل

هذه المتاعب . إننا فى الحقيقة نقــدر كل ما تفعله . . أليس كذلك يا أيرين ؟

فأجابت قائلة : نعم ، من المؤكد أننا نقدره. لست أدرى كيف كان يمكننا التصرف بدونك .

فاغتصب جيبسون ابتسامة ثم قال : على أية حال ، أعتقد أنه كان فى استطاعتكما تدبير الأمر بطريقة ما ! ولـكن يسرنى أن الأمور سارت سيراً حسناً بالنسبة إليـكما ، وأنا واثق بأنـكما ستكونان فى غاية السعادة . و . . أعنى ألا يمضى وقت طويل قبل عودتـكما إلى المريخ .

وحين ضغط جيبسون على يد چيمى يودعه ، أحس مرة أخرى بتلك الرغبة الطاغية تدفعه لأن يكشف عن شخصيته ، ويسلم على چيمى كما يودع الأب ابنه مهما تـكن النتائج . ولـكنه عرف الآن أنه لو فعل ذلك ، فإن ما يدفعه إليه هو الأنانية البحتة . وسيكون نوعا من الأثرة وحب الذات الذى لا يغتفر ، وقد يؤدى إلى إفساد كل الأعمال الطيبة التى قام بها خلال تلك الشهور الماضية . ومع ذلك ، حين ترك يد چيمى لمح فى تعبيرات وجهه شيئا لم يشاهده قط من قبل . يحتمل أن يكون ذلك أول تخمين أثار الحيرة فى نفسه ، ومولدا لشبه إلهام قد يتطور فى النهاية إلى إدراك ومعرفة كاملة . تمنى جيبسون أن يكون الأمر كذلك إذ أن ذلك يسهل مهمته عندما يحين الوقت .

وراقبهما يبتعدان متشابكى الأيدى فى الشارع الضيق ، غائبين عن كل ما حولهما ، وكانت أفكارهما منذ الآن تحلق منطلقة فى الفضاء . إنهما الآن قد نسياه ، ولكنهما سيذكرانه فيما بعد .

* * *

كان الوقت قبل الفجر مباشرة حين غادر جيبسون المعلاق الهوائى الرئيسى وسار مبتعدا عن المدينة التى كانت لا تزال غارقة فى النوم . وكان فوبوس قد غرب منذ ساعة ، ولم يكن ثمة ضوء سوى ماينبعث من النجوم ومن القمر ديموس الذى كان فى تلك اللحظة عاليا ناحيـــــة الغرب . وألقى نظرة على ساعته . . لا يزال أمامه عشر دقائق إن لم تصادفه عقبات .

وقال : هيا يا سكويك . دعنا نقم بجولة سريعة على الأقدام تبعث الدفء فى أوصالنا . . ورغم أن درجة الحرارة فى الجو المحيط بهم كانت خمسين درجة تحت الصفر على الأقل ، إلا أنه لم يبد على سكويك أى اضطراب غير عادى . ومع ذلك ، رأى جيبسون من الخير أن يبقيه دائم الحركة . أما هو شخصياً فقد كان بطبيعة الحال فى غاية الراحة ، إذ كان يرتدى ملابسه الواقية كاملة .

ما أسرع ما نمت تلك النباتات فى الأسابيع القليلة الماضية ! لقد أصبحت الآن أطول من الإنسان ، ورغم أن جزءاً من هــذا الطول قد يكون

طبيعياً ، إلا أن جيبسون كان واثقا أن معظمه يرجع إلى فوبوس . لقد بدأت آثار مشروع الفجر تظهر فى المريخ . وحتى طاقية القطب الشمالى — المفروض أنها تقترب الآن من ذروة حجمها فى منتصف الشتاء — توقفت فى زحفها على نصف الكرة المقابل . . أما بقايا « الطاقية » الجنوبية فقد تلاشت نهائياً .

وتوقفا على بعد كيلومتر واحد من المدينة ، بعيدا عن أضوائها إلى حد لا يعوق مراقبة السماء . وألقى جيبسون نظرة أخرى على ساعته . باق من الزمن أقل من دقيقة ، وكان يدرك إحساسات أصدقائه فى تلك اللحظة . وأخذ يحدق النظر فى قرص ديموس المحدب الدقيق الذى يكاد يرى بالعين .. ثم انتظر .

وعلى حين بغتة ، أصبح ديموس لامعاً إلى حد ملحوظ . وبعدلحظة بدا كما لو كان قد انشق إلى جزءين ، وذلك حينما انفصل عن حافته نجم دقيق لامع إلى حد غير عادى ، ثم بدأ يزحف فى بطء ناحية الغرب . لقد كان وهج الصواريخ الذرية مبهرا للبصر يكاد يؤذى العين حتى عبر هذه الآلاف من الكيلومترات فى الفضاء .

ولم يكن لديه أدنى شك فى أنهم يراقبونه . لابد وأنهم واقفون عند نوافذ الأرصاد هناك فى الأريس ، يلقون نظرة على الهلال الضخم . . العالم الذى يغادرونه فى تلك اللحظة ، تماما كما ألقى هو نظرة وداع على الأرض منذ دهر طويل كما خيل إليه .

فيم كان يفكر هادفيلد فى تلك اللحظة ؟ أكان يتساءل عما إذا كان مقدراً له أن يرى المريخ مرة ثانية ؟ لقد تلاشى كل أثر للشك فى نفس جيبسون من هذه الناحية . فمهما تكن المعارك التى قد يواجهها هادفيلد ، فإنه سينتصر كما فعل فى الماضى . كانت عودته إلى الأرض هى عودة الفوز لا الخزى .

وفى تلك اللحظة ، كان ذلك النجم الأزرق المائل إلى البياض الذى يخطف الأبصار ، على بعد عدة درجات من ديموس ، وقد أخذ يتقهقر مبطئا فى سرعته كى يهبط فى اتجاه الشمس .. والأرض .

بزغت حافة الشمس فوق الأفق الشرقى ، وأخذت النباتات الخضراء الطويلة فى كل جانب تتحرك فى سباتها .. سبات سبق أن أقلقه مرور فوبوس عبر السماء فى سرعة هائلة . وألقى جيبسون نظرة أخرى على النجمين الغاربين ، ثم رفع يده فى وداع صامت .

وقال : هيا بنا يا سكويك ، فقد حان وقت عودتنا ، لدى أعمال أقوم بها .. ثم قرص أذنى المريخى الصغير بأصابعه المغطاة بالقفاز .

واستطرد قائلا : ولديك أنت أيضاً ماتقوم به ، ورغم أنك لا تعلم شيئا بعد ، فإن أمام كلينا عملاً ضخماً ينتظرنا .

وسارا معاً ناحية القباب الضخمة التى كانت فى تلك اللحظة تلمع خافتة فى أول ضوء النهار . الآن ، وقد ذهب هادفيلد وجلس رجل

آخر خلف الباب المكتوب عليه (الرئيس الإدارى) ، بدت (بورت لويل) غير مألوفة .

وتوقف جيبسون فجأة . لقد تكشف المستقبل أمام بصيرته للحظة عابرة ـ كما بدت له ـ بعد خمسة عشر أو عشرين عاما . من ينتظر أن يكون الرئيس حينئذ ، عندما يبدأ مشروع الفجر دخول مرحلته المتوسطة ويصير فى الإمكان التنبؤ بنهايته ؟

تبادر السؤال والإجابة عليه إلى ذهنه فى نفس اللحظة . ولأول مرة ، أدرك جيبسون ما ينتظره فى نهاية الطريق الذى بدأ الآن يسير فيه . يحتمل ، يوما ما ، أن يصبح من واجبه ـ ومن حقه ـ أن يتسلم العمل الذى بدأه هادفيلد . قد تكون تلك أحلاما كاذبة بحتة ، أو لعلها أول شعور بالقوى التى ما زالت كامنة بداخله . . وقد عزم على معرفة أيهما يمثل الحقيقة .

وبخطوات تجدد فيها النشاط ، استأنف مارتن جيبسون ـ كاتب ، ومن سكان الأرض سابقا ـ سيره نحو المدينة . واندمج ظله فى ظل سكويك ، بينما كان المريخى الصغير يسير قفزا بجانبه ، فى حين تلاشت آخر آثار الليل فوق رأسه ، ومن كل جانب ، كانت النباتات الطويلة غير المزدهرة تتفتح كى تواجه الشمس .

المطبعة الفنية الحديثة
٢٠ شارع الأصبغ بالزيتون ت ٨٦٤٨٧١

الوصول إلى الحقيقة يتطلب إزالة العوائق
التي تعترض المعرفة، ومن أهم هذه العوائق
رواسب الجهل، وسيطرة العادة، والتبجيل المفرط
لمفكري الماضي
أن الأفكار الصحيحة يجب أن تثبت بالتجربة

روجر باكون

التعليم ليس استعدادا للحياة ، إنه الحياة ذاتها
جون ديوي
فيلسوف وعالم نفس أمريكي

هذا الكتاب

أقام أهل الأرض فى المريخ سنوات عشراً ، ثم كانت معركة البقاء . فالهواء لا يصلح للتنفس ، والماء أوشك أن ينفد . . كل قطرة منه قد تكون الأخيرة . . أهل الأرض فى المريخ يعيشون فى فزع القلق والرعب ، وخوف الدمار يسيطر عليهم ، فلا أمـــل لهم إلا الغيب لا يعرفون من أسراره إلا الظلام والإبهام .

ويأتى عليهم حين يحسون فيه أن المعركة خاسرة ، وأنهم ملاقون الهزيمة لا سبيل لهم أن يتفادوها .

وفى ركن قاص من الكوكب يجىء لهم حظهم مفاجأة : أهى الدمار والنهاية ؟ أم هى الأمل والانتصار ؟

فى هذه الرواية العلمية تلتقى بهذه الأحداث تمتزج مع الحقائق العلمية فى خفية وبراعة لا يستطيع أن يوفق إليها إلا عالم فنان مثل مؤلف هذه القصة ، فهى كتاب لا بد أن يقرأ .



الثمن ٤٣ م

سنة ١٩٦٧


Exclusive
For
www.ibtesama.com